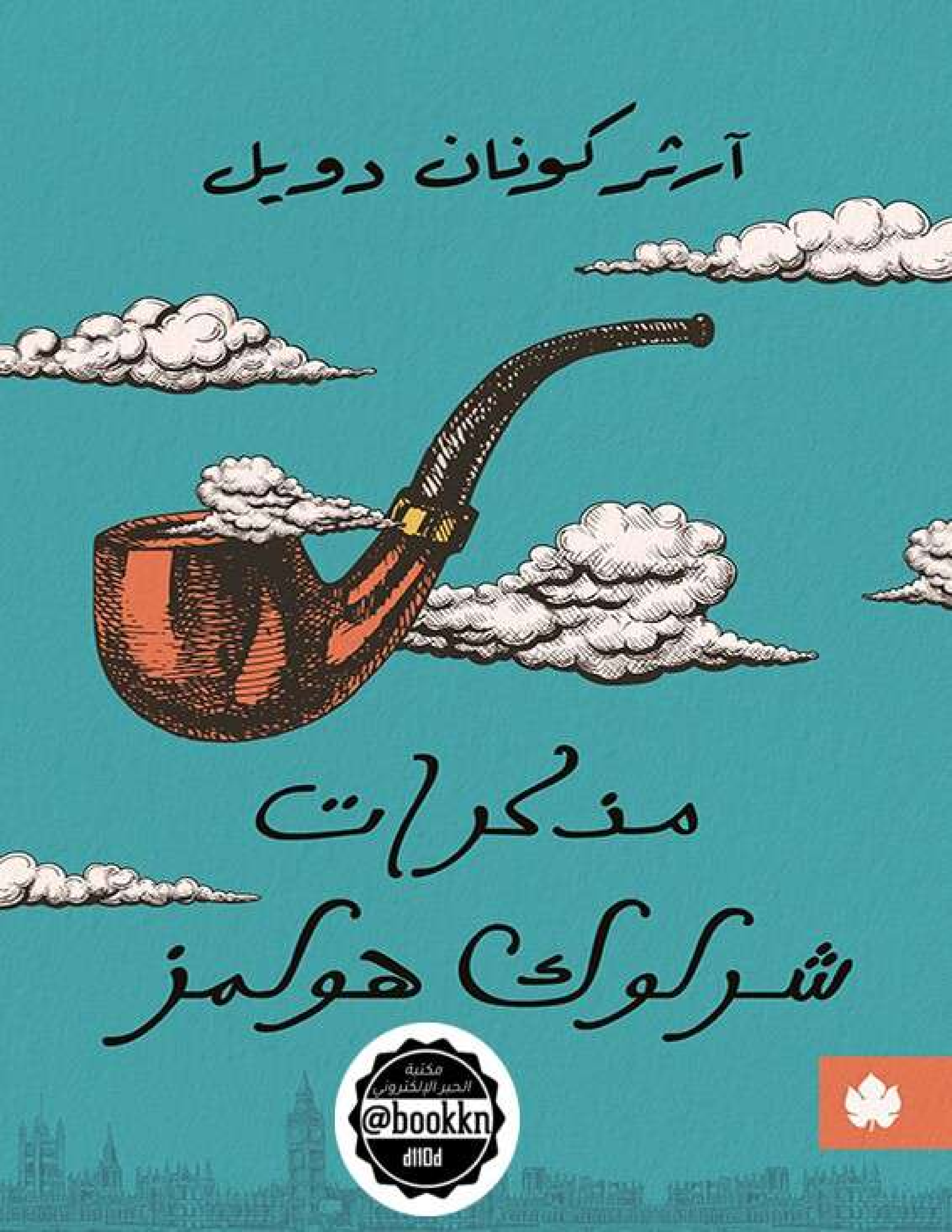


آرثر كونان دويل
مذكرات
شرلوك هولمز
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn


mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

آرثر كونان دويل

مذكرات
شرلوك هولمز

ترجمها عن الإنجليزية
أمين سلامة

مع رسوم «سيدني بيدجت» الأصلية





لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: The Memoirs of Sherlock Holmes

آرثر كونان دويل، 1894

كونان دويل، آرثر، 1859-1930

مذكرات شرلوك هولمز: قصص / آرثر كونان دويل؛ ترجمها من الإنجليزية أمين سلامة - القاهرة: الكرمة للنشر، 2020.

1- القصص الإنجليزية.

أ- سلامة، أمين (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 13849 / 2020

2 4 6 8 10 9 7 5 3 1

الرسوم الداخلية لـ«سيدني بيدجيت» (1860-1908)

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

المحتويات

الجواد «سيلفر بليز»

ذات صباح، وأنا جالس مع صديقي «شرلوك هولمز» نتناول طعام الإفطار، قال:

ـ أخشى يا «واطسون» أنني يجب أن أسافر.

ـ تسافر؟ إلى أين؟

ـ إلى دارتمور ـ إلى كنجز بايلاند.

لم يدهشني ذلك، وإنما الشيء الوحيد الذي أدهشني هو عدم اشتراكه في هذه القضية بالغة الغرابة، التي كانت موضوع الحديث الوحيد في طول إنجلترا وعرضها. أخذ زميلي «هولمز» يجول حول الحجرة، وظل مدة يوم كامل جالسًا وذقنه على صدره وحاجباه ملتصقان، يملأ غليونه بأقوى أنواع التبغ الأسود ثم يفرغه ليملأه مرة أخرى، وقد أصم أذنيه عن أي سؤال أو ملاحظة مني.

أرسل إليه وكيلنا الصحفي كل النسخ الجديدة لجميع الصحف، فكان يلقي عليها لمحة بسيطة، ثم يلقي بها في أحد الأركان. ظل صامتًا كما كان، وكنت أعلم جيدًا في أي شيء يفكر. لم تكن هناك سوى مشكلة واحدة أمام الجمهور تستطيع أن تتحدى قوته على التحليل، ألا وهي اختفاء الحصان «سيلفر بليز» المرشح للفوز بكأس «وسيكس»، ومقتل مدربه. وحينما أعلن فجأة عن عزمه على السفر إلى مسرح الجريمة، كان هذا هو ما كنت أتوقعه وآمل فيه.

قلت:

ـ سأكون سعيدًا جدًّا بالسفر معك، إن لم يقف سفري في الطريق.

ـ يا عزيزي «واطسون»، إنك تسدي إليَّ معروفًا كبيرًا بمجيئك. وأعتقد أن وقتك لن يضيع سدى، وأن هناك نقاطًا في هذه القضية تجعلها فريدة تمامًا. وأظن لدينا وقتًا كافيًا لنلحق القطار في بادنجتون وسأفكر في هذا الموضوع أكثر أثناء رحلتنا، وأكون شاكرًا لو أحضرت معك منظارك المقرب الرائع.

بعد ذلك بساعة أو نحوها، وجدت نفسي في ركن إحدى عربات الدرجة الأولى بقطار السكة الحديدية، في طريقي إلى إكسيتير، بينما جلس «شرلوك هولمز» قبالتي، بوجهه الحاد المتلهف، وعلى رأسه قبعة السفر المتدلية على أذنيه، يتصفح بسرعة حزمة من الصحف حصل عليها من بادنجتون. وكنا قد تركنا ريدنج بمسافة طويلة عندما انتهى من آخر صحيفة منها ووضعها تحت المقعد وقدم إليَّ علبة السيجار.

قال «هولمز» وهو ينظر خارج النافذة وإلى ساعته:

ـ أرانا نسير بسرعة 53.5 ميل في الساعة.

قلت:

ـ لم ألاحظ أعمدة أرباع الميل.



ـ ولا أنا. ولكن أعمدة التلغراف على هذا الخط يبعد كل منها عن الآخر ستين ياردة. ومن السهل جدًّا حساب السرعة. أعتقد أنك فكرت في موضوع مقتل «جون ستريكر» واختفاء الجواد «سيلفر بليز»؟

ـ قرأت عنه فيما كتبته صحيفتا التلجراف، والكرونيل.

ـ إنها قضية يستخدم فيها فن المحقق في تحليل التفاصيل أكثر من الحصول على مزيد من الأدلة. هذه المأساة غير عادية، وجريمة كاملة، وذات أهمية شخصية لكثير من الناس لدرجة أننا سنعاني من كثرة الحدس والافتراض. والصعوبة هنا تكمن في فصل هيكل الحقائق ـ فصل الحقائق البحتة التي لا تنكر ـ عن زخرف أصحاب النظريات والمخبرين، فإذا ما وطدنا أنفسنا على هذا الأساس المتين، فإن من واجبنا أن ننظر إلى الموضوع من ناحية أي النتائج يمكن استنتاجها، وأي النقط الخاصة يدور حولها هذا اللغز. تسلمت برقيتين في مساء يوم الثلاثاء من الكولونيل «روس» صاحب الحصان، ومن المفتش «جريجوري» الذي يحقق في هذه القضية، يطلبان معاونتي.

فقلت مدهوشًا:

ـ مساء الثلاثاء! ونحن الآن صباح يوم الخميس. لماذا لم تسافر أمس؟

ـ لأنني أخطأت، يا عزيزي «واطسون»، وهو أمر شائع الحدوث أكثر مما يمكن أي فردٍ، يعرفني فقط عبر مذكراتك، أن يتصور. الواقع أنني لن أصدق أن هذا ممكن، أن أشهر حصان في إنجلترا يظل مختبئًا كل هذه المدة، ولا سيما في منطقة سكانها قليلون، متناثرون هنا وهناك، مثل دارتمور. وكنت أتوقع بالأمس، من ساعة إلى ساعة، أن أسمع نبأ العثور عليه، وأن خاطفه هو قاتل «جون ستريكر». فلما جاء صباح آخر ولم يستجد شيء أكثر من القبض على الشاب «فيتزروي سيمبسون»، شعرت بأنه آن الأوان للعمل. ومع ذلك، بطريقة أو بأخرى، أشعر أن أمس لم يضِع سدى.

ـ إذن، فهل وجدت نظرية؟

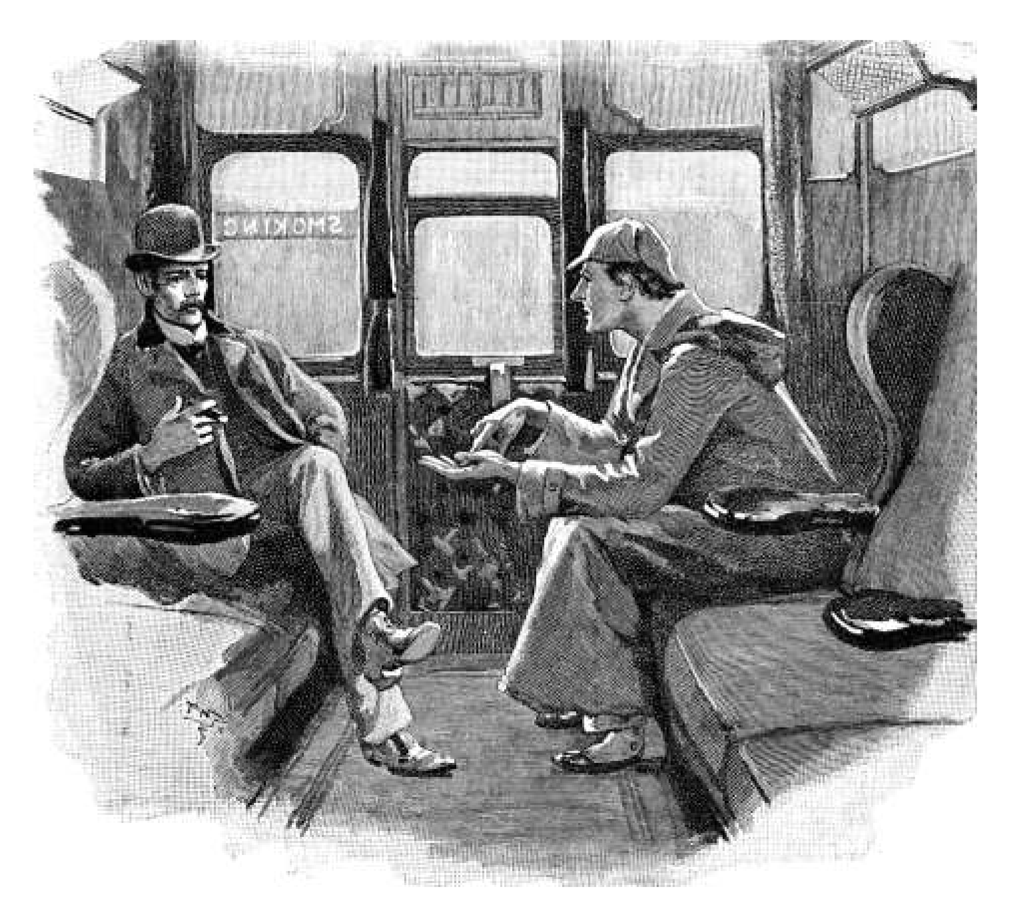
ـ على الأقل، أمسكت بالحقائق الأساسية في هذه القضية، وسأعددها لك. فما من شيء يوضح القضية أكثر من ذكر وقائعها لشخص آخر. وقلما أتوقع إمكان معاونتك لي إن لم أبين لك من أين نبدأ.

أسندت ظهري إلى الوسائد التي خلفي، وأخذت أدخن السيجار، بينما انحنى «هولمز» إلى الأمام وأخذ يعدد الحقائق بسبابته الرفيعة فوق راحة يده اليسرى. وبذا أعطاني فكرة إجمالية عن

الأحداث التي كانت سبب سفرنا.

قال:

ـ «سيلفر بليز» حصان من أصل ممتاز، وسجله رائع مثل سجل سلفه. وهو الآن في الخامسة من عمره، وفاز بجميع جوائز السباق للكولونيل «روس» صاحبه المحظوظ. وحتى وقت هذه الفاجعة، كان هو المرشح الأول للفوز بكأس «وسيكس». والمراهنة عليه ثلاثة إلى واحد. وعلاوة على ذلك لطالما كان



أعطاني فكرة إجمالية عن الأحداث

المفضَّل الأول لجمهور السباق، ولم يُخيب أملهم قَطُّ. وقد راهنوا عليه بمبالغ ضخمة، حتى ولو كانت معه خيول تكاد تكون من رتبته. لذا كان من الجلي أن هناك أشخاصًا، من صالحهم منع «سيلفر بليز» من أن يكون في حلبة السباق وقت هبوط العَلم يوم الثلاثاء المقبل.

وبالطبع قُدرت هذه الحقيقة في كنجز بايلاند حيث يوجد إسطبل التدريب الخاص بالكولونيل «روس». وقد اتخذت جميع الاحتياطات لحراسة ذلك الجواد المرشح للفوز. ومدربه «جون ستريكر»، الجوكي المتقاعد، كان يركب الخيول تحت راية الكولونيل «روس» قبل أن يصير ثقيل الوزن على كرسي الميزان. خدم الكولونيل لمدة خمس سنوات كجوكي، وسبع سنوات كمدرب. وكان دائم التفاني في عمله، وخادمًا أمينًا. وكان تحت إمرته ثلاثة سُيَّاس، إذ كان المكان صغيرًا يضم أربعة خيول فحسب. وكان أحد هؤلاء السيَّاس الثلاثة يبيت في الإسطبل ليلة بينما ينام الآخران في الحجرة العليا، ويتناوبون العمل فيما بينهم. وكانوا جميعًا مستقيمي السلوك ذوي أخلاق سامية. أما «جون ستريكر» المتزوج فكان يعيش في فيلَّا تبعد عن الإسطبلات بمسافة مائتي ياردة. ولم ينجب أطفالًا، وإنما لديه خادمة واحدة، ويعيش سعيدًا. والمنطقة حول هذه المباني منعزلة. وعلى مسافة نصف ميل إلى الشمال مجموعة صغيرة من الفيلَّات بناها أحد المقاولين في تافيستوك لاستعمال المرضى وغيرهم ممن يرغبون في الاستمتاع بهواء دارتمور النقي. وتقع تافيستوك نفسها على مسافة ميلين إلى الغرب، بينما يوجد في تلك المنطقة نفسها على مسافة نحو ميلين، مقر التدريب الأكبر الخاص بكابلتون، ويملكه لورد «باكووتر»، ويديره «سيلاس براون». أما في أي اتجاه آخر فالمنطقة برية مقفرة لا يقطنها سوى قلة من الغجر الرحَّل. هكذا كان الموقف العام في ليلة الاثنين الماضي إذ حدثت المصيبة.

في ذلك المساء، دُرِّبت الخيول وشربت كالمعتاد، وأُقفِلت الإسطبلات في الساعة التاسعة مساءً. فذهب سائسان إلى بيت المدرب حيث تناولا العشاء في المطبخ، بينما بقي الثالث في الإسطبل لحراسته. وبعد التاسعة ببضع دقائق ذهبت الخادمة «إديث باكستر» إلى الإسطبل تحمل عشاء السائس الثالث «ند هنتر»، ويتألف من طبق من لحم الضأن المتبل. ولم تحمل إليه أي سوائل، إذ كان في الإسطبل حنفية للماء النقي. وكانت القاعدة المتبعة هناك، أن السائس الذي عليه الدور في الحراسة لا يشرب أي سوائل غير الماء. حملت الخادمة معها فانوسًا إذ كان الطريق مظلمًا جدًّا، والممر الذي تسير فيه يخترق الأرض المعشوشبة.

ولما كانت «إديث باكستر» على مسافة ثلاثين ياردة من الإسطبلات، خرج لها رجل من وسط الظلام، وناداها لتقف، فوقفت وقد تسرب الخوف إلى قلبها. ولما صار الرجل في دائرة ضوء الفانوس الأصفر، أمكنها أن ترى أنه رجل وسيم التقاطيع يرتدي حلة رمادية من التويد ويلبس قبعة من القماش ولفافات ساق فوق حذائه، وحول عنقه رباط رقبة أحمر اللون ذو خطوط سوداء. ومع

ذلك فقد تأثرت بلونه الشاحب، وحالته العصبية، وتعتقد أنه يبلغ من العمر أكثر من ثلاثين عامًا، وليس أقل من ذلك.

فابتدرها ذلك الرجل بسؤال يقول: «أيمكنك أن تخبريني أين أنا؟ كنت أعتزم أن أنام فوق الأرض المعشوشبة قبل أن أرى ضوء فانوسكِ». قالت: «أنت قريب من إسطبلات تدريب كنجز بايلاند». فصاح الرجل يقول: «آه! أهذا حقيقي! يا له من حظ حسن. أعلم أن سائسًا من عمال الإسطبل يبيت هناك وحده في كل ليلة. ربما كان هذا عشاءه، الذي تحملينه إليه، والآن، أنا على يقين من أنكِ لن تمتنعي عن كسب ثمن فستان جديد، فهل تمتنعين؟». قال هذا وأخرج قطعة ورق بيضاء مطوية، من جيب صدريته، وقال: «أعطي هذه الورقة للسائس الموجود في الإسطبل هذه الليلة، تنالي أجمل فستان يمكن للنقود أن تشتريه».

خافت الخادمة بسبب حدة أخلاقه، وجرت أمامه إلى النافذة التي اعتادت أن تعطي السائس الطعام من خلالها، وكانت مفتوحة وقتذاك. رأت «هنتر» جالسًا إلى المائدة الصغيرة بداخل الإسطبل فأخبرته بما حدث. وبينما هي تتكلم، إذا بالرجل الغريب يأتي مرة أخرى.

أطل الرجل من النافذة وقال: «مساء الخير، أردت أن أتحدث إليك بكلمة». وأقسمت الفتاة على أنه عندما تكلم، لاحظت هي، طرف الكيس الورقي الصغير بارزًا من يده المقفلة. فسأله السائس: «أي شأن لك هنا؟». فقال الرجل: «إنه شأن يجعلك تضع شيئًا في جيبك. لديك حصانان لكأس «وسيكس»، هما «سيلفر بليز»، و«بايارد». أعطني الخبر الصحيح، ولن تكون خاسرًا. أحقيقي أن الأوزان التي يستطيع «بايارد» أن يعطيها للحصان الآخر، هي مائة ياردة في كل 5 فرلونج[1] وأن الإسطبل وضع نقوده عليه؟». فصاح السائس يقول: «إذن، فأنت أحد سماسرة السباق الأنذال الملاعين. سأريك كيف نخدمهم في كنجز بايلاند». قفز الغلام من مقعده واندفع وسط الإسطبل ليحل رباط الكلب. فهربت الفتاة إلى البيت. ولكنها، وهي تجري، نظرت خلفها فرأت الغريب منحنيًا خلال النافذة. وبعد ذلك بدقيقة، عندما اندفع «هنتر» خارجًا مع الكلب، كان الرجل الغريب قد اختفى. ورغم أن السائس جرى يتطلع حول المبنى كله، فإنه لم يعثر له على أثر.

قلت:

ـ لحظة من فضلك. هل ترك السائس باب الإسطبل خلفه مفتوحًا عندما خرج يجري مع الكلب؟

فتمتم رفيقي يقول:

ـ رائع، يا «واطسون»، رائع! شغلتني أهمية هذه النقطة كثيرًا حتى إنني أرسلت برقية خاصة إلى دارتمور بالأمس لاستجلاء الأمر. أغلق السائس الباب خلفه قبل أن يغادر الإسطبل. والنافذة ليست واسعة فتسمح لرجل بالدخول منها.

انتظر «هنتر» حتى رجع زميلاه فأرسل كلمة إلى المدرب يخبره بما حدث. فثار «ستريكر» عند سماعه هذه الأخبار، ولو أنه لم يدرك أهميتها الحقيقية. ولكنه قلق قلقًا غامضًا. واستيقظت «مسز ستريكر» في الساعة الواحدة صباحًا لتجد زوجها يرتدي ملابس الخروج. وردًّا على أسئلتها، أخبرها بأنه لم يستطع النوم لقلقه على الخيول، وأنه ينوي الذهاب إلى الإسطبلات ليطمئن على أن كل شيء على ما يرام. فتوسلت إليه أن يبقى في البيت، وأنها تسمع المطر ينهمر وابلًا على النوافذ. ولكنه على الرغم من كل توسلاتها ارتدى معطف المطر وغادر البيت.

استيقظت «مسز ستريكر» في الساعة السابعة صباحًا لتجد أن زوجها لم يرجع بعد. فارتدت ملابسها بسرعة وخرجت متجهة إلى الإسطبلات، فرأت الباب مفتوحًا و«هنتر» بالداخل في غيبوبة تامة، وموضع الجواد المرشح للفوز خاويًا ولا أثر لمدربه.

أُوقظ السائسان اللذان ينامان في مخزن التبن فوق حجرة السروج، بسرعة. لم يسمعا شيئًا أثناء الليل إذ كانا ينامان نومًا عميقًا. ومن الجلي أن «هنتر» كان تحت تأثير عقار مخدر قوي. وإذ لم يمكن الحصول على أي كلام منه، خرجت المرأتان والسائسان ليبحثوا عن الغائبين. وكان الأمل لا يزال يحدوهم في أن المدرب أخذ الحصان للتدريب في الصباح الباكر. ولكن عندما هبطوا التل قريبًا من البيت حيث تُمكن رؤية السهل المعشوشب كله، لم يستطيعوا أن يروا أي أثر للحصان المرشح للفوز، ولكنهم أبصروا شيئًا أنذرهم بأنهم في حضرة مأساة.

على مسافة نحو ربع ميل من الإسطبلات، كان معطف «جون ستريكر» يرفرف على شجرة كثيرة الأشواك، ووراءها مباشرة تجويف غائر في الأرض بهيئة سُلطانية، ولما ذهبوا إلى ذلك التجويف، رأوا في قاعه جثة المدرب سيئ الحظ مهشم الرأس بضربات وحشية من سلاح ثقيل،

وبفخذه جرح طويل غائر، من الجلي أنه حدث بسلاح حاد جدًّا. كما كان واضحًا أيضًا أن «ستريكر» دافع عن نفسه بعنف ضد مهاجميه، إذ كان يمسك في يده اليمنى سكينًا صغيرة، بينما يمسك في يسراه رباط رقبة حريريًّا لونه أحمر وأسود، تعرفت فيه الخادمة على رباط الرقبة الذي كان يلبسه الرجل الغريب الذي جاء إلى الإسطبلات في الليلة الماضية. عندما أفاق «هنتر» من غيبوبته، كان متأكدًا أيضًا من ملكية رباط الرقبة، كما كان على يقين من أن ذلك الغريب وضع له المخدر في اللحم المتبل أثناء وقوفه عند النافذة، وبذا جرد الإسطبلات من حارسها. أما عن الحصان الغائب، فهناك أدلة كثيرة في الطين الموجود عند قاع التجويف، موضع القتل، على أن الحصان كان هناك وقت النضال. ولكنه اختفى منذ ذلك الصباح. ورغم عرض مكافأة ضخمة، ويقظة جميع الغجر المقيمين في دارتمور، فلم تأتِ أي أنباء عنه. وأخيرًا، أبان التحليل أن بقايا العشاء الذي تركه السائس المكلف بالحراسة في تلك الليلة، تحتوي على كمية كبيرة من الأفيون المسحوق، بينما تناول من كانوا في المنزل من ذلك الطبق نفسه وفي تلك الليلة نفسها، دون أن يصيبهم أي أثر سيئ.

هذه هي الحقائق الرئيسية لهذه القضية، عارية من أي تنميق أو تزويق، ومروية بأسلوب بسيط قدر الإمكان. وسأراجع الآن ما فعله البوليس في هذا الموضوع.

المفتش «جريجوري»، الذي عهد إليه التحقيق في هذه القضية، ضابط قدير عظيم الكفاءة، ولو وهب قوة الخيال لارتفع إلى درجات سامية جدًّا في مهنته. فعند وصوله، وجد بسرعة ذلك الرجل الذي تحوم حوله الشبهة طبيعيًّا، وقبض عليه. لم يجد صعوبة في العثور عليه، لأنه كان معروفًا جيدًا في تلك المنطقة، واسمه «فيتزروي سيمبسون». كان رجلًا شريف المولد ممتاز التعليم، بذَّر ثروة كبيرة في سباق الخيل، ويكسب عيشه الآن من المراهنات الهادئة على سباق الخيول في نوادي السباق بلندن. وبفحص مراهناته تبين أنه سجل مراهنات على «سيلفر بليز» تبلغ خمسة آلاف جنيه. حينما قُبض على «سيمبسون»، تطوع بالاعتراف بأنه جاء إلى دارتمور أملًا في الحصول على بعض المعلومات عن خيول كنجز بايلاند، وكذلك عن «ديزبروه»، المرشح الثاني للفوز، الذي في عهدة المدرب «سيلاس براون» في إسطبلات كابلتون. لم يحاول إنكار المسلك الذي نسب إليه في تلك الليلة، ولكنه أنكر وجود أي خطط إجرامية لديه، بل كان كل غرضه هو الحصول على معلومات أكيدة عن هذه الخيول. وعند مواجهته برباط الرقبة، امتقع لونه ولم يستطع تفسيرًا لوجوده في يد القتيل. واتضح من ابتلال ملابسه، أنه كان بالخارج وقت العاصفة في الليلة الماضية. أما عصاه فهي من نوع «بينانج»، المحشوة بالرصاص، وبذا أحدثت الضربات المتكررة بها، تلك

الإصابات الفظيعة التي أودت بحياة المدرب. ومن ناحية أخرى، فلم يكن بجسمه أي جرح، مع أن سكين «ستريكر» تدل على أن واحدًا على الأقل من مهاجميه لا بد أن يحمل علامة تلك السكين. وهأنتذا عرفت كل شيء باختصار، يا «واطسون»، فلو ألقيت ضوءًا على هذه القضية، أكن لك شاكرًا جدًّا.

أصغيت بانتباه إلى الحقائق التي وضعها أمامي «هولمز» بتوضيحه المعهود. رغم أنني كنت على علم بمعظم هذه الوقائع، فإنني لم أقدر أهمية كل منها بالنسبة إلى الأخرى، أو علاقتها بها.

قلت:

ـ أليس من الممكن أن يكون الجرح الذي في فخذ «ستريكر» قد أحدثته السكين التي في يده أثناء النضال العنيف التشنجي الذي يعقب أي إصابة في المخ؟

فقال «هولمز»:

ـ هذا أكثر من ممكن؛ إنه مرجَّح. وفي هذه الحال، تختفي إحدى النقط الرئيسية التي في صالح المتهم.

قلت:

ـ ومع ذلك، فأنا حتى الآن أفشل في فهم ما يمكن أن تكون عليه نظرية البوليس.

فقال زميلي:

ـ أخشى أن تلقى أي نظرية تذكرها، اعتراضات كثيرة. فإن البوليس يتصور أنه بعد أن خدر «فيتزروي سيمبسون» السائس، وبعد أن حصل بطريقة ما على نسخة من المفتاح، فتح باب الإسطبل، وأخرج الحصان بقصد خطفه كلية. وعلاوة على هذا، فإن لجامه غير موجود، مما يدل على أن «سيمبسون» لا بد أن وضَع له اللجام. وبعد أن ترك الباب مفتوحًا خلفه، انطلق بالحصان فوق السهل المعشوشب، حيث التقى بالمدرب، أو المدرب لحق به. وبطبيعة الحال حدث التحام، فانهال «سيمبسون» بعصاه الثقيلة على رأس المدرب دون أن يصاب بأقل أذى من السكين الصغيرة التي استخدمها «ستريكر» في الدفاع عن نفسه. بعد ذلك، إما أن يكون اللص قد انطلق بالحصان إلى

مخبأ، أو أن الحصان هرب أثناء التلاحم، وهو الآن يجول فوق السهول المعشوشبة. هذه هي القضية كما يراها البوليس. ورغم كونها غير محتملة، فإن التفسيرات الأخرى غير محتملة أيضًا. ومع ذلك فإنني سأدرس الموضوع بمجرد وصولي إلى مسرح الجريمة. وحتى عند ذلك فلا أستطيع أن أرى كيف سيمكننا أن نتقدم أكثر من مركزنا الحالي.

حل المساء قبل وصولنا إلى بلدة تافيستوك الصغيرة التي تقع مثل سرة الدرع في وسط دائرة دارتمور الكبرى. وكان بانتظارنا عند المحطة رجلان، أحدهما فارع الطول أبيض البشرة، ذو شعر ولحية كشعر الأسد، وعينين زرقاوين فاحصتين بصورة غريبة. أما الآخر فرجل صغير متيقظ، أنيق الهندام، يرتدي معطفًا قصيرًا، ولفافة ساق، ويمتد عارضاه إلى أسفل أذنيه، ويضع على عينه اليمنى «مونوكل»[2]. هذا الأخير هو الكولونيل «روس» الرياضي المشهور. أما الآخر فهو المفتش «جريجوري» الذي صنع اسمه بسرعة في إدارة البوليس السري الإنجليزي.

قال الكولونيل:

ـ يسرني مجيئك يا «مستر هولمز». قام المفتش هنا بعمل كل ما يمكن اقتراحه، ولكني أود ألا أترك أي شيء يفوتنا لكي أنتقم لموت «ستريكر» المسكين، واستعادة حصاني.

فسأله «هولمز»:

ـ هل حدث أي جديد؟

فقال المفتش:

ـ يؤسفني أن أقول إننا لم نحرز إلا تقدمًا بسيطًا جدًا. لدينا عربة مفتوحة خارج المحطة. وبما أنك تود رؤية المكان قبل أن يخيم الليل، فيمكننا أن نتكلم ونحن في طريقنا بالعربة إلى هناك.

بعد ذلك بدقيقة، كنا جميعًا جالسين في عربة «لاندو» خلال بلدة ديفونشير الغريبة. كان المفتش «جريجوري» ملمًا بقضيته كل الإلمام، فألقى سيلًا من الملاحظات، بينما يصغي «هولمز»، ويلقي بين آنٍ وآخر سؤالًا أو تفسيرًا. وأسند الكولونيل «روس» ظهره في العربة ووضع ذراعيه واحدة فوق أخرى، وأمال قبعته فوق عينيه،



يسرني مجيئك يا «مستر هولمز »

بينما كنت أصغي باهتمام للحوار الدائر بين قطبَي البوليس السري. صاغ «جريجوري» نظريته التي تكاد تشبه تمامًا ما ذكره لي «هولمز» في القطار.

أبدى «هولمز» ملاحظته قائلًا:

ـ الشبكة تلتف تمامًا حول «فيتزروي سيمبسون»، وأنا شخصيًّا أعتقد أنه رجلنا. غير أنني، في الوقت نفسه، أرى أن الأدلة ضده كلها استنتاجية بحتة، وقد يمحوها تقدم جديد.

ـ وماذا عن سكين «ستريكر»؟

ـ لقد استنتجنا أنه جرح نفسه أثناء سقوطه. أبدى صديقي الدكتور «واطسون» هذا الاقتراح ونحن قادمان. فإن كان الأمر هكذا، صار دليلًا ضد ذلك الرجل «سيمبسون».

ـ بلا شك، فليست لديه سكين، وليس به أي أثر لجرح. لذا كان هذا الدليل ضده قويًّا جدًّا بكل تأكيد. فله صالح عظيم في اختفاء ذلك الحصان، ويشتبه في أنه خدر السائس الحارس للإسطبل، كما أنه خرج أثناء العاصفة، وكان مسلحًا بعصا ثقيلة، ووُجِد رباط رقبته في يد القتيل. وأعتقد حقًّا أن لدينا ما يكفي لنذهب أمام جماعة من المحلفين.

هز «هولمز» رأسه وقال:

ـ إن دفاعًا بارعًا قد يحطم كل ذلك. ماذا يدعوه إلى أخذ الحصان من الإسطبل؟ فإذا كان يريد إيذاءه، فلماذا لم يؤذِه داخل الإسطبل؟ هل وجدت معه نسخة من المفتاح؟ وأي صيدلي باعه مسحوق الأفيون؟ وفوق كل هذا، أين يمكنه إخفاء مثل هذا الحصان الشهير، وهو غريب عن المنطقة؟ وما هو تفسيره عن الورقة التي أراد أن يعطيها للخادمة كي توصلها إلى السائس؟

ـ قال إنها ورقة بعشرة جنيهات. وجدت ورقة بعشرة جنيهات في وفاضه. أما مشاكلك الأخرى فليست فظيعة كما تبدو. و«سيمبسون» هذا ليس غريبًا عن المنطقة، إذ أقام مرتين في تافيستوك أثناء الصيف، ومن المحتمل أن يكون اشترى الأفيون من لندن. وأما المفتاح، فبعد أن أدى الغرض منه، ألقاه في مكان ما. وقد يكون الحصان في قاع إحدى الحفر أو التجاويف، أو في أحد المناجم بتلك المنطقة.

ـ وماذا قال عن رباط الرقبة؟

ـ اعترف بملكيته له، وقال إنه ضاع منه. إلا إن عنصرًا جديدًا استجد في القضية يفسر أخذه الحصان من الإسطبل.

أرهف «هولمز» أذنيه.

ـ وجدنا آثارًا تدل على أن جماعة من الغجر أقاموا خيامهم في ليلة الاثنين على مسافة ميل من المكان الذي قتل فيه المدرب. وفي يوم الثلاثاء انصرفوا. فلو فرضنا حدوث تفاهم بين «سيمبسون» وهؤلاء الغجر، وبذا أودع الحصان عندهم حينما شعر بأنه يطارد، فهل يكون الحصان لديهم الآن؟

ـ بالتأكيد هذا ممكن.

ـ فتشنا المنطقة عن هؤلاء الغجر، كما فحصنا كل إسطبل وكل كوخ في تافيستوك وفي دائرة قطرها عشرة أميال.

ـ أعلم أن هناك إسطبل تدريب قريبًا جدًّا.

ـ نعم، وهذا عامل يجب ألا نهمله، ما في ذلك شك. فلما كان حصانهم «ديزبروه» هو الثاني في المراهنة، فلهم صالح في اختفاء «سيلفر بليز». والمعروف أن «سيلاس براون»، مدربه، قد راهن بمبالغ كبيرة على هذا السباق، ولم يكن صديقًا لـ«ستريكر» المسكين. وقد فحصنا إسطبلاته فلم نجد بها شيئًا يمكن أن يجعل له علاقة بهذا الموضوع.

ـ ألا يوجد شيء يجعل لـ«سيمبسون» هذا علاقة بمصالح إسطبلات كابلتون؟

ـ لا شيء إطلاقًا.

استند «هولمز» بظهره إلى الخلف في العربة، وتوقف الحديث. وبعد بضع دقائق، وقفت العربة أمام فيلًا صغيرة أنيقة من الطوب الأحمر ذات سقف ممتد إلى الخارج، قائمة على الطريق. وعلى مسافة ما، خلال متنزه صغير، يوجد مبنى طويل، ذو سقف من القرميد الرمادي، تابع لها. وتمتد المنحنيات المنخفضة في كل جهة من السهل المعشوشب، وقد تحول لونها إلى البرونزي بسبب أعشاب السرخس الذابلة، وتمتد إلى خط الأفق، لا يرتفع وسطها سوى منائر كنائس بلدة تافيستوك، وبعض مجموعات من البيوت الممتدة غربًا والتي بها إسطبلات كابلتون. نزلنا جميعًا من العربة، ما عدا «هولمز» الذي استند بظهره إلى الخلف وثبت عينيه نحو السماء أمامه، منهمكًا في أفكاره الخاصة، ولم ينتبه إلا عندما لمست ذراعه، فنهض مذعورًا وخرج من العربة.

قال «هولمز» وهو يستدير نحو الكولونيل «روس» الذي نظر إليه في شيء من الدهشة:

ـ عفوًا، فقد كنت غارقًا في التفكير.

كان في عينيه بريق وانفعال مكبوت، أقنعاني، أنا الذي ألفت طرقه، بأن يده وقعت على مفتاح لحل هذه القضية، ولو أنني لا أستطيع أن أتصور أين وجده.

فقال «جريجوري»:

ـ ربما فضلت أن تذهب إلى مسرح الجريمة مباشرة، يا «مستر هولمز»؟

ـ أظنني أفضل البقاء هنا قليلًا، وأسأل سؤالًا أو اثنين عن بعض التفاصيل. أعتقد أن «ستريكر» أُحضِر ثانية إلى هنا، أهذا صحيح؟

ـ نعم، وهو بالدور العلوي. والتحقيق غدًا.

ـ كان في خدمتك بعض السنين، يا كولونيل «روس»؟

ـ كنت أراه دائمًا خادمًا ممتازًا.

ـ أعتقد أنك جردت ما كان في جيوبه وقت موته، أيها المفتش؟

ـ لديَّ الأشياء نفسها في حجرة الجلوس إذا راقك أن تراها.

ـ يسرني ذلك.

دخلنا جميعًا الحجرة الأمامية، وجلسنا حول المائدة الوسطى، ففتح المفتش قفل علبة من الصفيح ووضع أمامنا كومة صغيرة من الأشياء. كانت هناك علبة ثقاب من الشمع، وشمعة طولها خمس بوصات وغليون، وكيس من جلد عِجل البحر به نصف أوقية من تبغ «كافنديش»، وساعة فضية وسلسلة ذهبية، وخمسة جنيهات ذهبًا، وعلبة أقلام من الألومنيوم، وقليل من الأوراق، وسكين ذات مقبض من العاج ولها نصل رفيع جدًّا غير قابل للالتواء، مكتوب عليه: ««وايس» وشركاؤه، لندن».

قال «هولمز»:

ـ هذه سكين طريفة جدًّا.

ورفعها إلى أعلى وفحصها بعناية ثم استطرد يقول:

ـ أعتقد أنني ما دمت أرى عليها بقع دم، فهي السكين التي وجدت في قبضة القتيل. من المؤكد، يا «واطسون»، أن هذه السكين من اختصاصك.

قلت:

ـ إنها ما نسميه مشرط «الكاتاراكتا».

ـ أعتقد هذا. إنه نصل دقيق جدًّا، مصمم للعمليات بالغة الدقة. ومن الغريب جدًّا أن يحملها رجل في رحلة كهذه، لأنها لا يمكن أن تقفل في جيبه.

قال المفتش:

ـ وجدنا قرصًا من الفلين لحماية سنها، بجانب جثته. ثم إن زوجته أخبرتنا بأن هذه السكين كانت موضوعة على التسريحة منذ عدة أيام، وأنه أخذها حينما غادر الحجرة. إنها سلاح ضعيف للدفاع عن النفس، ولكن ربما كانت خير ما في متناول يده وقتذاك.

ـ ممكن جدًّا. وماذا عن الأوراق؟

ـ ثلاث منها للمبالغ التي تسلمها تاجر الدريس، وواحدة خطاب يحمل تعليمات من الكولونيل «روس»، والورقة الأخيرة فاتورة من محل أزياء للسيدات بسبعة وثلاثين جنيهًا وخمسة عشر شلنًا، صادرة من «مدام لزورييه» في بوندستريت إلى «وليم ديربيشير»، وبسؤال «مسز ستريكر»، قالت إن «ديربيشير» هذا صديق زوجها، «وأحيانًا كانت خطاباته تأتي على عنواننا».

نظر «هولمز» إلى مفردات الحساب وأبدى ملاحظته قائلًا:

ـ إن «مدام ديربيشير» هذه لها مزاج في الملابس باهظة الثمن. إن اثنين وعشرين جنيهًا مبلغ كبير جدًّا لفستان واحد. ومع ذلك، يبدو أنه لا شيء أكثر من ذلك يمكننا أن نعمله. والآن بوسعنا أن نهبط ونذهب إلى مسرح الجريمة.

حينما خرجنا من حجرة الجلوس، كانت هناك امرأة تنتظر في الممر، فتقدمت ووضعت يدها على كُمِّ المفتش. كان وجهها هزيلًا شاحب اللون، تبدو عليها اللهفة وآثار فزع حديث.

قالت وهي تلهث:

ـ هل وجدتهم؟ هل وجدتهم؟

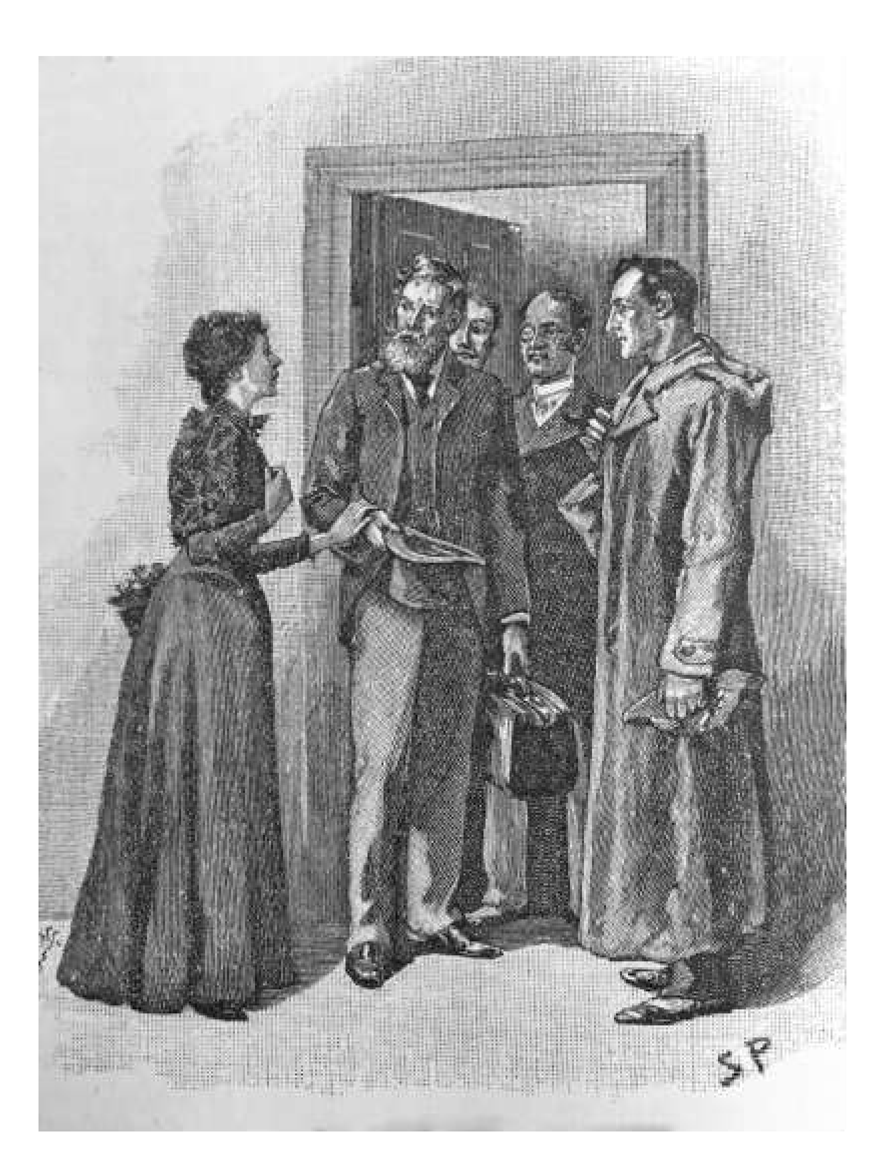
ـ كلا، يا «مسز ستريكر». ولكن «المستر هولمز» هنا، جاء من لندن ليساعدنا، وسنعمل كل ما هو ممكن.

فقال «هولمز»:

ـ من المؤكد أنني رأيتك في بلايموث في حفل بالحديقة، من وقت قريب يا «مسز ستريكر».

ـ كلا، يا سيدي أنت مخطئ.

ـ يمكنني أن أقسم على هذا، يا عزيزتي. وكنت مرتدية فستانًا من الحرير في لون اليمام وبه حليات من ريش النعام.



قالت وهي تلهث: «هل وجدتهم؟ هل وجدتهم؟ »

فقالت السيدة:

ـ لم يكن عندي مثل هذا الفستان، إطلاقًا، يا سيدي.

فقال «هولمز»:

ـ هذا يسوي الموضوع تمامًا.

واعتذر، ثم تبع المفتش إلى الخارج. فسرنا لمدة قصيرة عبر السهل المعشوشب إلى التجويف الذي وجدت به الجثة، وعلى حافته الشجيرة الشوكية التي علق عليها المعطف.

فقال «هولمز»:

ـ أعلم أنه لم تكن هناك ريح في تلك الليلة.

ـ لم تكن هناك ريح، وإنما كان هناك مطر غزير.

ـ إذن فالريح لم تُطيِّر المعطف إلى الشجيرة، بل وُضع عليها.

ـ نعم، وُضع على الشجيرة.

ـ إنك تملأني إعجابًا، أرى أن الأرض وُطئت كثيرًا. لا شك في أن أقدامًا عديدة كانت هنا منذ ليلة الاثنين.

ـ وضعت قطعة من البساط في أحد الجوانب ووقفنا جميعًا فوقها.

ـ رائع.

ـ أحتفظ في هذه الحقيبة بإحدى فردتَي الحذاء الذي كان يلبسه «ستريكر»، وإحدى فردتَي حذاء «فيتزروي سيمبسون»، وقالب لحدوة حافر «سيلفر بليز».

ـ إنك لتدهشني أيها المفتش.

قال «هولمز» هذا، وأخذ الحقيبة ونزل إلى التجويف، فوضع قطعة البساط إلى وضعٍ يتجه نحو الوسط أكثر من ذي قبل، ثم استلقى على وجهه وأسند ذقنه على يديه وفحص بعناية الطين الذي أمامه والذي وُطئ.

فقال «هولمز» فجأة:

ـ مرحى! ما هذا؟

كان عود ثقاب من الشمع نصف محترق ومغطى بالطين حتى بدا أولًا كشظية صغيرة من الخشب.

فقال المفتش بضيق واضح:

ـ كيف حدث أنني لم ألاحظ هذا!

ـ لم يكن ظاهرًا للعين، وإنما كان مدفونًا في الطين، ولم أبصره إلا لأنني كنت أبحث عنه.

ـ ماذا! توقعت أن تجده؟

ـ اعتقدت أنه احتمال غير بعيد.

قال هذا وأخرج الأحذية من الحقيبة، وقارن كل حذاء منها بالآثار الموجودة على الأرض، ثم صعد إلى الحافة وزحف وسط أعواد السرخس والشجيرات.

قال المفتش:

ـ أخشى أنه لا توجد آثار أخرى. لقد فحصت بعناية كبيرة لمسافة مائة ياردة من كل ناحية.

قال «هولمز» وهو ينهض:

ـ حقيقة! ما كان لي أن أتجرأ بمثل هذه الوقاحة على أن أفحصها ثانية بعد أن قلت إنك فحصتها. ولكني أود أن أسير قليلًا على السهل المعشوشب قبل أن يأتي الظلام، حتى يمكنني معرفة الأساس الذي أعمل بمقتضاه غدًا. وأظنني سأضع حدوة الحصان هذه في جيبي لتأتيني بحسن الحظ.

نظر الكولونيل «روس» إلى ساعته بعد أن أبدى بعض القلق من طريقة عمل زميلي الهادئة المنظمة، فقال:

ـ أود أن تعود معي، أيها المفتش. هناك كثير من الأمور أرغب في الاسترشاد بنصحك فيها، ولا سيما فيما إذا كنا نعلن للجمهور أننا سنشطب اسم حصاننا من مسابقة الكأس.

فصاح «هولمز» بإصرار:

ـ طبعًا لا، أريد أن يبقى الاسم.

انحنى الكولونيل، وقال:

ـ يسرني أن أعمل برأيك، يا سيدي. ستجدنا في بيت «ستريكر» المسكين بعد أن تنتهي من جولتك، وعندئذ يمكننا أن نركب العربة معًا إلى تافيستوك.

استدار الكولونيل بعد ذلك ورجع مع المفتش، بينما سرت أنا و«هولمز» ببطء خلال السهل المعشوشب. وقد بدأت الشمس تغيب وراء إسطبلات كابلتون، واصطبغ السهل الطويل المنحدر الممتد أمامنا باللون الذهبي الذي تحول بعده إلى البني المائل إلى الحمرة، بينما التقطت أعواد السرخس والأشواك ضوءَ المساء. غير أن أمجاد جمال المنظر الطبيعي ضاعت كلها باستغراق زميلي في أعمق تفكير.

وأخيرًا التفت «هولمز» وقال:

ـ طريقنا الآن، يا «واطسون»، أن نترك قضية قاتل «ستريكر» ونركز بحثنا على مصير الحصان. افرض أنه انطلق هاربًا أثناء المأساة أو بعدها، فإلى أين يمكن أن يذهب؟ والحصان مخلوق اجتماعي بطبعه، إذا ترك وشأنه، فإما أن يعود إلى كنجز بايلاند وإما أن يذهب إلى كابلتون. إنه لا يعود وحشيًّا يعدو فوق أعشاب السهل. لا بد أن يكون قد رؤيَ الآن. ولماذا يخطفه الغجر؟ يرحل أولئك القوم دائمًا عندما يسمعون عن حادث، لأنهم يتحاشون باستمرار إزعاج البوليس لهم. ولا يمكن أن يفكروا في بيع مثل هذا الحصان وإلا زجوا بأنفسهم في مخاطرة كبرى، لن يربحوا منها شيئًا. هذا واضح أكيد.

ـ إذن، فأين هو؟

ـ قلت من قبل: إما أن يكون قد ذهب إلى كنجز بايلاند أو إلى كابلتون. وبما أنه غير موجود في كنجز بايلاند، إذن فلا بد أن يكون في إسطبلات كابلتون. لنركز كل عملنا على هذا الأساس، وننتظر إلى أين يقودنا. هذا الجزء من السهل صلب وجاف، كما قال المفتش، ولكنه يمتد منخفضًا نحو كابلتون، وبوسعك أن ترى من هنا، أن هناك تجويفًا طويلًا، لا بد أنه كان مبتلًّا في ليلة الاثنين. فلو كان فرضُنا صحيحًا لكان من المؤكد أن الحصان عبر ذلك التجويف ويمكننا أن نقتفي أثره.

أخذنا نسير حثيثًا أثناء ذلك الحديث، وبعد بضع دقائق وصلنا إلى التجويف، وتبعًا لطلب «هولمز»، سرت أنا على الجانب الأيمن لهذا التجويف بينما سار هو على جانبه الأيسر، وما كدت أسير خمسين خطوة حتى سمعته يرسل صيحة، ويلوح لي بيده. من الجلي أنه رأى أثر حوافر حصان في الأرض الرخوة أمامه، وقد طابقت حدوةُ الحصان، التي أخذها من جيبه، الأثرَ الذي عثر عليه تمام المطابقة.

فقال «هولمز»:

ـ أترى قيمة التصور، إنه الصفة الضرورية الوحيدة التي تنقص «جريجوري». تصورنا ما يمكن أن يكون قد حدث، وتحركنا تبعًا لفرضنا. وفي دقائق معدودة وجدنا أنفسنا قد كوفئنا. ولنبدأ العمل الآن.

عبرنا القاع المبتل، وسرنا فوق السهل المعشوشب مسافة ربع ميل من الأرض الجافة. واستمرت الأرض في الانحدار ثانية، ووصلنا مرة أخرى إلى الأثر. ثم ضاع الأثر منا مسافة نصف ميل، ليعاود الظهور ثانية قريبًا من كابلتون. كان «هولمز» هو الذي أبصر الأثر أولًا، فوقف يشير وقد تجلت على وجهه سيماء الانتصار. كان هناك أثر قدمَي رجل بجانب أثر حوافر الحصان.

صحت أقول:

ـ كان الحصان وحده من قبل.

ـ هو هكذا، بالضبط. مرحى! ما هذا؟

دار الأثر دورة حادة إلى ناحية كنجز بايلاند، فصفر «هولمز»، وتبعنا، كلانا، ذلك الأثر. كانت عيناه على الأثر، وتصادف أنني نظرت قليلًا إلى أحد الجانبين، فرأيت ما أدهشني. رأيت

الآثار نفسها تعود ثانية فتستدير في الاتجاه المضاد.

قال «هولمز» حينما أشرت إلى ذلك:

ـ هذه واحدة لك يا «واطسون». كفيتنا سيرًا طويلًا كان سيقودنا ثانية إلى آثار أقدامنا نحن أنفسنا. فلنتتبع ذلك الأثر.

لم نذهب بعيدًا. انتهت آثار الأقدام على الطوار الأسفلتي المؤدي إلى أبواب إسطبلات كابلتون. وعندما اقتربنا منها، خرج منها سائس يجري، ويقول:

ـ لا نريد أحدًا يتلكأ هنا.

فقال «هولمز»، وقد وضع سبابته وإبهامه في جيب صدريته:

ـ أريد أن أسأل سؤالًا واحدًا فحسب: هل أكون مبكرًا لو جئت لرؤية سيدك «المستر سيلاس براون» في الساعة الخامسة صباحًا؟

ـ فليباركك الله، يا سيدي. إن كان هناك من يستيقظ مبكرًا جدًّا، فسيدي هو أول من يستيقظ. ولكنه هنا الآن، يا سيدي، ليجيب عن أسئلتك بنفسه. كلا، يا سيدي، كلا. فلو أبصرني أحد ألمس نقودك لأفقدني عملي. فيما بعد إن أحببت.

عندما أعاد «شرلوك هولمز» إلى جيبه نصف الكراون الذي أخرجه، برز من الباب رجل عجوز وحشي المنظر، تتأرجح في يده عصا صيد.

صاح هذا الرجل يقول:

ـ ما هذا يا «دوسون»؟ كف عن الثرثرة. اذهب إلى عملك! وأنت، ماذا تريد هنا، بحق الشيطان؟

فقال «هولمز» في أعذب صوت:

ـ أريد أن أتحدث إليك عشر دقائق يا سيدي العزيز.

ـ لا وقت عندي للتحدث إلى كل من هب ودب. لا نريد أي أغراب هنا. انصرف وإلا وجدت كلبًا عند قدميك.

انحنى «هولمز» إلى الأمام وهمس شيئًا في أذن المدرب. فاضطرب هذا الأخير واحمر وجهه حتى صدغيه، وصاح يقول:

ـ هذه كذبة! كذبة جهنمية!

ـ حسنًا! هل نتجادل بخصوصها هنا علنًا، أم نتحدث عنها في بَهْوك؟

ـ هيا، ادخل إذا رغبت في ذلك.

ابتسم «هولمز»، وقال:

ـ لن أتركك تنتظر هنا أكثر من بضع دقائق يا «واطسون». والآن، أنا تحت تصرفك يا «مستر براون».

استغرق ذلك عشرين دقيقة تمامًا، وتحول اللون الأحمر كله إلى لون رمادي قبل خروج «هولمز» والمدرب. ولم أرَ في حياتي كلها تغيرًا كالذي بدا على «سيلاس براون»، في مثل ذلك الوقت القصير. كان وجهه شاحبًا جدًّا، وحبات العرق تتألق على جبينه، ويداه ترتجفان حتى إن عصا الصيد كانت تهتز في يده كما يهتز الغصن أمام الريح. كذلك اختفت النغمة المتعجرفة التي ظهرت في كلامه أولًا، وسار إلى جانب زميلي كما يسير الكلب مع صاحبه.

قال «براون»:

ـ ستنفذ تعليماتك، ستنفذ.

فقال «هولمز» وهو يتلفت حوله:

ـ يجب ألا يكون هناك أي خطأ.



انصرف

فانزعج «براون» عندما قرأ دلائل التهديد في عينيه، وقال:

ـ لن يكون هناك أي خطأ. سيكون هناك. هل أغيره أولًا، أم لا؟

فكر «هولمز» قليلًا، ثم انفجر ضاحكًا وقال:

ـ كلا، لا تغيره. سأكتب لك بشأنه. حذارِ من أي خداع وإلا...

ـ يمكنك أن تثق بي، يمكنك أن تثق بي!

ـ نعم، أظنني أستطيع ذلك. إذن، فستسمع مني غدًا.

قال «هولمز» هذا واستدار متجاهلًا اليد المرتجفة التي مدها الآخر له، وسرنا نحو كنجز بايلاند.

فقال «هولمز» ونحن نسير معًا:

ـ قلما التقيت في حياتي بخليط من الفتوة والجبان والمنافق أكثر من «المستر سيلاس براون».

ـ إذن، فالحصان عنده؟

ـ حاول التملص من ذلك، ولكني شرحت له بالضبط تحركاته كلها في ذلك الصباح، حتى اقتنع بأنني كنت أراقبه. وبالطبع لاحظتَ أصابع القدم المربعة الغريبة في آثار الأقدام، وأن حذاءه ينطبق على الآثار تمام الانطباق. ثم إنه ما من تابع كان يجرؤ على فعل مثل ذلك الشيء. وصفت له كيف أنه ـ عندما كان تبعًا لعادته أول من يستيقظ ـ رأى حصانًا غريبًا يسير فوق السهل، وكيف ذهب إليه، ومبلغ دهشته عندما تعَرف عليه من جبهته البيضاء التي أعطته اسمه، وأن الصدفة وضعته في يده، وهو الحصان الوحيد الذي يمكنه أن يتغلب على الحصان الذي راهن عليه بنقوده. ووصفت له كيف أنه أراد أولًا أن يقوده إلى كنجز بايلاند، وكيف وسوس له الشيطان وبيَّن له كيف يخفيه حتى ينتهي السباق، وكيف عاد به وأخفاه في كابلتون. فلما رأى أنني أخبرته بكل شيء، ترك فكرته الأولى، وكل ما فكر فيه بعد ذلك هو أن ينجو بجلده.

ـ ولكن إسطبلاته فُتِّشت!

ـ لديَّ مثل مزيف الخيول العجوز هذا، كثير من الحيل.

ـ ولكن ألا نخاف على الحصان وقد تركته عنده، وأن من صالحه أن يؤذيه؟

ـ يا زميلي العزيز، إنه سيحرسه ويحافظ عليه مثل حبة عينه. يعلم أن كل أمل له في الرحمة، هو تسليم الحصان سليمًا.

ـ لم أجد في مسلك الكولونيل «روس» ما يدل على أنه رجل من الممكن أن يبدي الرحمة بأي حال من الأحوال.

ـ ليس هذا من شأن الكولونيل «روس»، فأنا أتبع طرقي الخاصة وأقول الكثير أو القليل حسبما أرى. هذه ميزة ألا يكون الإنسان تحت إدارة الحكومة. ولست أدري، يا «واطسون»، ما إذا كنت قد لاحظت هذا. ولكن أخلاق الكولونيل كانت كلها شهامة أمامي. وأريد الآن أن أحصل على شيء من التسلية على حسابه. لا تقل له شيئًا عن الحصان.

ـ بالطبع، لن أقول شيئًا بغير إذنك.

ـ وبالطبع هذه قضية صغرى بالنسبة لقضية قتل «جون ستريكر».

ـ وهل ستكرس نفسك لتلك القضية؟

ـ بالعكس، سنعود كلانا إلى لندن بقطار الليل.

صعقتني كلمات صديقي. فلم نمكث سوى بضع ساعات في ديفونشير، ثم يترك تحقيقًا بدأه بذكاء! هذا ما لم أستطِع فهمه. لم أتمكن من الحصول منه على كلمة أخرى حتى رجعنا إلى بيت المدرب. وكان الكولونيل والمفتش ينتظراننا في البهو.

قال «هولمز»:

ـ سأعود أنا وصديقي بقطار الليل السريع. حصلنا على قليل من أنفاس هواء منطقتكم دارتمور، المنعش.

فتح المفتش عينيه، والتوت شفتا الكولونيل في امتعاض.

فقال:

ـ إذن، فقد يئست من القبض على قاتل «ستريكر» المسكين.

هز «هولمز» كتفيه، وقال:

ـ هناك صعوبات كبيرة في طريق ذلك. لديَّ أمل كبير في أن يجري حصانك يوم الثلاثاء. فأرجو أن تستعد بمن يركبه. هل لي أن أطلب صورة لـ«مستر جون ستريكر»؟

أخرج المفتش صورة من جيبه وقدمها إليه.

ـ إنك تتوقع كل طلباتي، يا عزيزي «جريجوري». وهل لي أن أطلب منك أن تنتظر لحظة ريثما أسأل الخادمة سؤالًا يجب أن أوجهه إليها؟

فلما ترك صديقي الحجرة، قال الكولونيل في صراحة:

ـ يجب أن أقول إن أملي خاب في استشارتنا هذا اللندني. أرى أننا لم نتقدم خطوة عما كنا قبل مجيئه.

قلت:

ـ على الأقل، حصلت على تأكيده لك بأن حصانك سيجري.

قال الكولونيل وهو يهز كتفيه:

ـ نعم، حصلت على تأكيد منه، ولكني أفضل أن آخذ الحصان.

كنت على وشك الإجابة دفاعًا عن صديقي، فإذا به يدخل الحجرة مرة أخرى.

قال:

ـ والآن، أيها السادة، إنني على استعداد تام للتوجه إلى تافيستوك.

وحينما ركبنا العربة، أمسك أحد سائسي الإسطبل بابها ليبقى مفتوحًا لنا. ولكن فكرة فجائية طرأت على بال «هولمز»، لأنه مال إلى الأمام ولمس كمَّ السائس، وقال:

ـ لديكم بعض الأغنام في المتنزه، من يُعنى بها؟

ـ أنا، يا سيدي.

ـ هل لاحظت بها شيئًا غير عادي، حديثًا؟

ـ نعم، يا سيدي، ولكنه قليل الأهمية. ثلاث شياه منها، أصابها العرج، يا سيدي.

كان بوسعي أن أرى «هولمز» مسرورًا جدًّا، إذ ضحك وفرك كلتا يديه معًا.

قال «هولمز» وهو يربت على ذراعي:

- يا لها من ملاحظة طويلة، ملاحظة طويلة جدًّا! أرجو أن ألفت نظرك يا «جريجوري» إلى هذا الوباء بين الأغنام. سِر، أيها الحوذي!

ما زالت ملامح الكولونيل «روس» تنم عن الفكرة الضعيفة التي كوَّنها عن مقدرة زميلي، ولكني شاهدت في وجه المفتش ما يدل على أنه أثير إثارة حادة.

سأل المفتش يقول:

- أتعتبر هذا الوباء بين الأغنام، ذا أهمية؟

- بالغ الأهمية.

- هل هناك نقطة أخرى تريد أن تلفت انتباهي إليها؟

- إلى حادثة الكلب الغريبة، أثناء الليل.

- لم يفعل الكلب شيئًا أثناء الليل.

فقال «شرلوك هولمز»:

- وهذه هي الحادثة الغريبة.

بعد ذلك بأربعة أيام، كنت مع «هولمز» مرة أخرى في القطار المتجه إلى ونتشستر لمشاهدة السباق على كأس «وسيكس». قابلَنا الكولونيل «روس» خارج المحطة تبعًا لموعد. فركبنا عربته إلى حلبة السباق خارج المدينة. وكانت الجدية تبدو في وجهه، وحالته باردة إلى أقصى حد.

فقال الكولونيل:

- لم أرَ حصاني.

فسأله «هولمز» بقوله:

- هل تعرفه عندما تراه؟

فغضب الكولونيل غضبًا شديدًا، وقال:

ـ لي مدة عشرين سنة على سهول سباق الخيل، ولم يسألني أي شخص مثل هذا السؤال من قبل. بوسع أي طفل أن يعرف «سيلفر بليز» من جبهته البيضاء ورجليه الأماميتين الرقطاوين.

ـ كيف حال المراهنة؟

ـ كان هذا هو الجزء الغريب فيها، إذ كان بوسعك الحصول على خمسة عشر إلى واحد بالأمس، ولكن السعر تقلص وتقلص حتى إنك قلما تحصل على ثلاثة إلى واحد، الآن.

فقال «هولمز»:

ـ إممم! شخص ما يعرف شيئًا ما، هذا واضح!

عندما اقتربت العربة من إحدى الحظائر القريبة من الموقف الأكبر، ألقيت نظرة على القائمة لأرى أسماء الخيول المتسابقة، كانت هكذا:

كأس «وسيكس»: خمسون جنيهًا لكل نصف قدم مع إضافة ألف جنيه للخيول التي أعمارها أربع وخمس سنوات. الثاني ثلاثمائة جنيه، والثالث مائتا جنيه، طريق «ميل واحد وخمسة فورلونج».

1- «النجرو» لـ«المستر هيث نيوتون»: قبعة حمراء وجاكتة بنية بلون القرفة.

2- «بيوجيليست» للكولونيل «واردلو»: قبعة وردية وجاكتة زرقاء داكنة.

3- «ديزبروه» للورد «باكووتر»: قبعة صفراء وأكمام صفراء أيضًا.

4- «سيلفر بليز» للكولونيل «روس»: قبعة سوداء وجاكتة حمراء.

5- «أيريس» لدوق «بالمورال»: صفراء بخطوط سوداء.

6- «راسير» للورد «سنجلفورد»: قبعة أرجوانية وأكمام سوداء.

فقال الكولونيل «روس»:

ـ ألغينا كل شيء، ووضعنا كل آمالنا في كلمتك. لماذا، ما هذا؟ «سيلفر بليز» مرشح للفوز؟

صاح المعلن يقول:

ـ خمسة إلى أربعة ضد «سيلفر بليز»! خمسة إلى أربعة ضد «سيلفر بليز»! خمسة إلى خمسة عشر ضد «ديزبروه»! خمسة إلى أربعة على الحلبة!

صحت:

ـ ها هي الأعداد علقت. كلها ستة هناك.

فصاح الكولونيل في هياج بالغ:

ـ كل الستة هناك، إذن، فحصاني سيجري. ولكني لا أبصره. أعلامي لم تمر.

ـ لم تمر سوى خمسة. لا بد أن هذا هو.

وبينما أنا أتكلم، اندفع حصان قوي من حظيرة الوزن، ومر أمامنا وعلى ظهره الأسود والأحمر الخاصان بالكولونيل «روس».

فصاح صاحب الجواد يقول:

ـ ليس هذا حصاني، ليس لهذا الحيوان شعر أبيض في جسمه. ما هذا الذي فعلته، يا «مستر هولمز»؟

قال صديقي في هدوء:

ـ حسنًا، إذن فلننتظر لنرى ماذا سيفعل.

ثم أخذ يراقب السباق من خلال منظاري المقرِّب لبضع دقائق، وصاح فجأة يقول:

ـ بداية رائعة! ها هي الخيول آتية حول المنحنى!

أمكننا، من عربتنا، أن نشاهد السباق بوضوح عندما وصلت الخيول إلى الطريق المستقيم. كانت الخيول الستة متقاربة تمامًا حتى كان من الممكن لبساط واحد أن يغطيها جميعًا. غير أنه في

منتصف الطريق، ظهر الأصفر الخاص بإسطبل كابلتون. وقبل أن تصل الخيول إلينا، تغلب «سيلفر بليز» على «ديزبروه»، واندفع حصان الكولونيل «روس» ومر من أمام القائم بستة أطوال، قبل أن يصل منافسه «أيريس» لصاحبه «بالمورال»، الذي صار الثالث.

فقال الكولونيل «روس» وهو يضع يده فوق عينيه:

ـ على أي حال، هذا سباقي. أعترف بأنني لا أعرف أي شيء عن هذا. ألا تظن، يا «مستر هولمز»، أنك احتجزت سِر هذا اللغز عني مدة طويلة جدًّا؟

ـ بالطبع، يا كولونيل. ستعرف كل شيء. هلم بنا، جميعًا، نذهب ونلقي نظرة على الخيول معًا. ها هو.

استطرد صديقي كلامه ونحن نسير إلى حظيرة الوزن التي لا يسمح بدخولها إلا لأصحاب الخيول وأصدقائهم، فقال للكولونيل «روس»:

ـ ما عليك إلا أن تغسل وجهه ورجله بالكحول النقي، لترى أنه «سيلفر بليز» القديم كما كان دائمًا.

ـ إنك لتدهشني بحق يا «مستر هولمز»!

ـ وجدته عند شخص ممن يغيرون معالم الخيول لسرقتها، وأخذت حريتي معه في الوقت نفسه الذي كان سيخفيه فيه.

ـ لقد فعلت العجائب، يا سيدي العزيز. يبدو جوادي في صحة جيدة وحال طيبة. لم يكن أحسن من هذا طوال حياته. إنني مدين لك بألف اعتذار عن ارتيابي في مقدرتك وكفاءتك. لقد أديت لي خدمة عظمى بأن أعدت لي حصاني، وستؤدي لي خدمة أعظم إذا وضعت يدك على قاتل «جون ستريكر».

فقال «هولمز» في هدوء:

ـ لقد فعلت ذلك.

استدرت نحوه، أنا والكولونيل «روس» مدهوشين، وقلنا في نفَس واحد:

ـ هل قبضت عليه؟ إذن فأين هو؟

ـ إنه هنا.

ـ هنا! أين؟

ـ في صحبتي، هذه اللحظة.

احمر وجه الكولونيل في غضب، وقال:

ـ أعترف تمامًا بأنني مدين لك كثيرًا، يا «مستر هولمز»، ولكني أعتبر ما قلته الآن، إما مزاحًا سيئًا، أو إهانة.

ضحك «شرلوك هولمز»، وقال:

ـ أؤكد لك يا كولونيل، أنني لم أذكر أن لك يدًا في هذه الجريمة. فالقاتل الحقيقي يقف خلفك مباشرة!

خطا الكولونيل إلى الخلف، ووضع يده على العنق اللامع لذلك الجواد الأصيل.

فصحت أنا والكولونيل:

ـ أهو الحصان؟

ـ نعم، هو الحصان. ومما يقلل من وزر جريمته أنه فعل ذلك دفاعًا عن نفسه. وأن «جون ستريكر» ذاك، كان رجلًا غير جدير على الإطلاق بثقتك. ولكن، ها هو الجرس يدق! سأرجئ التفسير الطويل لذلك الحادث، كي أقف لأتفرج قليلًا على الشوط التالي، سأرجئ ذلك إلى وقت أكثر ملاءمة.

حجزنا لأنفسنا ركنًا في عربة «بولمان»، في ذلك المساء، ونحن عائدون إلى لندن. وأعتقد أن الرحلة كانت قصيرة للكولونيل «روس»، ولي، ونحن نصغي لرواية رفيقنا للأحداث التي وقعت في إسطبلات التدريب بدارتمور ليلة الاثنين تلك، والوسائل التي حل بها ذلك اللغز.

قال «هولمز»:

ـ أعترف بأن كل نظرية كونتها من روايات الصحف للحادث كانت خطأ تمامًا. ومع ذلك فهناك دلائل على أنها محملة بتفاصيل أخرى أخفت أهميتها الحقيقية. ذهبت إلى ديفونشير بفكرة أن «فيتزروي سيمبسون» هو المجرم الحقيقي، ولو أنني رأيت أن الأدلة ضده ليست كافية ولا كاملة بحال ما. لم تطرأ على بالي أهمية لحم الضأن المتبل، إلا وأنا في العربة حينما وصلنا إلى بيت المدرب. وأظنك تتذكر أنني كنت شارد الذهن، وبقيت جالسًا في العربة بعد أن نزلتم جميعًا. بقيت أتخيل في ذهني كيف أغفلت مثل هذا الدليل الواضح.

قال الكولونيل:

ـ أعترف بأنني لا أرى، حتى الآن، كيف يساعدنا هذا الدليل.

ـ كان هذا الدليل أول حلقة في سلسلة براهيني. مسحوق الأفيون ليس عديم الطعم، وطعمه غير مقبول على الإطلاق، ولونه ظاهر. ولو مزج مع أي طبق عادي لعرفه الآكل على الفور، ولربما امتنع عن تناول شيء من ذلك الطبق. والتوابل هي الوسيلة الوحيدة التي تخفي طعمه ولونه. وما كان لذلك الغريب «فيتزروي سيمبسون» أي طريقة يحث بها أسرة المدرب على أن تتبل اللحم بالتوابل في تلك الليلة. ومن المستحيل أن نعتقد أنه بمحض المصادفة جاء «سيمبسون» بالأفيون المسحوق في تلك الليلة التي تقدم فيها الأسرة هذا الطبق بالذات الذي يخفي طعم الأفيون ولونه. وعلى هذا يحذف «سيمبسون» من هذه القضية ونركز تفكيرنا على «ستريكر» وزوجته، فهما الشخصان الوحيدان اللذان يمكن أن يكونا قد اختارا اللحم المتبل للعشاء في تلك الليلة. أضيف الأفيون إلى الطعام بعد أن غرف الطبق ووضع جانبًا لعشاء السائس المكلف بحراسة الإسطبل في تلك الليلة، إذ تناول الآخران الطعام نفسه دون أي أثر سيئ إذن، فمن منهما يمكنه الوصول إلى ذلك الطبق دون أن تراه الخادمة؟

قبل تقرير الإجابة عن هذا السؤال، رأيت أهمية صمت الكلب. فإن واقعة حقيقية تجر إلى أخرى بلا شك. فواقعة «سيمبسون» أعلمتني بأن هناك كلبًا في الإسطبل باستمرار. ورغم أن شخصًا دخل الإسطبل وأخرج منه حصانًا، فإن الكلب لم ينبح نباحًا يكفي لأن يوقظ السائسين النائمين في حجرة التبن فوق الإسطبل. ومن الجلي أن زائر نصف الليل كان شخصًا يعرفه الكلب معرفة تامة.

اقتنعت، أو قل شبه اقتنعت بأن «ستريكر» ذهب إلى الإسطبل في جنح الليل وأخرج «سيلفر بليز». ولأي غرض أخرجه؟ من الجلي أنه أخرجه لغرض غير شريف. وإلا، فلماذا يخدر السائس الذي تحت إمرته والذي يحرس الإسطبل وقتذاك؟ ومع ذلك، فلم أعرف السبب ـ كانت هناك حالات سابقة تأكد فيها المدربون من حصولهم على مبالغ ضخمة بإيذاء خيولهم عن طريق بعض الوسطاء، وبذا يمنعونهم، بطريق الغش، من الفوز. وأحيانًا يكون ذلك بأن يشد الجوكي الحصان، وأحيانًا أخرى بوسيلة أضمن وأكثر دهاء. فماذا كانت الوسيلة هنا؟ وضعت أملي في أن أتوصل بواسطة محتويات جيوبه إلى معرفة هذه الوسيلة.

وفعلًا عرفتها من محتويات جيوبه. ولا يمكنك أن تنسى السكين الوحيدة التي كانت في يد القتيل، والتي لا يمكن لرجل سليم العقل أن يستخدمها كسلاح يدافع به عن نفسه. إنها، كما أخبرنا الدكتور «واطسون»، نوع من المشارط المستعملة في أدق العمليات الجراحية التي عرفها الطب. وكان «ستريكر» يريد استعمالها في عملية دقيقة في تلك الليلة. ويجب أن تعرف، يا كولونيل، عن طريق ممارستك لشؤون السباق أنه من الممكن تنفيذ شق بسيط في أحد أربطة عضلات كفل الحصان، وجعله تحت الجلد بحيث لا يترك أي أثر. فالحصان الذي تجرى له مثل هذه العملية، يصيبه عرج بسيط يمكن أن يعزى سببه إلى عنف التدريب أو إلى الروماتيزم، ولكن لا يعزى إطلاقًا إلى أي عمل إجرامي.

فصاح الكولونيل، يقول:

ـ يا له من نذل! يا له من وضيع دنيء!

ـ لدينا هنا السبب في رغبة «ستريكر» لأن يأخذ الحصان إلى السهل المعشوشب. ولا شك في أن مثل ذلك الحصان المرهف، كان سيوقظ أعمق الناس نومًا، إذا ما وخز بالسكين. لذا كان من الضروري إجراء العملية في الخلاء.

فصاح الكولونيل:

ـ لقد كنت أعمى! وبالطبع كان هذا هو سبب حاجته إلى الشمعة، وإلى إيقاد عود الثقاب.

ـ هذا أكيد، ولكن عند فحص متعلقاته، ساعدني الحظ إذ عثرت، ليس فقط على وسيلة الجريمة، بل وأيضًا على الدافع إلى ارتكابها. ولما كان «ستريكر» من المتمتعين بالملذات الدنيوية، وإنك لتعرف، يا كولونيل، أنه ما من شخص يحمل فواتير حساب شخص آخر، إن لدينا جميعًا ما يكفي لأن ندفع ثمنه لأنفسنا بدلًا من أن ندفع ثمن مشتريات غيرنا. استنتجت على الفور أن «ستريكر» كان يحيا حياة مزدوجة، أي أنه لم يكتفِ بزوجته فحسب، بل ينفق على مسكن ثانٍ. وتدل طبيعة الفاتورة على أن هناك سيدة في القضية، وسيدة لها أمزجة تتكلف مبالغ كبيرة. وإذ كنت سخيًّا، يا كولونيل، مع مستخدميك، فإنك رغم هذا السخاء، لا تتوقع أن يستطيع أحدهم شراء فستان بعشرين جنيهًا لزوجته. وقد سألت «مسز ستريكر» عن ذلك الفستان دون أن تفطن إلى غرضي، فأنكرت امتلاكها له. وعندئذ اقتنعت، أنا نفسي، بأنه لم يصلها إطلاقًا، فأخذت مذكرة بعنوان بائع الملابس، وشعرت بأن سؤالي هناك واطلاعهم على صورة «ستريكر»، سيؤدي إلى أن تخميني كان صحيحًا، بخصوص «ديربيشير» الأسطوري، الذي لم يكن سوى «ستريكر» اتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا للتمويه أمام زوجته.

منذ ذلك الوقت، صار كل شيء واضحًا كالشمس. قاد «ستريكر» الحصان إلى التجويف الغائر كيلا يرى النور منه. وعندما فر «سيمبسون» وقع منه رباط رقبته دون أن يشعر به، فأخذه «ستريكر» لفكرة ما، ربما ليستعمله في تقييد رِجل الحصان. وما إن صار داخل التجويف حتى وقف خلف الحصان وأوقد نورًا، فذعر الحصان لذلك النور الفجائي وجفل بطبيعة الحيوان الغريبة للإحساس بقدوم أذى ما، فرفس برِجله أو برِجليه كلتيهما، فأصابت الحدوة المصنوعة من الصلب «ستريكر» في رأسه تمامًا فهشمته. وكان رغم المطر قد خلع معطفه من قبل وعلقه فوق الشجيرة الشائكة كدريئة تمنع رؤيته وهو يقوم بعمليته الدقيقة. وهكذا سقط «ستريكر» على الأرض، وأثناء سقوطه كانت السكين في يمناه فجرح فخذه بها.

فصاح الكولونيل يقول:

ـ رائع! رائع! كأنك كنت هناك، يا «مستر هولمز».

ـ وإني لأعترف بأن تصوري الأخير كان تصورًا طويلًا جدًّا. أدهشني أن «ستريكر»، ذلك الرجل الدقيق الحذر، يفكر في القيام بمثل هذه العملية الدقيقة دون سابق تجارب، ولو قليلة. فعلى أي

شيء أجرى تجاربه؟ وقعت عيناي على الأغنام، فسألت ذلك السائس، وأدهشني أن تخميني كان صحيحًا.

عندما رجعت إلى لندن، ذهبت إلى بائع الملابس الذي تعَرف من فوره على صورة «ستريكر» وقال إنه زبون طيب، وإن اسمه «ديربيشير»، وإن زوجته تهوى الفساتين الثمينة بدرجة غريبة. لم أشك إطلاقًا في أن تلك المرأة أثقلت كاهله تمامًا بالديون، وبذا ساقته إلى الخطة وخيمة العاقبة.

فصاح الكولونيل يقول:

ـ لقد فسرت كل شيء يا «مستر هولمز»، فيما عدا شيئًا واحدًا: أين كان الحصان؟

ـ جفل «سيلفر بليز» وهرب، فاعتنى به أحد جيرانك. وأظننا يجب أن نعفو عن ذلك. هذا تقاطع كلافام، إن لم أكن مخطئًا، وسنكون في فيكتوريا في أقل من عشر دقائق. وإذا طاب لك أن تدخن سيجارًا في منزلنا، يا كولونيل «روس»، فسأكون سعيدًا لأن أروي لك بعض التفاصيل الأخرى التي قد تهمك وتمتعك.

الوجه الأصفر

أنشر هذه القصص القصيرة المبنية على القضايا العديدة التي استخدمت فيها مواهب زميلي الفريدة، التي جعلتني أصغي إليها وأكون الممثل في بعض الدراما الغريبة. ومن الطبيعي عند نشري لها أن أذكر القضايا التي نجح فيها دون التي لم يتوصل فيها إلى حل. وهذه الأخيرة ليست كثيرة، من حسن حظ سُمعته، فقد كان حاد الذكاء، جم النشاط، ذا كفاءة عجيبة. ولكنه إذا أخفق في قضية، فما من أحد آخر كان ينجح فيها. وعندئذ تحفظ القضية «الفاعل مجهول». وإذا تصادف أن أخطأ في قضية، فإنه يكون هو الذي اكتشف حقيقة وقائعها. ولديَّ مذكرات عن نحو ست قضايا من النوع الذي فيه موضوع الخطأ الثاني. وهأنذا أوشك على سرد قصتين تمثلان أقوى مظاهر المتعة.

قلما يمارس «شرلوك هولمز» التمرينات الرياضية من أجل تلك التمرينات نفسها. وقليل من الناس قادرون على القيام بمجهود عضلي أكثر منه. وكان، بلا شك، واحدًا من أروع من رأيتهم من الملاكمين في وزنه. ولكنه كان ينظر إلى الرياضة البدنية من دون هدفٍ على أنها جهد ضائع. وقلما يجهد نفسه إلا إذا كان هناك هدف مهني ينبغي عمله. ثم إنه لا يتعب من العمل ولا يكل، فيظل يشغل نفسه بالعمل في تلك الظروف. ولا يتناول من الطعام إلا القليل البسيط، فيكتفي بالطعام الذي يمسك الأود فحسب. كما أن عاداته بسيطة جدًّا لدرجة القسوة على النفس. ولا يتصف بأي رذيلة، باستثناء بعض الكوكايين في النادر من المناسبات. ولا يلجأ إليه إلا لتغيير وتيرة الحياة، فلا يجب أن تسير حياته كلها على وتيرة واحدة، عندما تكون القضايا قليلة والصحف غير ممتعة.

وذات يوم في أوائل الربيع، أحس بالاسترخاء، فأراد الخروج للتنزه معي في بعض الحدائق العامة، وقت أن بدأت أوائل الأوراق الخضراء تظهر على أغصان أشجار الدردار، وأخذت البراعم الطرفية تتفتح في نهايات فروع أشجار الكستناء، فتخرج منها مجموعات خماسية الوريقات. وهكذا

ظللنا نتمشى معًا لمدة ساعتين ونحن صامتان في معظم الوقت كما يليق بصديقين حميمين يعرف كل منهما الآخر حق المعرفة. ولما قاربت الساعة على الخامسة مساء، فكرنا في أن نعود أدراجنا إلى شارع بيكر.

حينما فتح لنا الخادم الباب قال:

ـ عفوًا يا سيدي، كان هنا رجل يسأل عنك.

نظر «هولمز» إليَّ نظرة لوم، وقال:

ـ لقد سرنا مدة طويلة بعد ظهر هذا اليوم!

ونظر إلى الخادم، وقال له:

ـ إذن، فقد انصرف ذلك الرجل؟

ـ نعم، يا سيدي.

ـ ألم تطلب منه أن يدخل؟

ـ بلى، يا سيدي، ودخل.

ـ كم من الوقت انتظر هنا؟

ـ نصف ساعة، يا سيدي. كان بالغ القلق، يا سيدي، ظل يذرع أرض الحجرة جيئة وذهابًا، وهو ينفخ ويضرب الأرض بقدمه. وكان بوسعي أن أسمعه. وأخيرًا، خرج إلى الممر وصاح يقول: «ألن يأتي هذا الرجل؟». هذه هي كلماته نفسها بالنص الواحد، يا سيدي. فقلت له: «انتظر قليلًا»، فقال: «سأنتظر في الهواء الطلق، إذ أشعر بأنني سأختنق، وسأعود بعد مدة غير طويلة». وبهذا خرج، ولم يفلح معه كل ما قلته لأحثه على البقاء.

فقال «هولمز» ونحن ندخل الحجرة:

ـ حسنًا، حسنًا. لقد بذلت جهدك.

هذا مُضايِق جدًّا يا «واطسون»، أنا في أشد الحاجة إلى قضية. وهذه، كما يبدو من قلق ذلك الرجل، ستكون ذات أهمية. مرحى! ليس هذا غليونك الذي فوق النضد! لا بد أنه نسي غليونه هنا. إنه من الخشب الثمين الجميل، ذو مبسم مما يسميه بائعو التبغ «الكهرمان». لست أدري كم مبسمًا من الكهرمان الحقيقي في لندن. يظن بعض الناس أن ذبابة بداخل الكهرمان دليل على أنه كهرمان حقيقي طبيعي. ومن وسائل الصناعة وضعُ ذبابة زائفة داخل الكهرمان الزائف. لا بد أنه كان مبلبل الفكر منزعج الخاطر، حتى إنه ترك غليونه هنا دون وعي منه. ومن الجلي أنه عزيز عليه تمامًا.

فقلت له:

ـ كيف عرفت أنه عزيز عليه تمامًا؟

ـ يمكنني تقدير الثمن الأصلي لهذا الغليون بسبعة شلنات وستة بنسات. ثم إنه أُصلِح مرتين، مرة في الجذع الخشبي، ومرة أخرى في المبسم الكهرماني، وكل إصلاح منهما، كما ترى، قد عُمل بأشرطة الفضة، ولا بد أنهما كلفاه أكثر من الثمن الأصلي للغليون. إنه عزيز عليه، إذ إنه فضل أن يرقعه بدلًا من أن يشتري غليونًا جديدًا بالنقود نفسها.

قلت:

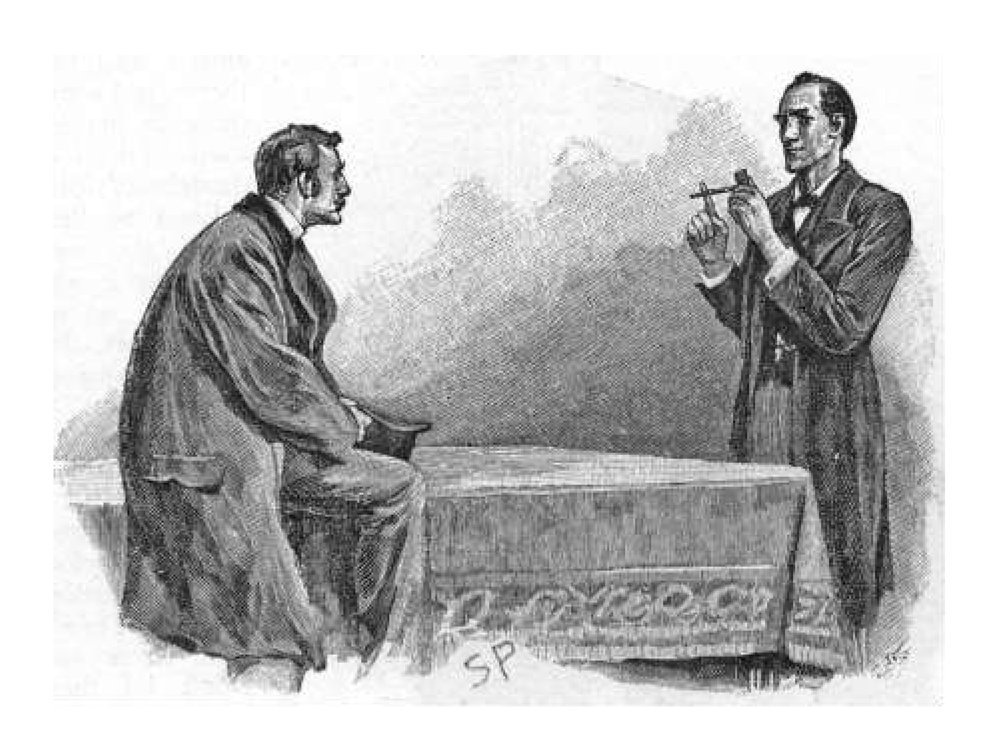
ـ هل من شيء آخر؟

لأن «هولمز» كان يقلب الغليون بين يديه وينظر إليه بطريقته التفكيرية الغريبة.

رفع «هولمز» الغليون إلى أعلى، وطرق عليه بإصبعه الطويلة الرفيعة، كما يفعل الأستاذ عندما يلقي محاضرة عن إحدى عظام الجسم.

قال «هولمز»:

ـ للغلايين أحيانًا متعة خارقة. ربما لا يوجد شيء أكثر فردية من الساعات وأربطة الأحذية. والدلائل هنا ليست ملحوظة جدًّا ولا ذات أهمية كبرى. ومن الجلي أن صاحب هذا الغليون رجل قوي العضلات وأشول، وذو مجموعة أسنان قوية، ومهمل في عاداته، وليس بحاجة إلى توخي الاقتصاد.



رفع «هولمز » الغليون إلى أعلى

قلت:

ـ أتعتبر الرجل غنيًّا إذا كان يدخن في غليون قيمته سبعة شلنات؟

أجاب «هولمز» وهو يطرق على مستودع الغليون كي يسقط بعض التبغ في كفه:

ـ هذا التبغ مخلوط «جروزفنر»، الذي ثمن الأوقية منه ثمانية بنسات، في حين أن بوسعه أن يحصل على تبغ ممتاز بنصف الثمن. إذن، فهو ليس في حاجة إلى توخي الاقتصاد.

ـ والنقاط الأخرى؟

ـ من عادته إشعال غليونه من المصابيح ولهب الغاز. وبوسعك أن ترى غليونه محترقًا من جانب واحد. وبالطبع، لا يمكن لعود ثقاب أن يفعل هذا. لماذا يمسك الرجل عود الثقاب إلى جانب غليونه؟ ولكنك لن تستطيع إشعاله من مصباح دون إحراق جانب المستودع. ثم إن الحرق كله على الجانب الأيمن للغليون، مما يقطع بأنه أشول. ارفع غليونك أنت نفسك فوق المصباح، تلاحظ أنك تضع الجانب الأيسر فوق المصباح، لأنك تستعمل يدك اليمنى. وقد تضعه من الجانب الآخر مرة في

كل عشر مرات. ودائمًا ما كان الغليون على ذلك النحو، ثم إنه عض الكهرمان، ولا يمكن أن يفعل هذا إلا رجل قوي العضلات والأسنان. ولكني، إذا لم أكن مخطئًا، أسمع وقع قدميه على السلم، وعلى هذا سيكون لدينا شيء أكثر متعة من دراسة الغليون.

بعد ذلك بلحظة فُتح بابنا ودخل الحجرة رجل صغير السن طويل القامة يرتدي ثيابًا جيدة بطريقة هادئة. فهو يلبس حلة رمادية اللون دكناء، ويحمل في يده قبعة من اللباد الناعم بنية اللون. وإني لأقدر عمره بنحو ثلاثين عامًا، ولو أنه كان، في الحقيقة، أكبر من ذلك ببضع سنوات.

قال وهو مرتبك بعض الشيء:

ـ عفوًا، يا سيدي. كان يجب أن أطرق الباب. نعم، بالطبع كان يجب أن أطرق الباب. الحقيقة أنني مرتبك قليلًا، ولا بد أن تعزي كل هذا إلى الارتباك.

قال هذا، ومر بيده فوق جبينه كرجل نصف مصاب بالدوار، ثم سقط فوق الكرسي، أكثر مما جلس.

قال «هولمز» بطريقته اللطيفة الوديعة:

ـ يمكنني أن أرى أنك لم تنَم مدة ليلة أو ليلتين، فإن عدم النوم يتعب أعصاب المرء أكثر من العمل وأكثر من السرور. فهل لي أن أسأل كيف يمكنني أن أساعدك؟

ـ أريد نصحك، يا سيدي! لا أعرف ماذا أعمل، ويبدو أن حياتي كلها صارت حطامًا.

ـ أتريد أن تستخدمني كبوليس سري استشاري؟

ـ ليس هذا فحسب، بل وأريد رأيك كرجل قانوني، وكرجل من العالم. أريد أن أعرف ماذا أفعل بعد ذلك. أطلب من الله أن يكون بوسعك إخباري.

تكلم الرجل في نوبات قليلة حادة متهدجة. وكان يبدو لي أن الكلام يسبب له ألمًا شديدًا، وأن رغبته كانت تسيطر على ميوله.

قال:

ـ إنها مسألة بالغة الدقة. فلا يود إنسان أن يتكلم في شؤونه المنزلية الخاصة إلى الأغراب. كم هو فظيع أن يناقش المرء سلوك زوجته مع رجلين لم يسبق له أن رآهما. ومن المخجل، بل من الشاق أن يضطر الإنسان إلى ذلك. ولكنْ طفح الكيل، وبلغ السيل الزُّبى، ويجب أن أحصل على النصيحة.

فقال «هولمز»:

ـ يا عزيزي «المستر جرانت مونرو».

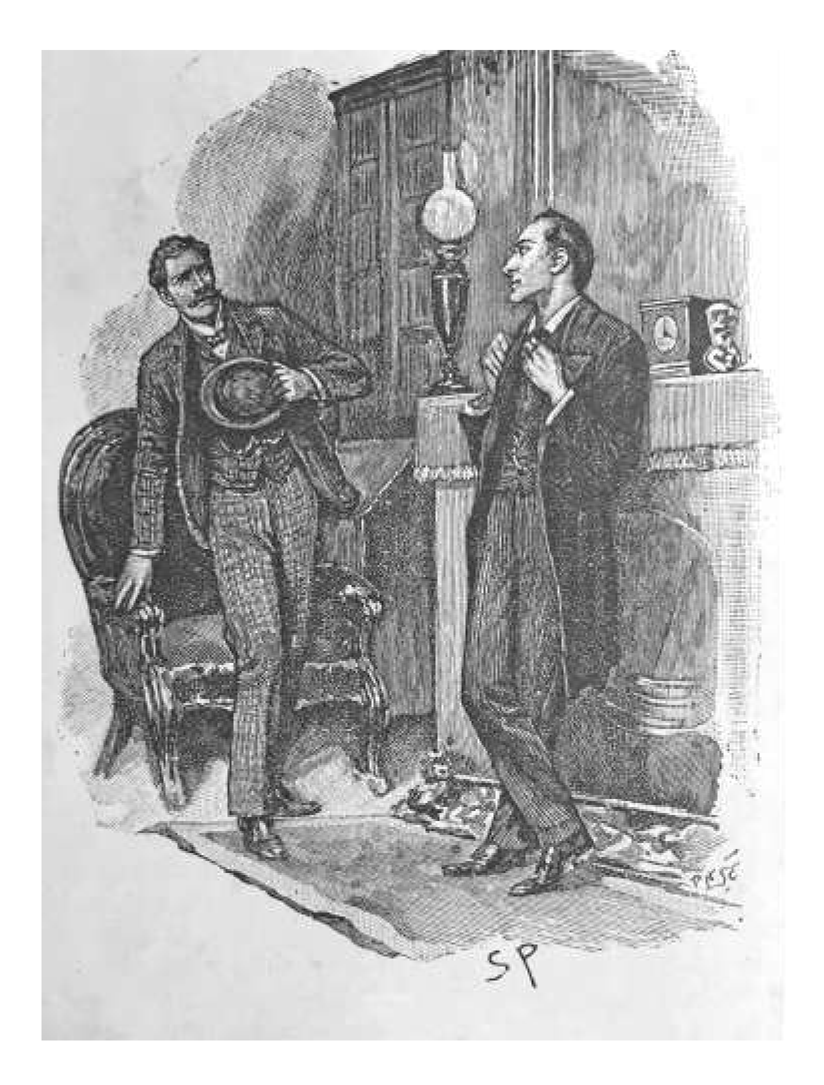
فقفز زائرنا واقفًا من على كرسيه وصاح يقول:

ـ ماذا! أتعرف اسمي؟

فقال «هولمز» وهو يبتسم:

ـ إذا أردت أن يظل اسمك مجهولًا، فلا تكتبه على بطانة قبعتك، أو أدِر قمتها نحو الشخص الذي تتحدث إليه. كنت على وشك أن أقول إنني وصديقي هذا استمعنا إلى كثير من الأسرار في هذه الحجرة، وساعدَنا الحظ في تهدئة وطمأنة كثير من النفوس المتعبة. وآمل في أن تذكر لنا الحقائق في قضيتك دون تأخير، إذ الوقت ثمين وعظيم الأهمية، وعسى أن نوفق في أن نفعل معك مثلما فعلنا مع غيرك.

مر زائرنا بيده، مرة ثانية، فوق جبينه كما لو كان قد وجد الأمر شاقًّا على نفسه. وكنت ألاحظ من كل حركة، ومن كل تعبير، أنه رجل محافظ، يحب كتمان أسراره في دخيلة نفسه بدافع الكبرياء بطبيعته، يود أكثرَ لو يخفي جراحه بدلًا من التعبير عنها. وفجأة،



فقفز زائرنا واقفًا من على كرسيه

وبحركة عنيفة من يده المنقبضة، كما لو كان سيرمي بأسراره في مهب الريح، قال:

ـ هاك الحقائق يا «مستر هولمز». أنا متزوج منذ ثلاث سنوات، وخلال هذه المدة كنت أحب زوجتي وهي تحبني، وما زال كل منا يحب الآخر حبًّا جمًّا، وعشنا سعيدين كأي اثنين ارتبطا برباط الزواج السعيد. لم نختلف إطلاقًا على أي شيء، ولا مرة واحدة، في الفكر أو الكلام أو الفعل، حتى يوم الاثنين الماضي إذ نشأ بيننا حاجز فجأة، فوجدت أن هناك شيئًا في حياتها وفي أفكارها، لا أعرف عنه شيئًا، كأنها امرأة تمر بجانبي في الطريق. صار كل منا غريبًا عن الآخر، وأريد أن أعرف السبب.

هناك شيء واحد أريد أن أخبرك به قبل أن أدخل في سرد قصتي، يا «مستر هولمز». تحبني زوجتي «إيفي»، ما في ذلك شك على الإطلاق، تحبني من كل قلبها ونفسها، وما كانت تحبني أكثر من الآن. أعرف هذا وأحس به ولا أريد أن أجادل فيه، فإن الرجل يعرف متى تحبه زوجته. لكن هناك سرًّا بيننا، ولن نكون مثلما كنا إلا بعد معرفة ذلك السر.

فقال «هولمز» في شيء من القلق:

ـ أرجو أن تذكر لي الحقائق، يا «مستر مونرو».

ـ سأخبرك عما أعرفه عن تاريخ حياة «إيفي». كانت أرملة عندما التقيت بها لأول مرة، رغم كونها صغيرة السن، إذ كانت في الخامسة والعشرين فقط. كان اسمها «مسز هبرون». سافرت إلى أمريكا وهي صغيرة، وعاشت في بلدة أتلانتا حيث تزوجت هذا «الهبرون» الذي كان محاميًا كثير العمل. ورزقا «طفلة واحدة»، غير أن الحمى الصفراء انتشرت بطريقة فظيعة، ومات بها كلٌّ من الزوج والطفلة، وقد رأيت شهادة وفاته. فكرهتْ أمريكا وعادت ثانية لتعيش مع عمتها العذراء في بينر بمقاطعة ميدلسيكس. وأقول إن زوجها ذاك ترك لها ثروة كبيرة، فكان لديها رأس مال يقدر بأربعة آلاف وخمسمائة جنيه، استثمرتها جيدًا بفائدة متوسطها سبعة في المائة. لم يمر عليها في بينر سوى ستة أشهر حتى التقيت بها، فوقع كل منا في حب الآخر، وتزوجنا بعد ذلك ببضعة أسابيع.

ولما كنت أنا نفسي بائعًا جائلًا، وعندي دخلٌ يقدر بسبعمائة أو ثمانمائة جنيه، عشنا في بذخ واستأجرت فيلًا بثمانين جنيهًا في السنة في نوربري، وجعلناها على الطريقة الريفية ولو أنها قريبة من المدينة. وبعدنا بقليل، إلى أعلى الطريق يوجد فندق وبيتان وكوخ على الجانب الآخر من الحقل قبالتنا. ولا توجد في المنطقة بيوت أخرى غير هذه إلا في منتصف المسافة بيننا وبين المحطة. ويقتضي عليَّ عملي أن أذهب إلى المدينة في بعض المواسم. أما في فصل الصيف، فعملي قليل. وعندئذ أكون أنا وزوجتي في بيتنا الريفي من أسعد ما يمكن. أقول لك إنه لم يحدث بيننا أي ظل يُكدر صفو حياتنا حتى جاء ذلك الأمر اللعين.

هناك شيء واحد يجب أن أخبرك به قبل أن أتعمق في موضوعي: عندما تزوجنا، أعطتني زوجتي كل أموالها، ولم أكن راغبًا في هذا، إذ كنت أرى أنه لا يليق أن أنفق من أموالها إذا ما ساءت حال عملي. وعلى أي حال، أرادت هي ذلك وصممت عليه، فكان كما أرادت. ومنذ نحو ستة

أسابيع، جاءتني تقول: «عندما أخذت نقودي، يا «جاك»، قلت لي إنني إذا ما احتجت إلى مبلغ ما، أن أطلبه منك». قلت: «بالطبع، فكلها أموالك». قالت: «إذن، أريد مائة جنيه».

ذُهلتُ لذلك الطلب، لأنني كنت أظن الأمر لن يتعدى ثمن فستان جديد أو نحوه. فقلت: «لأي شيء، يا ترى، تريدين هذا المبلغ؟». قالت بطريقتها الدعابية: «قلت إنك مجرد أمين خزانتي، وأمناء الخزائن لا يسألون أي أسئلة، كما تعلم». قلت: «إذا كنتِ تقصدين هذا، حقيقة، فسأعطيك النقود». «نعم، أقصد هذا حقيقة». «وهلا تخبرينني لأي شيء تريدينها؟». «ربما في وقت ما، وليس الآن يا «جاك»».

وعلى أي حال، كان عليَّ أن أقنع بذلك. ولو أنها كانت المرة الأولى التي حدث فيها وجود أي سر بيننا. فأعطيتها شيكًا، ولم أفكر في ذلك الأمر بعد ذلك قَطُّ. وليس لهذا علاقة بما سيأتي بعد ذلك، ولكني وجدت من الصواب أن أذكر لك هذه الواقعة.

سبق أن أخبرتك بأن هناك كوخًا، على مسافة غير بعيدة من بيتنا، بيننا وبينه حقل. ولكنك إذا أردت الوصول إليه، اضطررت إلى أن تسير في الطريق، ثم تعرج على حارة. ووراء الكوخ دغل من أشجار الصفصاف الاسكتلندي. وكنت، أنا نفسي، مولعًا بالتجول هناك، لأن الأشجار كائنات حسنة الجوار. ظل الكوخ خاليًا من السكان طوال هذه الأشهر الثمانية. ومن المؤسف أن يظل كذلك، إذ يتألف من طابقين، وله مدخل عتيق الطراز، وحوله أشجار الفتنة. وكثيرًا ما وقفت هناك أفكر في أنه مسكن رائع.

وفي يوم الاثنين الماضي، وأنا أتجول في ذلك الطريق، أبصرت عربة خاوية تسير أعلى الحارة، كما رأيت كومة من السجاجيد والأمتعة فوق النجيل بجانب مدخل الكوخ. فكان واضحًا أن الكوخ استؤجر أخيرًا. فسرت إلى جانبه، ثم توقفت، كما قد يفعل المتسكعون، وألقيت نظرة إلى فوق لأرى نوع السكان الذين جاءوا ليقيموا بقربنا. وبينما أنظر إلى فوق، شاهدت وجهًا يراقبني من إحدى النوافذ العليا.

لا أعرف ماذا بذلك الوجه، يا «مستر هولمز»، ولكن يبدو أنه أرسل موجة باردة في ظهري، وكنت على مسافة منه فلم أتبين ملامحه، ولكن كان هناك شيء غير عادي، وغير إنساني في ذلك الوجه. هكذا كان انطباعي، فسرت بسرعة إلى الأمام لألقي نظرة من كثب على ذلك

الشخص الذي كان يراقبني. غير أنني، وأنا أفعل ذلك، اختفى الوجه فجأة، كما لو كان قد اندمج في ظلام الحجرة. توقفت أفكر في ذلك الأمر مدة خمس دقائق. وحاولت تحليل انطباعاتي. لم أعرف ما إذا كان وجه رجل أو وجه امرأة، ولكن لونه هو الذي أثارني أكثر من غيره. كان أصفر بلون جثث الموتى، يصحبه شيء من الصلابة جعله غير طبيعي بصورة ملحوظة. فانزعجت لدرجة أنني اعتزمت معرفة شيء عن قاطني ذلك الكوخ. فتقدمت وطرقت الباب، ففتحته على الفور سيدة فارعة الطول عملاقة، ذات وجه عابس مقيت.

فسألتني في لهجة أهل الشمال تقول: «ماذا تريد؟». قلت، وأنا أشير إلى بيتي: «أنا جاركم هناك، وأرى أنكم قد انتقلتم لتوكم إلى هنا. ففكرت أن أمد لكم يد المساعدة في أي...». قالت: «نعم، سنطلب منك بمجرد أن نحتاج إليك». وأقفلت الباب في وجهي. وإذ استأت من هذه الفظاظة وخيبة الأمل، أدرت وجهي، وسرت إلى بيتي. ومع ذلك، حاولت طوال المساء أن أفكر في كل شيء يتذكره ذهني عن ذلك الشبح الذي أطل من النافذة، وعن فظاظة تلك المرأة. نويت ألا أقول شيئًا عن ذلك الوجه لزوجتي، لأنها سيدة عصبية وسريعة الانفعال، ولا أريدها أن تشترك معي في الطابع غير السار الذي انطبع في نفسي. ومع ذلك، فقد لمَّحت لها قبل أن أستغرق في النوم، بأن الكوخ مسكون الآن، فلم تَرُد على تلميحي بشيء.

إنني، بطبيعتي، أنام عميقًا، وكانت الأسرة تتندر دائمًا بأنه ما من شيء يمكن أن يوقظني خلال الليل. ومع ذلك، ففي تلك الليلة بالذات، كان نومي خفيفًا أكثر من المعتاد، ولست أدري أكان هذا بسبب ما أحدثته تلك المغامرة البسيطة من إثارة في نفسي، أم كان لسبب آخر لا أعرفه. وبينما أنا نصف حالم، أحسست إحساسًا غير واضح بأن شيئًا يحدث في الحجرة. وبالتدريج، أدركت أن زوجتي قد ارتدت ملابسها، وتلبس عباءتها وقبعتها. انفرجت شفتاي وتمتمت كلمات النوم بما يدل على المفاجأة أو الاعتراض على ذلك الاستعداد غير المناسب. فإذا عيناي نصف المفتوحتين تقعان فجأة على وجهها في ضوء الشمعة. فألجمت الدهشة لساني. كانت ملامح وجهها متغيرة تغيرًا لم أعهده فيها من قبل. ملامح، أعتقد أنها لا يمكن أن تتصف بها. كانت في شحوب الأموات، وتتنفس بسرعة، وتنظر خلسة إلى السرير وهي تثبت أزرار عباءتها، لترى ما إذا كانت قد أيقظتني. ثم حسبتني لم أزل نائمًا، فتسللت من الحجرة في هدوء. وبعد لحظة سمعت صريرًا حادًّا لا يمكن أن يحدثه سوى مفصلات الباب الخارجي. فجلست في السرير لأتأكد من أنني متيقظ حقيقة. ثم سحبت

ساعتي من تحت الوسادة، فإذا بها الساعة الثالثة صباحًا. أي شيء يا ترى يمكن أن تفعله زوجتي بالخارج في الطريق الريفي في الساعة الثالثة صباحًا؟

جلست مدة عشرين دقيقة تقريبًا، وأنا أقلب الأمور في ذهني، في هذا الاتجاه وذاك، لأجد أي تفسير ممكن. وكلما فكرت زادت الأمور تعقيدًا، وغدت عديمة التفسير. وبينما أنا حائر في ذلك الأمر، سمعت الباب يقفل ثانية في رفق، ووَقْع قدميها تصعدان السلم.

فلما دخلت الحجرة سألتها بقولي: «أين كنتِ، في هذا العالم، يا «إيفي»؟». ثارت بعنف وأخذت تبكي وأنا أتكلم، فأزعجني هذا البكاء وذلك الانفعال أكثر من أي شيء آخر، لأنه كان يحيط بهما شيء آثم. كانت زوجتي دائمًا صريحة، بطبيعتها، فأزعجني تسللها إلى حجرتها، وبكاؤها وثورتها عندما يتحدث إليها زوجها. صاحت تقول، في ضحكة عصبية: «هل أنت متيقظ يا «جاك»؟ لمَ ذلك؟ ظننت أن لا شيء يمكن أن يوقظك». فقلت لها بعنف أكثر: «أين كنتِ؟». قالت: «لا يدهشني أن يكون خروجي مفاجأة لك». وكان بوسعي أن أرى أصابعها ترتجف وهي تحل أزرار عباءتها. وأردفت تقول: «لا أتذكر قَطُّ، أنني فعلت مثل هذا الشيء من قبل. الواقع أنني شعرت كما لو أنني أختنق، وأحسست برغبة عارمة في استنشاق بعض من الهواء النقي. وكنت أحس بأنه سيغمى عليَّ، لذا خرجت ووقفت أمام الباب لبضع دقائق. وهأنذا عدت كما كنت مرة أخرى».

وطوال الوقت الذي كانت تقول فيه ذلك لم تضع عينها في عيني مرة واحدة، ولم تنظر جهتي قَطُّ، وكان صوتها يختلف عن صوتها العادي. إذن، كان من الواضح لي أنها لم تقل الصدق. فلم أَرُد على كلامها، بل أدرت وجهي إلى الحائط وأنا مبلبل الفكر ومضطرب الفؤاد بآلاف الشكوك والشبهات. ما الذي تخفيه عني زوجتي؟ أين كانت في تلك الرحلة الغريبة؟ شعرت بأن ضميري لن يرتاح إلا إذا عرفت ذلك. ثم إنني امتنعت عن سؤالها مرة أخرى بعد أن أخبرتني بما هو غير حقيقي، ولبثت بقية الليل أتقلب وأتدحرج في السرير وأنا أُكون نظرية بعد أخرى، كل منها غير معقولة أكثر من سابقتها.

كان يجب أن أذهب إلى المدينة في ذلك اليوم، ولكني كنت مضطرب الذهن فلا أستطيع الانتباه إلى أمور العمل. ويبدو أن زوجتي كانت مضطربة مثلي، وكان بوسعي أن أرى من نظرتها المتسائلة الكليلة التي ظلت توجهها نحوي، أنها فهمت أنني لم أصدق قولها، وكانت حيرى لا تدري

ماذا تفعل. وقلما تبادلنا كلمة أثناء تناول طعام الإفطار، وبعده مباشرة، خرجت لأتمشى كي أفكر في الموضوع في هواء الصباح النقي.

ذهبت إلى كريستال بالاس، حيث قضيت ساعة ثم رجعت إلى نوربري في الساعة الواحدة مساءً. وجدت أن طريقي قادني أمام الكوخ، فوقفت لحظة أنظر إلى النوافذ، لأرى ما إذا كان بوسعي أن ألقي نظرة على ذلك الوجه الغريب الذي وقف يحدق فيَّ بالأمس. وتصور المفاجأة، يا «مستر هولمز»، وأنا واقف هناك، إذ فُتح باب الكوخ، وخرجت منه زوجتي!

أخرستني الدهشة عند رؤيتها، ولكن عواطفي كانت لا شيء بالقياس إلى ما ظهر في وجهها عندما التقت عيوننا. بدا عليها أنها كانت تود العودة إلى الكوخ ثانية، ثم رأت عدم جدوى إخفاء نفسها. فتقدمت نحوي بوجه ممتقع جدًّا إلى درجة البياض، وعينين مذعورتين تناقضان الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها.

قالت: «أوه «جاك»، جئت إلى هذا الكوخ، لأرى ما إذا كان بوسعي مساعدة جيراننا الجدد. لماذا تنظر إليَّ هكذا، يا «جاك»؟ هل أنت غاضب مني؟»، قلت: «إذن، فقد جئتِ إلى هذا الكوخ أثناء الليل؟». بكت وقالت: «ماذا تعني؟». «أتيتِ إلى هنا، وأنا على يقين من هذا. من هؤلاء القوم الذين تزورينهم في مثل تلك الساعة من الليل؟». «لم آتِ إلى هنا من قبل». صحت فيها أقول: «كيف تقولين لي ما تعرفين أنه إفك وبهتان؟ إن صوتكِ متغير وأنتِ تتكلمين. متى كان عندي سر فأخفيته عنكِ؟ سأدخل هذا الكوخ وأتحقق من الموضوع كله إلى أعماقه». قالت في عاطفة لا يمكنها السيطرة عليها: «كلا، كلا، يا «جاك»، إكرامًا لخاطر الله!». ثم اقتربت من الباب لأدخل، ولكنها أمسكت كمي وجذبتني بقوة وتشنج.

بكت تقول: «أتوسل إليك ألا تفعل هذا يا «جاك». أقسم على أنني سأخبرك بكل شيء في يوم ما، أما إذا دخلت هذا الكوخ الآن، فلن يحدث سوى محنة». وحاولت إبعادها عني، ولكنها تعلقت بي في توسل جنونيٍّ. بكت تقول: «صدقني، يا «جاك»! صدقني هذه المرة فقط، ولن تأسف على ذلك. أنت تعرف أنني لا أخفي عنك سرًّا إذا كان من أجل خاطرك. ستكون حياتنا في خطر بناء على ذلك. وإذا رجعت معي إلى البيت، فسيكون كل شيء على ما يرام. وإذا دخلت الكوخ عنوة، فسينتهي كل شيء بيننا».

كانت هناك جدية، وكان هناك يأس في حالتها، حتى إن كلماتها أوقفتني. فوقفت خائر العزيمة أمام الباب. قلت لها: «سأصدقك بشرط واحد، وشرط واحد فقط، أن ينتهي هذا اللغز منذ الآن. أنتِ حرة في الاحتفاظ بسرك، ولكن يجب أن تعديني وعدًا أكيدًا، بألا تكون هناك زيارات ليلية بعد الآن، وألا تفعلي أي أمور بغير علمي. أرغب في نسيان ما مضى إذا وعدتِني بألا يحدث أي شيء من ذلك في المستقبل». صاحت وهي



بكت تقول: «صدقني، يا «جاك »!»

تزفر زفرة ارتياح: «كنت على يقين من أنك ستصدقني. سأكون كما تريد وترغب. هيا بنا، هلم بنا إلى البيت!».

وأخذتني إلى البيت وهي ما زالت متشبثة بكمي إلى أن ابتعدنا عن الكوخ. وفي أثناء سيرنا، نظرتُ خلفي فأبصرت ذلك الوجه الأصفر الشاحب يراقبنا من الشباك العلوي. أي علاقة يمكن أن تكون هناك بين ذلك المخلوق وزوجتي؟ وماذا تكون العلاقة بينها وبين تلك المرأة الفظة التي رأيتها في اليوم السابق؟ كان لغزًا غريبًا. ومع ذلك، أعرف أن ضميري لن يرتاح مرة أخرى إلا إذا حُل هذا اللغز.

بقيت في البيت مدة يومين بعد ذلك، ويبدو أن زوجتي قد برت بوعدها. وتبعًا لما أعلم، لم تخرج من البيت إطلاقًا. وفي اليوم الثالث كان عندي دليل قاطع أن وعدها لي لم يكن كافيًا ليمنعها عن ذلك السر الذي يبعدها عن زوجها وعن واجبها.

ذهبت إلى المدينة في ذلك اليوم، ولكني رجعت بقطار الساعة 2.40 بدلًا من قطار الساعة 3.36 الذي هو قطاري المعتاد. وعندما دخلت البيت، جرت الخادمة إلى البهو بوجه مرتبك. فقلت لها: «أين سيدتكِ؟». فأجابت بصوت مضطرب: «أظنها خرجت تتمشى».

امتلأ عقلي بالريب، فاندفعت إلى الدور العلوي لأتأكد من عدم وجودها في البيت. وبينما أنا بالدور العلوي ألقيت نظرة خارج الشباك، فرأيت الخادمة التي كنت أتكلم معها منذ لحظة تجري عبر الحقل في اتجاه الكوخ. وبعدها، طبعًا، رأيت معنى ذلك. ذهبت زوجتي إلى هناك وأخبرت الخادمة بأن تناديها إذا تصادف أني عدت قبل موعدي. وإذ كان مِرجل غضبي يغلي، اندفعت أهبط السلم وخرجت من البيت أسير نحو الكوخ مصممًا على الانتهاء من هذا الموضوع إلى الأبد. فأبصرت زوجتي والخادمة تسرعان عائدتين معًا في الحارة. ولكني لم أقف لأتحدث إليهما، ففي ذلك الكوخ يوجد السر الذي يلقي ظلًّا على حياتي. أقسمت على أنه لن يصير سرًّا بعدئذ، وليحدث ما يحدث. ولم أطرق الباب عندما وصلت إلى الكوخ، بل أدرت مقبض الباب واقتحمته إلى داخل الممر.

وجدت كل شيء هادئًا وساكنًا في الدور الأرضي، ووجدت في المطبخ إبريقًا يُغني فوق النار، وقطة ضخمة سوداء قابعة داخل سلة. ولكنْ لم يكن هناك أي أثر للمرأة التي رأيتها من قبل. فجريت إلى الحجرة الأخرى، ولكنها كانت خاوية كذلك. ثم اندفعت صاعدًا السلم إلى الطابق العلوي لأجد حجرتين خاويتين ومهجورتين. لم يكن هناك أي أحد في الكوخ كله. وكان الأثاث والصور من النوع العادي جدًّا والمبتذل، باستثناء ما في تلك الحجرة التي رأيت فيها الوجه الغريب. كانت هذه

الحجرة مريحة وأنيقة. وثارت شكوكي وغلى الدم في عروقي حينما أبصرت على رف المدفأة صورة لزوجتي بالطول الطبيعي التُقطت لها بناء على طلبي منذ ثلاثة أشهر.

مكثت هناك مدة كافية لأتأكد من أن الكوخ خاوٍ. ثم غادرته وأنا أحس بثقل فوق قلبي، لم أحس بمثله من قبل. خرجت زوجتي إلى البهو حينما دخلت بيتي غاضبًا ومتأثرًا، فلم أتحدث إليها، ومررت بجانبها إلى حجرة المكتب. فتبعتني إلى هناك قبل أن يتسنى لي إقفال الباب. قالت: «آسفة إذ حنثت بوعدي، يا «جاك». ولكنك إذا عرفت كل الظروف، فأنا متأكدة من أنك ستعفو عني». قلت: «إذن، فأخبريني بكل شيء». بكت وقالت: «لا أستطيع يا «جاك»، لا أستطيع إخبارك الآن!». «لن أعفو عنكِ إلا إذا عرفت من يقيم في ذلك الكوخ، ومن ذلك الذي أعطيتِه صورتكِ. لن توجد ثقة بيننا بعد الآن».

وانفصلت عنها وتركت البيت. كان هذا بالأمس، يا «مستر هولمز»، ولم أرَها منذ ذلك الوقت، ولا أعرف أي شيء آخر عنها، كما لم أعرف أي شيء عن ذلك الأمر الغريب. هذا هو أول ظل جاء بيننا، وقد هز كياني في عنف حتى إنني لا أعرف أفضل شيء يمكنني أن أفعله. وفجأة، طرأ على بالي في هذا الصباح أنك الرجل الذي يمكن أن ينصحني. لذا أسرعت إليك، وهأنذا أضع نفسي بين يديك من دون تحفظ. وإذا كانت هناك نقطة لم أوضحها، فأرجو أن تسألني عنها. ولكن قبل كل شيء، أرجو أن تخبرني بما أفعله، لأن هذه المحنة أكثر وأقوى مما يمكنني احتماله.

أصغيت أنا و«هولمز» باهتمام عظيم إلى هذه الوقائع غير المألوفة التي سردها رجل مبلبل الفكر بصوت متقطع، وهو تحت تأثير أقسى العواطف. فجلس «هولمز» صامتًا لبعض الوقت واضعًا ذقنه فوق يده ومستغرقًا في تفكير عميق.

وأخيرًا قال:

ـ أيمكنك أن تُقسم على أن ذلك الوجه الذي رأيته في النافذة، هو وجه رجل؟

ـ في كل مرة نظرت إليه كنت على مسافة بعيدة منه، لذا لا يمكنني الجزم بشيء.

ـ ومع ذلك، انطبعت في ذهنك فكرة سيئة.

ـ اللون غريب، والملامح ذات صلابة غريبة. وعندما اقتربت اختفى وسط الظلام.

ـ منذ كم من الوقت طلبت منك زوجتك مبلغ المائة جنيه؟

ـ منذ شهرين تقريبًا.

ـ هل رأيت صورة لزوجها السابق؟

ـ كلا. حدث حريق هائل في أتلانتا بعد موته بفترة قصيرة، فالتهمت النيران جميع الأوراق.

ـ ومعها شهادة وفاة، وقلت إنك رأيتها؟

ـ نعم، حصلت على نسخة ثانية منها بعد الحريق.

ـ ألم تقابل أحدًا كان يعرفها في أمريكا؟

ـ كلا.

ـ هل تكلمَت عن زيارة الكوخ مرة أخرى؟

ـ كلا.

ـ ألم تتسلم أي خطابات منه؟

ـ لا، حسبما أعلم.

ـ شكرًا. أود أن أفكر في هذا الموضوع قليلًا الآن. إذا ظل الكوخ مهجورًا، فربما قابلتنا بعض الصعوبات. أما إذا كان السكان قد حُذِّروا من قدومك، كما أعتقد، وغادروا الكوخ قبل دخولك بالأمس، فربما كانوا هناك الآن، ويمكننا استجلاء الموقف بسهولة. وإني لأنصحك بالعودة مرة أخرى إلى نوربري، وفحص نوافذ الكوخ مرة ثانية. وإذا اعتقدت اعتقادًا قويًّا بأن الكوخ مسكون، فلا تدخله عنوة، وإنما أرسل برقية إلى صديقي، أو إليَّ نلحق بك بعد ساعة من استلام البرقية، وعندئذ نصل إلى قاع الحقيقة.

قال رفيقي، بعد أن أوصل «المستر جرانت مونرو» إلى الباب وعاد:

ـ أخشى أن يكون هذا عملًا فظيعًا يا «واطسون». ما رأيك فيه؟

فأجبته بقولي:

ـ يبدو أنه موضوع شائك.

ـ نعم إنه لكذلك، ويكتنفه ابتزاز بالتهديد وإلا كنتُ مخطئًا.

ـ ومن ذلك المبتز؟

ـ لا بد أنه ذلك المخلوق الذي يعيش في الحجرة الأنيقة الواحدة، بذلك الكوخ، ولديه صورتها فوق رف الوطيس. أقسم بشرفي، يا «واطسون»، على أن ذلك الموضوع يتضمن شيئًا جذابًا جدًّا عن ذلك الوجه الشاحب الذي يقف في النافذة، وأنا لن أترك هذه القضية حتى ولو أُعطيت متاع الدنيا كلها.

ـ هل كونت نظرية؟

ـ نعم، كونت نظرية مؤقتة، فإن ثبت عدم صحتها، كان هذا مفاجأة لي. الزوج السابق لهذه السيدة موجود في ذلك الكوخ.

ـ ماذا يدعوك إلى هذا الظن؟

ـ بأي شيء آخر يمكننا تفسير قلقها الشديد ومنعها زوجها الثاني دخول الكوخ؟ فالوقائع كما أقرأها شيء على هذا النحو: تزوجت هذه المرأة في أمريكا ومارس زوجها بعض الصفات المقيتة، أو دعنا نقول إنه أصيب بمرض خبيث كالجذام أو الجنون، فهربت منه أخيرًا وعادت إلى إنجلترا وغيرت اسمها وبدأت حياتها من جديد كما حلا لها. ظلت متزوجة ثلاث سنوات، وخيل إليها أن مركزها آمن جدًّا بعد أن أطلعت زوجها على شهادة وفاة رجل انتحلت اسمه. ولما اكتشف زوجها الأول مقرها أخيرًا، أو بواسطة امرأة معدومة المبدأ والضمير، ربطت نفسها بذلك المريض. فكتبا إلى تلك الزوجة وهدداها بالحضور وكشف أمرها. فطلبت مائة جنيه لشراء سكوتهما. ورغم هذا حضرا وأقاما أمام بيتها. وحينما ذكر الزوج لزوجته، بطريقة عابرة، أن هناك سكانًا جددًا في الكوخ، عرفت بطريقة ما أنهما يطاردانها. فانتظرت حتى نام زوجها، فذهبت إليهما لتحثهما على أن يتركاها وشأنها. وإذ لم تنجح في تلك الليلة، ذهبت إليهما مرة أخرى في صباح اليوم التالي. فالتقى بها زوجها وهي خارجة من الكوخ، كما أخبرنا. عندئذ وعدته بألا تذهب إلى هناك ثانية. ولكنها، بعد

يومين، كانت تأمل في التخلص من هذين الجارين المفزعين واللذين كانا قويين عليها. فقامت بمحاولة أخرى آخذة معها صورتها التي ربما كانا قد طلباها منها. وفي منتصف هذه المقابلة، هرعت الخادمة لتنبئهم بأن سيدها عاد إلى البيت. فعرفت الزوجة أنه سيأتي إلى الكوخ مباشرة، فجعلت ساكني الكوخ يخرجون من الباب الخلفي إلى دغل أشجار الصفصاف الاسكتلندي، الذي قال إنه قريب من الكوخ. وبهذه الطريقة وجد الكوخ مهجورًا. وإني لأفاجأ أكثر، إن كان الكوخ لا يزال مهجورًا. ومع ذلك، فإذا كان لا يزال كذلك عندما يقترب منه في هذا المساء، فماذا ترى في نظريتي؟

ـ إنها محض تخمين.

ـ ولكنها، على الأقل، تضم جميع الوقائع. فإذا ما جاءت إلى علمنا وقائع أخرى، لم تتناولها هذه النظرية، فسيكون ذلك الوقت هو ما نناقشها فيه. والآن لا يمكننا عمل شيء إلا إذا جاءتنا رسالة جديدة من صديقنا، من نوربري.

ولكننا لم ننتظر طويلًا، فقد جاءت الرسالة بمجرد أن انتهينا من تناول الشاي، تقول:

الكوخ ما زال مسكونًا. رأيت الوجه مرة أخرى في النافذة. سأقابلكما على قطار الساعة السابعة، ولن أتخذ أي خطوات إلا بعد وصولكما.

كان بانتظارنا على رصيف المحطة عند نزولنا من القطار، وكان بوسعنا أن نراه في أضواء المحطة، شاحب اللون جدًّا، ينتفض من شدة الهياج.

وضع يده على كمِّ صديقي، وقال:

ـ لا يزالون هناك، يا «مستر هولمز». شاهدت أنوارًا في الكوخ وأنا ذاهب إلى هناك. سنسوي الموضوع الآن وإلى الأبد.

فسأله «هولمز» ونحن نسير في الطريق المظلم الذي تحده الأشجار:

ـ إذن، فما هي خطتك؟

ـ سأدخل الكوخ عنوة وأرى بنفسي من فيه. أريد منكما أن تكونا هناك، كلاكما، شاهِدَين.

ـ هل لا تزال مصممًا على حل هذا اللغز، رغم تحذير زوجتك بأنه من الخير لك ألا تحاول أن تحله؟

ـ نعم، أنا مصمم.

ـ أعتقد أنك في الطريق الصحيح، فأي حقيقة، مهما تكن، خير من الشك المستمر. من الأفضل أن نذهب في الحال طبعًا. إننا نضع أنفسنا في طريق الخطأ، من الناحية القانونية. ولكني أعتقد أن المسألة تستحق المخاطرة.

كانت ليلة حالكة الظلام، وبدأ المطر ينزل خفيفًا ونحن نترك الطريق إلى الحارة كثيفة الشجيرات على كلا الجانبين. وكان «المستر جرانت مونرو» يسير حثيثًا إلى الأمام، ونحن في عقبيه قدر طاقتنا.

تمتم «المستر مونرو»، وهو يشير إلى الوميض الظاهر من خلال الأشجار، وقال:

ـ ها هي أنوار بيتي. وها هو الكوخ الذي سأقتحمه.

استدرنا حول أحد أركان الحارة وهو يتكلم، وكان المبنى بجوارنا. وجدنا هناك قضيبًا أصفر ساقطًا بعرض الفناء الأسود. وهذا يدل على أن الطابق ليس مقفلًا تمامًا. وكان هناك شباك في الطابق العلوي مضاء إضاءة باهرة. وحينما نظرنا إليه، رأينا جسمًا داكنًا، غير واضح، يتحرك وراء الشيش.

فصاح «جرانت مونرو» يقول:

ـ هذا هو المخلوق إياه، يمكنكما أن تريا بأنفسكما أن هناك شخصًا. والآن، اتبعاني، وسرعان ما سنعرف كل شيء.

تقدمنا نحو الباب، فإذا بامرأة تبرز من وسط الظلام، وتقف في المسار الذهبي لضوء المصباح. لم أستطع رؤية وجهها في الظلام، ولكن ذراعيها امتدتا إلى الخارج في صورة توسل.

صاحت تقول:

ـ لا تفعل، يا «جاك». إكرامًا لخاطر الله! كان عندي إحساس سابق بأنك ستأتي هذا المساء. ليكن تفكيرك في الأمر خيرًا من هذا، يا عزيزي! ثق بي ثانية، ولن تندم على ذلك.

فصاح «جرانت» في عنف:

ـ وثقت بكِ، وصدقتك مدة طويلة، يا «إيفي»! اتركيني. لا بد أن أصعد السلم وأسوي الأمر أنا وصديقاي، إلى النهاية.

قال هذا ودفعها جانبًا، فتبعناه مباشرة. وعندما فتح الباب جرت امرأة مسنة إلى الخارج، وحاولت أن تسد الطريق أمامه، ولكنه دفعها جانبًا. وبعد لحظة، كنا جميعًا على السلم، واندفع «جرانت مونرو» إلى داخل الحجرة المضاءة بالطابق العلوي، ودخلنا في عقبيه مباشرة.

كانت شقة مريحة فخمة الأثاث، وعلى المائدة شمعتان مضاءتان، وعلى رف الوطيس شمعتان أخريان. وفي ركن من الحجرة تجلس فتاة صغيرة أمام قِمَطر. فلما دخلنا أدارت وجهها بعيدًا عنا، ولكننا استطعنا أن نراها مرتدية فستانًا أحمر اللون وقفازًا طويلًا أبيض. وحينما استدارت نحونا، أطلقت صيحة المفاجأة والفزع. كان الوجه الذي أدارته نحونا من أغرب الألوان القاتمة، وملامحها خالية تمامًا من أي تعبير. وبعد لحظة، اتضح اللغز الغامض. مر «هولمز» بيده وهو يضحك، خلف أذن الطفلة، فنزع عن وجهها قناعًا، فبانت فتاة زنجية سوداء بلون الفحم، تتألق جميع أسنانها البيضاء أمام وجوهنا المذهولة، وهي مسرورة مغتبطة. فانفجرت ضاحكًا، أما «جرانت مونرو» فوقف يحملق فيها ويده عند رقبته.

صاح «مونرو» يقول:

ـ رباه! ما عسى أن يكون معنى هذا؟

صاحت السيدة وهي تدخل الحجرة مرفوعة الرأس وقالت:

ـ سأخبركَ بمعنى هذا بعد أن أجبرتني، رغمًا مني على أن أخبرك. والآن، على كلينا أن نتصرف التصرف الصحيح. مات زوجي الأول في أتلانتا وعاشت ابنتي.

ـ ابنتكِ؟

أخرجت علبة فضية من صدرها ثم أردفت تقول:

ـ لم ترَ هذه العلبة مفتوحة قَطُّ.

ـ ظننتها لا تفتح.

ضغطت الزوجة على زنبرك فانفتح الغطاء ذو المفصلات. كان بداخلها صورة نصفية لرجل بادي الأناقة والذكاء، يحمل في محياه أمارات أصله الأفريقي الواضح.

قالت السيدة:

ـ هذا «جون هبرون»، أحد أهالي أتلانتا. لم يمشِ على الأرض رجل أنبل منه. انفصلت عن جنسي لأتزوجه، ولكني طوال حياتي معه، لم أندم مرة واحدة على زواجي به. وكان من سوء حظنا أن ابنتنا الوحيدة جاءت بلون قومه وليس بلون جنسي، ولا بين بين. غالبًا ما يحدث هذا في أمثال هذه الزيجات. جاءت «لوسي» الصغيرة أشد سوادًا من والدها. ولكن مهما تكن سوداء أو بيضاء، فهي ابنتي الصغيرة العزيزة، حبيبة أمها وقرة عينها.

عندما سمعت هذه المخلوقة الصغيرة كلمات أمها، جرت واختبأت وراء ثوب والدتها.

استطردت السيدة تقول:

ـ عندما تركتها في أمريكا، لم يكن هذا إلا لأن صحتها كانت ضعيفة جدًّا، وربما ضرها تغير الجو. فعهدت بها إلى سيدة اسكتلندية وفية، كانت خادمتها فيما مضى. ولم أحلم مرة واحدة بأن أنكر أمومتي لها. ولكن عندما رماك الحظ في طريقي، يا «جاك»، وتعلمت أن أحبك، خفت أن أخبرك بابنتي، وإني لأستغفر الله عن ذلك، ولم تأتِني الشجاعة لأن أخبرك. كان لا بد لي أن أختار بينكما. وفي ضعفي الذي لا مبرر له، ابتعدت عن ابنتي الصغيرة واحتفظت بوجودها سرًّا عنك لمدة ثلاث سنوات. وكنت أسمع من مربيتها أنها على أحسن حال، فأطمئن. وأخيرًا استبدت بي رغبة جامحة في أن أرى الطفلة مرة أخرى. حاولت أن أتخلى عن هذه الرغبة الملحة ولكن دون جدوى. ورغم إدراكي للخطر، اعتزمت رؤيتها، ولو لبضعة أسابيع. فأرسلت مائة جنيه للمربية، وزودتها بالتعليمات عن الكوخ كي تقيما فيه كجارتين، دون أن أبدو على أي علاقة بهما. وتماديت في احتياطاتي بأن أمرتها بالاحتفاظ بالطفلة في البيت أثناء النهار، وبأن تغطي وجهها ويديها كيلا

يتحدث من يراها عن وجود طفلة سوداء البشرة في هذه المنطقة. ولو كنت أقل احتياطًا لصرت أكثر عقلًا، ولَمَا حدث شيء من كل هذا. ولكني كنت نصف مجنونة خشية أن تعرف الحقيقة.

أنت الذي أخبرتني أولًا بأن الكوخ سكن. كان لا بد أن أنتظر حتى الصباح، ولكني لم أستطع النوم من شدة الانفعال، وأنت تعرف قلب الأم. وهكذا تسللت أخيرًا إلى الخارج، وأنا أعرف صعوبة إيقاظك. ولكنك رأيتني أذهب، فكان هذا أول متاعبي التي جررتها على نفسي وعليك بسوء تصرفي. وفي اليوم التالي غدا سري تحت رحمتك، ولكنك أحجمت بنبل عن السير وراء غضبك. وبعد ذلك بثلاثة أيام، هربت المربية والطفلة من الباب الخلفي عندما اقتحمت الباب الأمامي. والآن، وفي هذه الليلة، عرفت كل شيء أخيرًا. وأرجوك أن تخبرني ماذا سيؤول إليه أمرنا، أنا والطفلة؟

قالت هذا، واشتبكت يداهما معًا، تنتظر الرد.

مرت دقيقتان طويلتان حتى تكلم «جرانت مونرو». وعندما جاء رده، كان ردًّا يلذ لي أن أتذكره. رفع الطفلة الصغيرة وقبلها وحملها، ثم مد يده الأخرى إلى زوجته وهو ما زال يحمل الطفلة، واستدار نحو الباب.

قال:

ـ يمكننا أن نتحدث في هذا الأمر براحة أكثر، في البيت. لست رجلًا طيبًا جدًّا، يا «إيفي»، ولكني أعتقد أنني أحسن مما جعلتِني طيبًا.

تبعتهما أنا و«هولمز» خلال الحارة. وأمسك صديقي كمي ونحن خارجان، وقال:

ـ أظننا سنكون أكثر فائدة في لندن منا في نوربري.

لم نتكلم بأي لفظ آخر عن هذه القضية إلا في وقت متأخر من تلك الليلة عندما ذهب «هولمز» إلى حجرة نومه يحمل شمعته الصغيرة.

قال:

ـ يا «واطسون»، إذا طرأ على بالك، في أي وقت، أنني واثق من قواي، أو أنني أبذل جهدًا في قضية ما، أقل مما تستحق، فأرجوك أن تهمس في أذني بكلمة «نوربري»، عندئذ أكون شاكرًا

لك إلى الأبد.

كاتب سمسار الأوراق المالية

بعد أن تزوجت بوقت قصير، اشتريت عيادة طبية بمنطقة بادنجتون. كان «المستر فاركوهار» العجوز، الذي اشتريتها منه، يحظى بعمل طيب في تلك العيادة، بيد أن شيخوخته وإصابته بمرض الكوريا[3] عملتا كثيرًا على تخفيف العمل. وإن الجمهور ليعتقد، بطبيعته، أن الطبيب الذي يشفي غيره لا بد أن يكون هو نفسه في صحة جيدة، كما ينفر من الطبيب الذي يكون مرضه فوق ما تستطيع عقاقيره أن تشفيه. وهكذا عند ضعف سابقي هذا، اضمحل عمله إلى أن اشتريت العيادة منه. وكان دخله قد هبط من ألف ومائتي جنيه في العام، إلى أكثر قليلًا من ثلاثمائة جنيه فحسب. ومع ذلك، فقد كنت أثق في شبابي ونشاطي. كما كنت مقتنعًا بأن العيادة، بعد بضع سنوات، سوف تزدهر كما كانت.

ظللت عاكفًا على عملي، لمدة ثلاثة أشهر بعد حصولي على هذه العيادة، ولم أرَ صديقي «شرلوك هولمز» إلا لمامًا، إذ كنت مشغولًا جدًّا، فلم أستطع الذهاب إلى شارع بيكر، وإنه هو نفسه لم يذهب إلى أي مكان إلا لعمل تتطلبه مهنته. لذا، أدهشني، في صباح أحد أيام شهر يونيو، وأنا جالس أقرأ «الصحيفة الطبية البريطانية» بعد أن تناولت طعام الإفطار، أن أسمع جرس الباب يدق، يعقبه دخول صديقي، وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ أهلًا، يا عزيزي «واطسون». يسرني جدًّا أن أراك. أرجو أن تكون «مسز واطسون» قد أفاقت تمامًا من انفعالها بخصوص مغامرتنا في قضية «علامة الأربعة».

قلت وأنا أصافحه بحرارة:

ـ شكرًا، نحن كلينا، بخير وعلى أحسن ما يرام.

فجلس على الكرسي الهزاز، وقال:

ـ آمل كذلك في أن تكون مشاكل عملك الطبي، لم تمحُ تمامًا متعتك السابقة في مشاكلنا الاستقرائية الصغيرة.

أكدت له بقاء متعتي كما هي، بقولي:

ـ على العكس. ففي الليلة الماضية فقط، كنت أتصفح مذكراتي القديمة، وأرتب بعض استنتاجاتنا الماضية.

ـ أرجو ألا تكون مجموعتك قد أقفلت.

ـ أبدًا، لا أرغب في شيء أفضل من الحصول على مزيد من هذه الممارسات.

ـ أتريدها اليوم، مثلًا؟

ـ نعم، اليوم إن أردت.

ـ وتسافر حتى برمنجهام؟

ـ يا ليتها تكون كذلك!

ـ ومهنتك؟

ـ إنني أقوم بأعمال جاري أثناء غيابه، وهو على استعداد دائمًا لسداد الدين.

أسند «هولمز» ظهره إلى الخلف في مقعده، وقال وهو ينظر إليَّ من تحت جفنيه نصف المقفلين:

ـ إذن، فلا شيء خيرًا من هذا. أرى أن وعكة أصابتك حديثًا، وأن نوبات برد الصيف مزعجة بعض الشيء.

ـ لزمت داري من جراء قشعريرة شديدة، لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع الماضي، وأظنني شفيت من كل أثر لها.

ـ أنت كذلك. تبدو قويًّا بصورة ملحوظة.

ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ إنك تعرف طرقي، يا زميلي العزيز.

ـ فهل استنتجت ذلك؟

ـ بالتأكيد.

ـ من أي شيء؟

ـ من خفَّيك.

فنظرت إلى أسفل نحو خفيَّ المصنوعين من الجلد المتين، واللذين ألبسهما في قدميَّ، وكنت على وشك أن أقول: «كيف يا ترى؟». ولكن «هولمز» كفاني مؤونة هذا السؤال بأن أجاب قبل أن أسأله.

قال:

ـ خفاك جديدان. لم يكونا عندك لأكثر من بضعة أسابيع. فإن



إذن، فلا شيء خيرًا من هذا

نعليهما، اللذين توجههما نحوي، محترقان قليلًا. ظللت لحظة أفكر في أنهما ربما كانا مبتلين قليلًا، واحترقا عندما أردت تجفيفهما. ولكن بداخل الخف بطاقة ورقية مستديرة عليها اسم المتجر. وبالطبع قد تكون الرطوبة أزالت هذه البطاقة. إذن، فلا بد أنك كنت جالسًا ورجلاك ممتدتان نحو النار، الأمر الذي لا يفعله أي إنسان في شهر يونيو المطير، إلا إذا كان معتل الصحة.

وكما هي طريقة «هولمز» في تدليله، كان هذا في منتهى البساطة عند شرحه. قرأ الفكرة في ملامحي، وابتسم ابتسامة تشوبها المرارة.

فقال:

ـ أخشى أنني أكشف عن طرقي عندما أفسر أدلتي. فالنتائج من غير ذكر الأسباب، أكثر تأثيرًا. إذن، فهل أنت على استعداد للمجيء معي إلى برمنجهام؟

ـ بالطبع. ما هي القضية؟

ـ ستسمعها كاملةً في القطار. زبوني في عربة في الخارج. هل يمكنك أن تأتي على الفور؟

ـ بعد لحظة.

كتبت مذكرة لجاري، وأسرعت صاعدًا إلى الطابق العلوي لأشرح الموضوع لزوجتي، ثم لحقت بـ«هولمز» عند عتبة الباب.

أشار «هولمز» إلى لافتة نحاسية، وقال:

ـ جارك طبيب.

ـ نعم، اشترى عيادة مثلما فعلت أنا.

ـ أهي عيادة قديمة؟

ـ نعم، مثل عيادتي تمامًا. كلتاهما منذ بناء هذا البيت.

ـ إذن، أخذت أنت أفضل العيادتين.

ـ أظنني فعلت ذلك. وكيف عرفت؟

ـ عرفت ذلك من السلم، يا غلامي. فإن سلمك متآكل بمقدار ثلاث بوصات أعمق من سلمه. ولكن الرجل الموجود بالعربة هو زبوني «المستر هول بايكروفت». اسمح لي بأن أقدمك له.

سُط خيولك، أيها الحوذي، فلا يكاد يكون لدينا وقت لنلحق القطار.

الرجل الذي واجهته قوي البنية أبيض البشرة، صغير السن، ذو وجه صريح أمين، وشارب صغير أصفر اللون، يضع على رأسه قبعة عالية لامعة جدًّا، ويرتدي حلة أنيقة سوداء جعلته يبدو على حقيقته ـ شابًّا حضريًّا ـ أنيقًا من الطبقة اللندنية المعروفة باسم «كوكني»، ممن يتطوعون في مختلف فرق الجيش ومعظمهم من الرياضيين ولا سيما المصارعين، أكثر من أي أناس آخرين في هذه الجزر. أما وجهه الأحمر المستدير فمملوء مرحًا، ولو أن زاويتَي فمه منحرفتان إلى أسفل قليلًا دليلًا على بعض الحزن. لم أعرف المشكلة التي ألجأته إلى «شرلوك هولمز» إلا بعد أن صرنا جميعًا داخل عربة الدرجة الأولى، وبدأ القطار سيره إلى برمنجهام.

قال «هولمز»:

ـ لدينا سبعون دقيقة كاملة نقضيها في القطار، وأريدك، يا «مستر بايكروفت»، أن تخبر صديقي الدكتور «واطسون» بمشكلتك الممتعة مثلما أخبرتني بها تمامًا، أو بمزيد من التفصيل إن أمكن، فذلك يفيدني في تتبع تعاقب الأحداث مرة ثانية. إنها يا «واطسون» قضية تنطوي على شيء، أو قد لا تتضمن أي شيء. ولكنها، على الأقل، تمثل تلك المظاهر غير العادية العزيزة عليك وعليَّ. والآن، لن أقاطعك مرة أخرى، يا «مستر بايكروفت».

نظر إليَّ رفيقنا الشاب، وقد تألقت عيناه.

قال:

ـ أسوأ ما في هذه القصة، أنني أظهرت نفسي غبيًّا مخدوعًا. وبالطبع قد تبدو عادية، وما كان بوسعي أن أفعل غير ذلك. ولكني إذا فقدت وظيفتي ولم أحصل على شيء بدلًا منها، فسأشعر بأنني كنت مغفلًا كبيرًا. إنني لا أجيد الرواية يا دكتور «واطسون»، ولكن هذا ما حدث معي:

كنت أعمل في مؤسسة «كوكسون وودهاوس» في درابرز جاردنز، ولكنهم شهروا إفلاسهم بسبب القرض الفنزويلي، كما تتذكر بغير شك، وجاءت مكانها مؤسسة أخرى بغيضة. كنت أعمل معهم لمدة خمس سنوات، وأعطاني العجوز «كوكسون» شهادة طبية حينما ألمت بهم المحنة. أما نحن الكتبة، فطردنا من العمل، وكنا سبعة وعشرين كاتبًا. وحاولت البحث عن عمل هنا وهناك ولكن دون جدوى، إذ كان هناك الكثير جدًّا من الشبان المتعطلين مثلي. وهكذا ظللت من دون عمل لمدة طويلة. كنت أتقاضى لدى «كوكسون» ثلاثة جنيهات في الأسبوع، وفرت منها نحو سبعين جنيهًا. ولكني أنفقتها كلها وأنا من دون عمل، وما زلت أطلب عملًا عند هذا وأغادر مكان ذاك صفر اليدين حتى صرت أخيرًا «على الحديدة». وقلما كنت أجد ثمن طابع البريد أو ثمن المظروف الذي ألصقه عليه لأرد على إعلان بطلب وظيفة. وفضلًا عن هذا، أبليت حذائي بكثرة صعود سلالم المكاتب وهبوطها وبدا أنني لن أجد عملًا أبدًا.

وأخيرًا عثرت على وظيفة خالية لدى مؤسسة «موسون ووليامز» للأوراق المالية الكبرى بشارع لومبارد. وإني لأتجاسر على القول بأن الأوراق المالية ليست من اختصاصي، ولكني أستطيع القول بأن هذه المؤسسة من أغنى المؤسسات الموجودة في لندن كلها. ولما كان الرد على هذا الإعلان بالخطابات فقط، أرسلت لهم صورًا من مؤهلاتي وطلب العمل، من دون أن يكون عندي أقل أمل في نيل تلك الوظيفة. ولكن الرد جاء برجوع البريد يطلب ذهابي إلى هناك صباح يوم الاثنين التالي لأتسلم عملي الجديد في الحال، على شرط أن يكون مظهري مقبولًا. لا أحد يعرف كيف يتم اختيار الموظفين. يقول بعض الناس: إن المدير يضرب يده في كومة الطلبات التي أمامه ويسحب منها أول طلب يقع في يده، كيفما اتفق. وعلى أي حال، كان طلبي هو الذي وقع في يده في تلك المرة، فشعرت بفرح ما بعده فرح. كان الراتب يزيد جنيهًا واحدًا في الأسبوع على راتبي عند «كوكسون»، بينما العمل هو نفسه تقريبًا.

والآن أتناول الجزء الغريب في هذا الموضوع: سرت في طريق هامستيد، والعنوان: 17 صالة بوتر. كنت جالسًا أدخن في ذلك المساء نفسه بعد أن وعدت بالوظيفة، فإذا بمديرة البيت تأتيني ببطاقة مطبوع عليها: «آرثر بينر، وكيل مالي». لم أسمع عن ذلك الاسم من قبل، ولم يكن بمقدوري أن أتصور ماذا يريد مني هذا الرجل، فطلبت منها إدخاله، فدخل. كان رجلًا متوسط الحجم، أسود الشعر والعينين واللحية، مدبب الأنف قليلًا، يتكلم بحدة وجدية وباختصار، كرجل يعرف قيمة الوقت. قال: «أنت «المستر بايكروفت» على ما أعتقد؟». قلت: «نعم، يا سيدي». ووضعت كرسيًّا

بيني وبينه. «هل كنت تعمل أخيرًا بمؤسسة «كوكسون وودهاوس»؟». «نعم، يا سيدي». «والآن، أنت ضمن موظفي مؤسسة «موسون»؟». «بالضبط». قال: «حسنًا! الحقيقة أنني سمعت أخيرًا قصصًا خارقة، عن كفاءتك المالية. أتتذكر «باركر»، الذي كان مدير مؤسسة «كوكسون»؟ لم يستطع أن يقول ما يوفيك حقك».

وبالطبع، سرني سماع هذا المديح. كنت ماهرًا دائمًا في أعمال المكتب. ولكني لم أحلم قَطُّ بأن يتكلم عني أحد في المدينة على ذلك النحو.

قال: «أذاكرتك حافظة؟». قلت بتواضع: «متوسطة». «هل اتصلت بأمور السوق وأنت بغير عمل؟». «نعم، كنت أقرأ قائمة بورصة الأوراق المالية في كل صباح». فصاح يقول: «إذن، فهذا يوضح عملًا حقيقيًّا، هذا هو الطريق إلى الازدهار! هل تمانع في أن أختبرك؟ ماذا عن أسهم شركة «إيرشايرز»؟». قلت: «مائة وخمسون إلى مائة وخمسة وربع». «وشركة «نيوزيلاند المتحدة»؟». «مائة وأربعة». «و«بروكلين هيلز» البريطانية؟». «سبعة إلى سبعة وستة». فصاح رافعًا يديه، وقال: «رائع. هذا يتفق مع كل ما سمعته، يا بني! يا بني، أنت أكثر من أن تعمل كاتبًا في مؤسسة «موسون»!».

أدهشني قوله هذا، كما يمكنك أن تتصور. فقلت: «ليس رأي الآخرين فيَّ كبيرًا مثل رأيك يا «مستر بينر». ناضلت كثيرًا للحصول على تلك الوظيفة، وسرني جدًّا أنني حصلت عليها». «ويحك، يا رجل! يجب أن تُحلق في جو أعلى من ذلك. لست في مركزك الحقيقي. والآن، سأخبرك بمركزك عندي. ليس ما سأعرضه عليك كافيًا إذا قيس بمقدرتك، ولكنه إذا قيس براتب «موسون»، فهو النور بالنسبة إلى الظلام. ولننظر في الأمر! متى ستذهب إلى مؤسسة «موسون»؟». «يوم الاثنين». «ها! ها! أعتقد أنني أخاطر بالقول بأنك لن تذهب إلى هناك إطلاقًا». «لا أذهب إلى مؤسسة «موسون»؟». «طبعًا، لن تذهب إليها، يا سيدي. في ذلك اليوم ستكون مدير أعمال شركة «فرانكو-ميدلاند ليمتد»، للأدوات المنزلية، ذات المائة والأربعة والثلاثين فرعًا في المدن والقرى الفرنسية، غير فرع بروكسل وآخر في سان ريموه».

أبهر هذا أنفاسي. قلت: «لم أسمع عن هذه الشركة إطلاقًا». «طبعًا، لم تسمع عنها، لأنها تأسست في هدوء وجمع رأس المال من أناس معينين. ومن الخير أن نجعل الجمهور يشترك فيها. من مؤسسيها أخي «هاري بينر»، الذي اختاره مجلس الإدارة مديرًا عامًّا لهذه الشركة. وهو يعرف

أنني على دراية بالأمور هنا، فطلب مني أن أبحث عن رجل قدير، بأجر بسيط - شاب طموح بالغ الكفاءة. فحدثني عنك «باركر»، وهذا هو ما جاء بي إلى هنا في هذه الليلة. ليس في مكنتنا إلا أن نعرض عليك مبلغًا بسيطًا، خمسمائة جنيه في السنة، في البداية...». صحت أقول: «خمسمائة في العام؟». «هذا في البداية فقط، كما لك عمولة واحد في المائة على كل الأعمال التي يقوم بها وكلاؤك. ويمكنك أن تعتمد على كلامي، بأن هذه العمولة ستصل إلى أكثر من راتبك». «ولكني لا أعلم شيئًا عن الأدوات المنزلية». «صه، يا بني! أنت تعلم عن الأرقام».

اضطرب رأسي، وقلما استطعت الجلوس على مقعدي. غير أن موجة حادة من الشك انتابتني فجأة، فقلت: «يجب أن أكون صريحًا معك، يا سيدي. فرغم أن «موسون» يعطيني مائتي جنيه فقط، فإنه مضمون. والحقيقة أنني لا أعرف شيئًا عن شركتك التي...». صاح في شيء من البهجة: «رائع، رائع! هذا هو نوع الرجل الذي نريده بالذات! لست بالرجل الذي يغتر بمعسول الألفاظ، وإنك لعلى حق. هاك ورقة مالية بمائة جنيه. فإذا رأيت أننا من الممكن أن نعمل معًا، فضعها في جيبك كمقدم لراتبك». قلت: «هذا جميل. متى أتسلم عملي الجديد؟». قال: «تكون في هذه الساعة الواحدة من مساء غد في برمنجهام. وفي جيبي خطاب ستأخذه إلى أخي. ستجده في رقم 126 ب شارع كوربوريشن حيث توجد المكاتب الجديدة لشركتنا. وبالطبع، لا بد أن يعتمد أخي عقد العمل بيننا». قلت: «الحقيقة أنني لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري، يا «مستر بينر»». «هذا لا شيء، يا بني. لم تحصل إلا على ما تستحقه. وهناك شيء صغير أو شيئان - مجرد رسميات - يجب أن أسويهما معك. بجانبك هناك قطعة من الورق، أرجو أن تكتب فيها بعناية: «أرغب تمامًا في أن أعمل في منصب «مدير أعمال» لشركة «فرانكو-ميدلاند ليمتد» للأدوات المنزلية، براتب ابتدائي قدره خمسمائة جنيه في العام»».

ولما انتهيت من كتابة ما أملاه عليَّ، أخذ الورقة ووضعها في جيبه. قال: «هناك موضوع واحد. ماذا تنوي أن تفعل مع مؤسسة «موسون»؟».

نسيت، في غمرة فرحي، كل شيء عن «موسون». فقلت: «سأكتب لهم استقالة». «هذا، بالضبط، هو ما لا أريدك أن تفعله. تحدثت بخصوصك مدة طويلة مع مدير مؤسسة «موسون»، وسألته عنك، فكان رده مهينًا، اتهمني بأنني أغريتك لتترك خدمة مؤسسته، ثم أرغى وأزبد وثار. وأخيرًا، فقدت صوابي وخرجت عن طوري، فقلت له: «إذا أردت رجالًا أكفاء في عملك، فلا بد أن

تدفع لهم أجورًا مجزية». فقال: «الأفضل لـ«بايكروفت» أن يقبل بأجرنا القليل من أن يأخذ أجرك الكبير». فقلت له: «أراهنك على ورقة بخمسة جنيهات، على أنه إذا عرف «بايكروفت» عرضي، فلن تراه بعد ذلك». قال: «انتهينا! نحن انتشلناه من البالوعة فلن يتركنا بمثل هذه السهولة». هذا نص كلماته».

فصحت أقول: «يا له من نذل وقح! لم أرَه قبل ذلك في حياتي. فلماذا أعمل له اعتبارًا، بحالٍ ما؟ وبالتأكيد لن أكتب إليه إذا كنت تفضل ألا أكتب إليه». قال وهو ينهض من فوق الكرسي: «حسنًا! هذا وعد! كم أنا مسرور أن أحصل لأخي على رجل بارع قدير مثلك. هاك المائة جنيه مقدم الراتب، وهاك الخطاب. خذ مذكرة بالعنوان: 126 ب شارع كوربوريشن. وتذكر أن موعدك هو الساعة الواحدة من مساء غد. عِم مساء، وعسى أن تنال كل ما تستحقه من ثروة!».

هذا، تقريبًا، هو كل ما دار بيننا بالضبط بحسب ما يمكنني أن أتذكر. ويمكنك أن تتصور، يا دكتور «واطسون»، كم غمرني الفرح بوقوعي على مثل هذا الحظ السعيد. بقيت، نصف الليلة، جالسًا أفكر في ذلك الأمر. وفي اليوم التالي، ركبت القطار إلى برمنجهام، الذي يوصلني قبل الميعاد بمدة طويلة. فلما وصلت إلى هناك، أخذت أمتعتي إلى الفندق في نيو ستريت، ثم ذهبت إلى العنوان الذي أُعطيته.

وصلت إلى ذلك العنوان قبل موعدي بربع ساعة، ولكني ظننت هذا أمرًا غير ذي بال، كان رقم 126 ب ممرًّا بين متجرين يؤدي إلى سلم حجري لولبي يوصل إلى عدة شقق مؤجرة، كمكاتب، إلى بعض الشركات وأرباب المهن الحرة. وكتبت أسماء شاغلي تلك الشقق على الحائط السفلي، ولكن لم يكن هناك اسم شركة «فرانكو-ميدلاند ليمتد» للأدوات المنزلية. وقفت هناك بضع دقائق وقد ثبطت همتي، وأخذ الحزن يتطرق إلى قلبي، وبدأت أفكر فيما إذا كان الموضوع مجرد نصب متقن. وبينما أنا أفكر في ذلك، أقبل رجل وخاطبني باسمي. إنه يشبه الشاب الذي زارني في الليلة الماضية، تمام الشبه: الشكل نفسه والصوت نفسه، ولكنه كان حليق اللحية وشعره أزهى من شعر ذاك.

سألني بقوله: «هل أنت «المستر هول بايكروفت»؟». قلت: «نعم». «أنا بانتظارك، ولكنك جئت قبل الموعد بوقت قليل. وصلني خطاب من أخي، في هذا الصباح، يثني فيه على مواهبك ثناء

عاطرًا». «كنت أبحث عن المكتب، فإذا بك أقبلت». «لم يُكتب اسمنا هنا لأننا لم نستأجر هذا المبنى إلا في الأسبوع الماضي فقط. هيا، يا صديقي، سنتحدث في الموضوع من مختلف نواحيه».

فتبعته إلى قمة السلم بالغ الارتفاع. كانت مكاتب هذه الشركة عبارة عن حجرتين خاويتين ومغبرتين، ليست فيهما أبسطة ولا ستائر، فقادني إليهما. كنت أتصور مكاتب الموظفين هذه، ضخمة وبها مناضد لامعة وصفوف من الموظفين، كالتي تعودتها من قبل. فنظرت إلى الكرسيين الخشبيين والنضد الواحد الصغير الذي وضع فوقه دفتر كبير، وعلى الأرض بجانب المكتب سلة للمهملات. هذا هو كل أثاث المكتب.

لما أبصر صديقي الجديد أمارات الاكتئاب بادية على وجهي، قال: «لا تكتئب يا «مستر بايكروفت». لم تُبنَ روما في يوم واحد. لدينا مبالغ كثيرة من الأموال، ولم تعتمد بعدُ مبالغ كبيرة لتأثيث المكاتب. أرجوك أن تجلس وتعطيني خطابك».

أعطيته الخطاب، فقرأه كله بإمعان. «يبدو أنك أحدثت انطباعًا عميقًا في نفس أخي «آرثر»، وأعرف أنه سديد الحكم في مثل هذه الأمور. إنه يقسم بلندن، كما أقسم أنا ببرمنجهام، ولكني سأتبع نصحه في هذه المرة. أرجو أن تعتبر نفسك مقبولًا نهائيًّا». فقلت: «وما هي واجباتي؟». «ستدير المكتب الكبير في باريس، الذي سيتدفق منه سيل ضخم من الأدوات الخزفية الإنجليزية إلى حوانيت مائة وأربعة وثلاثين وكيلًا في فرنسا. سيتم الشراء في أسبوع. وفي هذه الأثناء، ستبقى في برمنجهام لننتفع بك هنا». «كيف؟».

وردًّا على سؤالي، أخرج كتابًا ضخمًا أحمر اللون من درج، وقال: «هاك دليل باريس وبه الصناعات والمهن بعد أسماء الأشخاص. أريدك أن تأخذه معك إلى منزلك وتكتب قوائم بجميع بائعي الأدوات المنزلية وعناوينهم. سأجد منفعة كبرى فيهم». قلت: «من المؤكد أن هناك قوائم مبوبة». «نعم، ولكن لا يُعتمد عليها لأن طريقتهم تختلف عن طريقتنا. افعل كما أخبرتك، وأحضِر لي القوائم في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين، وأسعد الله نهارك، يا «مستر بايكروفت». وإذا داومت على إبداء الذكاء وبذل الجهد، فستجد الشركة سيدًا طيبًا جدًّا».

رجعت إلى الفندق وتحت ذراعي ذلك الكتاب الكبير، وتعتمل في صدري مشاعر متضاربة. فمن ناحية تسلمت عملي نهائيًّا وفي جيبي مائة جنيه. ومن ناحية أخرى، ترك منظر المكاتب، وعدم

وجود اسم الشركة على الحائط، وعدة نقاط أخرى، انطباعًا سيئًا في نفس رجل أعمال، عن مركز مخدومي. ومع ذلك، فليكن ما سوف يكون، ما دمت أخذت نقودي. وهكذا ظللت منكبًّا على العمل بجد طوال يوم الأحد. ومع ذلك، ففي يوم الاثنين لم أكن قد وصلت إلا إلى حرف «د». فذهبت إلى مخدومي يوم الاثنين، فوجدته في الحجرة غير المرتبة نفسها، فأخبرني بأن أستمر في ذلك العمل حتى يوم الأربعاء. ومع ذلك، فلم ينتهِ العمل بعد، ولذا أمهلني إلى يوم الجمعة، أي أمس. فأخذت ما أنجزته إلى «المستر هاري بينر».

قال: «أشكرك كثيرًا. أخشى أنني لم أقدر صعوبة هذا العمل. ستكون هذه القوائم ذات عون هام لي». قلت: «استغرقت بعض الوقت». قال: «والآن، أريدك أن تعمل قائمة بحوانيت الأثاث، لأنها جميعًا تبيع أدوات منزلية». «حسنًا جدًّا». «ويمكنك أن تأتي غدًا مساء في الساعة السابعة لتريني إلى أين وصلت. لا تجهد نفسك بالعمل، فإن ساعتين يوميًّا في قاعة موسيقى، في المساء، لن تضرك بعد عملك». وكان يضحك وهو يتكلم. ولكن ما أثار الشكوك في نفسي، أنني أبصرت وهو يضحك، سنه الثانية من الجانب الأيسر محشوة بالذهب حشوًا رديئًا.

فرك «شرلوك هولمز» يديه مسرورًا، وحملقت في زبوننا مدهوشًا.

قال:

ـ وقد تبدو مدهوشًا، يا دكتور «واطسون»، ولكن الأمر هكذا. فعندما كنت أتحدث إلى الرجل الأول في لندن، أبصرت داخل فمه وهو يضحك السن الثانية محشوة بالذهب بطريقة مماثلة لهذه تمامًا، ولاحظت بريق الذهب في كلتا الحالين، كما تعلم. فلما وضعت النقط على الحروف: الصوت نفسه، والشكل نفسه والحجم والارتفاع دون تغير باستثناء الشعر واللحية، وهذان من السهل تغييرهما بموسى أو بباروكة، لم أعد أشك في كونه الرجل نفسه. فبالطبع يتوقع المرء أن يكون أخوان من شبه واحد، ومن الممكن أن يكونا من الشكل والحجم أنفسهما، وقلما يكون لهما الصوت نفسه. ولكن السن المحشوة نفسها أمر مستحيل ولا سيما بالذهب بالطريقة نفسها. انحنى لي بالتحية مودعًا، فوجدت نفسي في الطريق قلما أعلم ما إذا كنت واقفًا على رأسي أم على عقبي. فرجعت إلى فندقي حيث وضعت رأسي في حوض الماء البارد، وحاولت التفكير في هذا الأمر المحير: لماذا أرسلني من لندن إلى برمنجهام؟ ولماذا ذهب إلى هناك قبلي؟ ولماذا كتب خطابًا من نفسه إلى نفسه؟ ولماذا لا يوجد اسم الشركة على الحائط مثل غيرها؟ ولماذا المكاتب من دون أثاث؟ كان هذا كثيرًا

عليَّ، ولم أستطع فهم معناه. وبينما أنا في دوامة من التفكير، طرأ على بالي فجأة أن ما يكون مظلمًا عليَّ، سيكون نيرًا واضحًا على «المستر شرلوك هولمز». وما زال عندي وقت لأذهب إلى لندن بقطار الليل لأراه في هذا الصباح، وأعود معكما إلى برمنجهام.

بعد أن حكى كاتب سمسار الأوراق المالية حكايته المدهشة، ساد السكون فترة. ثم اتجه «شرلوك هولمز» بعينه نحوي، واستند إلى الخلف على الوسائد بوجه مبتهج ناقد، كما يفعل خبير تذوُّق الخمور عندما يأخذ أول رشفة من نبيذ ما.

فقال «شرلوك هولمز»:

ـ يا لها من قضية ممتعة يا «واطسون»، أليست كذلك؟ بها نقاط تسرني. أظنك توافقني على أن مقابلة مع «مستر آرثر بينر» في المكاتب المؤقتة لشركة «فرانكو-ميدلاند ليمتد» للأدوات المنزلية ستكون ممتعة لكلينا.

فسألته:

ـ ولكن كيف نقوم بها؟

فقال «هول بايكروفت» مبتهجًا:

ـ الأمر في غاية السهولة، أنتما صديقاي بحاجة إلى عمل، وماذا يكون طبيعيًّا أكثر من أن آخذكما إلى المدير العام للشركة؟

فقال «هولمز»:

ـ هو كذلك بالضبط. أريد أن أرى ذلك الرجل لأعرف ما إذا كان بمقدوري أن أستنتج شيئًا من لعبته الصغيرة. أي صفات أو ميزات لك يا صديقي تجعل خدماتك ذات نفع أو قيمة؟ أو هل من الممكن أن...؟

ثم أخذ يقرض أظفاره وينظر إلى خارج النافذة، وقلما حصلنا منه على كلمة أخرى حتى صرنا في نيو ستريت.

وفي الساعة السابعة مساء، كنا، نحن الثلاثة، نسير في شارع كوربوريشن، إلى مكاتب تلك الشركة.

فقال زبوننا:

ـ لا فائدة إطلاقًا من أن نذهب قبل الميعاد، إذ يبدو أنه لا يذهب إلى هناك إلا ليراني، لأن المكان يظل مهجورًا إلى الساعة التي يحددها لمقابلتي.

فأبدى «هولمز» ملاحظته يقول:

ـ هذا يفسر شيئًا ما.

فصاح الكاتب:

ـ أقسم بـ«جوف» أنني أخبرتكما هكذا. ها هو يسير أمامنا هناك.

قال هذا وأشار إلى رجل أشقر الشعر، قصير القامة، حسن الهندام، يهرول مسرعًا في الجانب الآخر من الطريق. وبينما نحن نلاحظ كل حركاته، نظر إلى غلام كان يصيح بأعلى صوته قائلًا: «آخر طبعة من الصحف المسائية»، فجرى صاحبنا بين العربات والأتوبيسات واشترى منه صحيفة، ثم أمسكها في يده واختفى داخل باب.

فصاح «هول بايكروفت» يقول:

ـ لقد دخل باب مكاتب الشركة. تعاليا معي وسأسوي كل شيء بسهولة قدر الإمكان.

تبعنا قائدنا وصعدنا خمسة طوابق حتى وجدنا أنفسنا خارج باب نصف مفتوح، فطرقه «المستر بايكروفت»، فأمرنا صوت من الداخل يقول:

ـ ادخل!

فدخلنا حجرة خاوية من الأثاث كما وصفها «هول بايكروفت» تمامًا، وكان الرجل الذي أبصرناه في الطريق جالسًا أمام النضد الوحيد في الحجرة، وأمامه الصحيفة المسائية مفتوحة. فلما اتجه ببصره نحونا، بدا لي أنني لم أشاهد في حياتي وجهًا كوجهه تتجلى عليه أمارات الحزن

والخوف والفزع الذي يطرأ على الناس في حياتهم. وكان العرق يلمع فوق جبينه، وصار خداه بلون أبيض باهت كلون بطن السمكة، وجحظت عيناه وحملقتا فينا، ثم نظر إلى موظفه كما لو أنه لا يعرفه. وكان بوسعي أن أستشف من الدهشة التي ارتسمت على وجه قائدنا، أن هذا ليس، بحال ما، منظر مخدومه.

فقال مدهوشًا:

ـ تبدو مريضًا، يا «مستر بينر»!

فأجاب الآخر وهو يجهد نفسه في أن يستعيد رباطة جأشه، ولعقَ شفتيه قبل أن يتكلم، قائلًا:

ـ نعم، لست بصحة جيدة. من هذان السيدان اللذان أحضرتهما معك؟

فأجاب الكاتب بسرعة، يقول:

ـ هما صديقاي. هذا هو «المستر هاريس» من برموندسي، وهذا «مستر برايس» من سكان هذه المدينة. لهما خبرة كبرى، ولكنهما متعطلان منذ وقت قريب ويأملان في أن يجدا عملًا في هذه الشركة.



اتجه ببصره نحونا

فقال «المستر بينر» مبتسمًا:

ـ ممكن جدًّا! ممكن جدًّا! نعم، من المؤكد أننا سنتمكن من أن نفعل لكما شيئًا. ما هو اختصاصك، يا «مستر هاريس»؟

قال «هولمز»:

ـ أنا محاسب.

ـ عظيم، نحن بحاجة إلى شيء من هذا النوع. وأنت يا «مستر برايس»؟

قلت:

ـ أنا كاتب.

ـ لي أمل كبير في أن يكون بمقدور الشركة أن تستوعبكما. وسأخبركما بمجرد أن نصل إلى أي نتيجة. والآن، أرجو أن تنصرفوا. اتركوني وشأني، إكرامًا لخاطر الله!

قال هذه العبارة الأخيرة بطريقة كأن الكبت الذي فرضه على نفسه قد انفجر فجأة عن آخره. فتبادلت النظرات مع «هولمز»، وتقدم «هول بايكروفت» خطوة نحو النضد.

قال «بايكروفت»:

ـ نسيت، يا «مستر بينر»، أنني هنا بناء على موعد لأتلقى منك التعليمات.

فقال «المستر بينر» في نغمة أكثر هدوءًا:

ـ طبعًا يا «مستر بايكروفت»، طبعًا، بوسعك البقاء هنا لحظة، وليس هناك ما يمنع انتظار صديقيك معك هنا. سأكون في خدمتك بعد ثلاث دقائق، إن صح لي أن أعتدي على صبرك لهذه المدة.

قال هذا ونهض من مقعده، منحنيًا لنا وهو يعبر بابًا في الجانب البعيد من الحجرة، وأقفله خلفه.

فهمس «هولمز» يقول:

ـ وماذا الآن، هل أفلت منا؟

فقال «بايكروفت»:

ـ مستحيل.

ـ ولماذا مستحيل؟

ـ لأن هذا الباب يؤدي إلى حجرة داخلية.

ـ هل يوجد بها مخرج؟

ـ أبدًا.

ـ وهل فيها أثاث؟

ـ كانت خاوية على عروشها، بالأمس.

ـ إذن، فأي شيء، يا ترى، يمكن أن يعمل بتلك الحجرة؟ هناك شيء لا أفهمه في هذا الموضوع. لو وُجد يومًا رجل جعله الفزع ثلاثة أرباع مجنون، فإن اسم هذا الرجل هو «بينر». ماذا يدعوه لأن يرتجف؟

قلت:

ـ اشتبه في أن نكون من البوليس السري.

فقال «بايكروفت»:

ـ هو كذلك.

هز «هولمز» رأسه، وقال:

ـ لم يمتقع لونه. هو كان شاحب اللون عندما دخلنا الحجرة. من الممكن أنه...

وبينما «هولمز» يتكلم، قطع عليه كلامه صوت طرق في اتجاه الباب الداخلي.

فصاح الكاتب يقول:

ـ لماذا، بحق الشيطان، يطرق بابه هو نفسه؟

ومرة أخرى سمعنا صوت الطرق، ولكنه كان أعلى من السابق. فنظرنا جميعًا متلهفين ناحية الباب المقفل. ولما نظرت إلى «هولمز» ألفيت وجهه متصلبًا، وانحنى إلى الأمام في انفعال شديد. وفجأة جاء صوت غرغرة وحشرجة وصوت طرق على الأخشاب. فقفز «هولمز» مذعورًا، عبر الحجرة، ودفع الباب. كان مقفلًا من الداخل. فحذونا حذوه واندفعنا جميعًا بكل ثقلنا على الباب، فتداعت إحدى مفصلاته ثم تداعت الأخرى وسقط الباب على الأرض محدثًا صوتًا. فاندفعنا فوقه إلى الحجرة الداخلية.

كانت خاوية.

ولم تمضِ لحظة حتى أدركنا خطأنا. ففي أحد أركان الحجرة القريب من الحجرة التي غادرناها، باب ثانٍ، فقفز إليه «هولمز» وجذبه، فانفتح. وجدنا على الأرض سترة وصدرة، ومن خطاف خلف الباب يتدلى جسم المدير العام لشركة «فرانكو-ميدلاند ليمتد»، مشنوقًا بحمالات بنطلونه، وقد رفع ركبتيه وتدلى رأسه على جسمه بزاوية مفزعة، وكان تأرجح عقبيه هو الذي أحدث على الباب ذلك الصوت الذي سمعناه ونحن نتكلم. وفي لحظة، طوقت وسطه بذراعيَّ ورفعته إلى أعلى، بينما حل «هولمز» و«بايكروفت» الأربطة المطاطية التي اختفت بين ثنيات جلده، ثم حملناه إلى الحجرة



فاندفعنا فوقه إلى الحجرة الداخلية

الأخرى حيث رقد بوجه في لون الأردواز، يحرك شفتيه الأرجوانيتين إلى الداخل وإلى الخارج، مع كل حركة تنفس. ولو تأخرنا خمس دقائق، لصار حطامًا مفزعًا.

فقال «هولمز»:

ـ ما رأيك فيه، يا «واطسون»؟

انحنيت فوقه، وفحصته. كان نبضه ضعيفًا ومتقطعًا، ولكن تنفسه صار أطول، وجفناه يرتعشان قليلًا، وتبدَّى خط رفيع أبيض لمقلتيه تحتهما.

قلت:

ـ انتابته موجة ذعر، ولكنه سيعيش، افتحا تلك النافذة، وناولاني دورق الماء ذاك.

فحللت ياقته، وصببت الماء البارد على وجهه، ورفعت ذراعيه وخفضتهما لإحداث تنفس صناعي إلى أن صار تنفسه طبيعيًّا وطويلًا.

قلت وأنا أبتعد عنه:

ـ إنها مسألة وقت.

وقف «هولمز» إلى جانب النضد، واضعًا يديه عميقًا في جيبَي بنطلونه، وذقنه على صدره.

قال «هولمز»:

ـ أظن أنه يجب علينا أن نستدعي البوليس إلى هنا الآن. أود أن أعطيهم قضية كاملة عندما يحضرون.

فصاح «بايكروفت» وهو يحك رأسه:

ـ هذا لغز غامض على فهمي. ماذا جعلهم يأتون بي إلى هنا طوال تلك المسافة، ثم...

فقال «هولمز» في نفاد صبر:

ـ واعجباه! الأمر واضح بيِّن. إنها هذه الحركة الأخيرة الفجائية التي أوضحت كل شيء.

ـ إذن، فقد فهمت الباقي؟

ـ أظن هذا واضحًا تمامًا. ماذا تقول يا «واطسون»؟

هززت كتفي. قلت:

ـ يجب أن أعترف بأنني لا أعرف شيئًا.

ـ بالطبع، إذا تتبعت الأحداث من أولها، أمكنك أن تجدها تشير كلها إلى نتيجة واحدة.

ـ ماذا تستنتج منها؟

ـ يدور الموضوع كله حول نقطتين: الأولى أنهم جعلوا «بايكروفت» يكتب طلبًا للدخول في خدمة هذه الشركة المزعومة. ألا ترى ما يدل عليه هذا؟

ـ أخشى أنني لا أعرف الهدف.

ـ إذن، فلماذا أرادوه أن يكتبه؟ ليس كموضوع عمل، إذ عادة ما تكون هذه الترتيبات شفوية، وما من سبب يستدعي استثناء هذا. ألا ترى، يا صديقي الصغير، أنهم كانوا متلهفين جدًّا إلى الحصول على عينة من خطك، وليست لديهم طريقة أخرى يمكنهم بها أن يحصلوا على تلك العينة؟

ـ ولماذا؟

ـ هكذا بالضبط. لماذا؟ عندما نُجيب عن هذا السؤال نكون قد تقدمنا بمشكلتنا الصغيرة. لماذا؟ هناك سبب ملائم واحد. أراد شخص ما أن يتعلم محاكاة خطك، فلا بد له من الحصول على عينة منه. والآن، إذا انتقلنا إلى النقطة الثانية نرى أن كلًّا من النقطتين تلقي ضوءًا على الأخرى. هذه النقطة هي الطلب الذي تقدم به «بينر» وأصر على ألا تستقيل من منصبك، وتترك مدير هذه الشركة الهامة ينتظر قدوم «مستر هول بايكروفت»، الذي لم يره قَطُّ في صباح يوم الاثنين.

فصاح «بايكروفت» يقول:

ـ رحماك، يا إلهي! كم كنت خنفساء عمياء!

ـ والآن، أنت تفهم غرضه من خطك. افرض أن شخصًا تقدم ليشغل مكانك وكان خطه يختلف عن الخط الذي كتبت به طلب التقدم لهذه الوظيفة، عندئذ تنكشف لعبته. فأخذ ذلك الوغد يتعلم محاكاة خطك، وهو بطبيعته ماهر في التزييف، وبذا كان مركزه مضمونًا، ما في هذا شك، إذ لم تقع عين أي شخص في المكتب عليك من قبل.

فصاح «هول بايكروفت» يقول:

ـ ما من أحد هناك رآني.

ـ حسنًا جدًّا. بالطبع كان من الأهمية القصوى منعك من التفكير في ذلك الأمر مرة أخرى، وكذلك منعك من الاتصال بأي شخص يمكن أن يخبرك بأن شخصًا آخر انتحل اسمك وشغل

وظيفتك هناك في مكتب «موسون». لذا أعطوك مقدم راتبك وأرسلوك بعيدًا عن لندن إلى ميلاندز، حيث كلفوك بعمل كافٍ يمنعك السفر إلى لندن حيث يمكنك إحباط لعبتهم. هذا واضح جدًّا.

ـ ولكن لماذا يدعي هذا الرجل أنه أخوه؟

ـ هذا واضح جدًّا. فمن الجلي أنهما اثنان لا ثالث لهما: أحدهما يمثلك في مكتب «موسون»، وهو الذي قام بدور تعيينك. ثم وجد أنه لن يستطيع إيجاد من يمثل مدير الشركة بغير إشراك شخص ثالث في المؤامرة، وهو لا يريد هذا إطلاقًا. فغير شكله قدر الإمكان واثقًا من أنك قد تعزو الشبه إلى تشابه الأسرة. ولكن مسألة السن المحشوة بتلك الطريقة هي التي جعلتك تشتبه في الأمر، ومن دونها ما كنت لترتاب في أي شيء على الإطلاق.

هز «هول بايكروفت» يديه في الهواء وصاح يقول:

ـ أيها الإله الرحيم! ماذا كان يفعل «هول بايكروفت» المزيف لدى «موسون»، وأنا مخدوع هنا؟ ماذا يجب علينا أن نفعله الآن، يا «مستر هولمز»؟ أرجوك أن تخبرني ماذا أفعل.

ـ يجب أن ترسل برقية إلى «موسون».

ـ يقفل «موسون» أبوابه في الساعة الثانية عشرة ظهرًا في أيام السبت.

ـ لا بأس. قد يكون هناك بواب أو خادم.

ـ نعم، هناك حارس باستمرار، ليلًا ونهارًا، بسبب قيمة الودائع التي عندهم. سمعت الناس يتحدثون عن ذلك في المدينة.

ـ حسنًا جدًّا. سنرسل لهم برقية ونرى ما إذا كان كل شيء على ما يرام، وما إذا كان كاتب يعمل لديهم منتحلًا اسمي. هذا في غاية الوضوح، ولكن الشيء غير الواضح هو: لماذا أسرع أحد هذين الوغدين، بمجرد أن أبصرنا، فنهض في الحال وشنق نفسه؟

فصاح صوت خلفنا يقول:

ـ الصحيفة!

كان الرجل جالسًا ممتقع اللون يرتجف خوفًا لسبب واضح في عينيه، ويداه تفركان بعصبية على الشريط الأحمر العريض الذي ما زال يحيط برقبته.

فصاح «هولمز» يقول:

ـ الصحيفة! بالطبع! كم كنت غبيًّا. كنت أحصر ذهني في زيارتنا ولم يطرأ على بالي أمر الصحيفة إطلاقًا.

فنشرها فوق النضد وصاح صيحة الانتصار، خرجت من شفتيه، فقال:

ـ انظر إلى هذا، يا «واطسون». هذه صحيفة لندنية، طبعة مبكرة من «الإيفننج ستاندارد». هاك ما نريده. انظر إلى العناوين: «جريمة في المدينة. جريمة قتل في مؤسسة «موسون ووليامز». محاولة سرقة ضخمة. القبض على المجرم». نحن متلهفون جميعًا إلى سماعها يا «واطسون». اقرأها لنا بصوت عالٍ من فضلك.

بدا من مكانها في الصحيفة، أنها الحادثة الوحيدة الهامة. جرت كالآتي:

محاولة جريئة للسرقة انتهت بمقتل رجل والقبض على الجاني بعد ظهر اليوم في المدينة. فمنذ زمن بعيد، ومؤسسة «موسون ووليامز»، الدار المالية الشهيرة، تتقبل ودائع وصل إجمالي قيمتها أخيرًا إلى أكثر من مليون جنيه إسترليني. وكان المدير يدرك تمامًا المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه المصالح العظمى المعرضة للخطر، فاستخدم خزائن من أحدث ما وصل إليه فن صناعة الخزائن وعيَّن لحراستها حارسًا مسلحًا، ليلًا ونهارًا، داخل المبنى. ويبدو أن موظفًا جديدًا اسمه «هول بايكروفت»، عُين في الأسبوع الماضي. ولم يكن هذا الموظف سوى اللص والمزيف الشهير «بدنجتون»، الذي خرج لتوه من السجن هو وأخوه بعد أن قضيا خمس سنوات. ونجح بطريقة ما، لم تُكتشف بعد، في الحصول على وظيفة بالمكتب تحت اسم مستعار، لكي يحصل على قوالب لمختلف الأقفال، ويلم إلمامًا تامًّا بحجرة الودائع، وبالخزائن.

جرت العادة في مؤسسة «موسون» أن ينصرف الموظفون في الظهر، كل يوم سبت. ففوجئ الجاويش «طوسون» التابع لبوليس المدينة، برجل يحمل كيسًا من السجاد ويهبط السلم، في الساعة 1.20 مساءً. فأثيرت شكوكه، فطارده بمساعدة الكونستابل «بولوك» بعد مقاومة عنيفة حتى

قبضا عليه. وكان من الجلي لهما أن الرجل قام بسرقة عظمى تبين فيما بعد أنها تتضمن ما قيمته نحو مائة ألف جنيه من أسهم السكة الحديدية الأمريكية، وكمية كبيرة من سندات المناجم والشركات الأخرى، وجدت كلها داخل ذلك الكيس.

وبفحص المبنى، وجدت جثة الحارس مطوية داخل أضخم الخزائن. وما كانت لتكتشف قبل صباح يوم الاثنين لولا يقظة الجاويش «طوسون» وعمله السريع. هشم رأس الحارس بضربة من الخلف بقضيب حديدي. لا شك في أن «بدنجتون» دخل المبنى ثانية بحجة أنه نسي شيئًا هناك ورجع ليأخذه. فقتل الحارس وجمع بسرعة محتويات الخزانة الكبرى وفر بغنيمته. أما أخوه، الذي كان يعمل معه دائمًا، فلم يظهر معه في هذه العملية حسب المعلومات التي لدينا، إلى الآن. ويبذل البوليس جهودًا مكثفة لمعرفة مكانه.

فقال «هولمز» وهو ينظر إلى الرجل المكوم بجانب النافذة:

ـ إذن، فبوسعنا أن نكفي البوليس مؤونة البحث عنه. طبيعة الإنسان خليط غريب، يا «واطسون». فهأنتذا ترى أن نذلًا قاتلًا يمكن أن يثير المحبة لدرجة أن ينتحر أخوه، أو يحاول الانتحار، عندما يعلم أن حبل المشنقة سيلتف حول رقبته. وعلى أي حال، لا خيار لنا الآن.

سأبقى أنا والدكتور «واطسون» هنا لحراسته، بينما تتكرم أنت يا «مستر بايكروفت» بإخطار البوليس.

«جلوريا سكوت»

قال صديقي «شرلوك هولمز» ونحن جالسان في إحدى ليالي الشتاء على كلا جانبَي الوطيس:

ـ معي بعض الأوراق، يا «واطسون»، أظن بحق أنك يجب أن تتصفحها بإمعان. هاك مستندات القضية الغريبة للسفينة «جلوريا سكوت»، وهذه هي الرسالة التي أفزعت القاضي «تريفور»، وجعلته ينتفض فرَقًا وهولًا حينما قرأها.

أخرج «هولمز» أسطوانة صدئة من درج، وحل الشريط وأعطاني مذكرة قصيرة، مكتوبة في نصف فرخ من الورق رمادي اللون.

تقول تلك المذكرة:

> يسير توريد طيور الصيد إلى لندن سيرًا متصلًا. طُلب من «هدسون»، رئيس الحرس، أن يتسلم جميع الطلبات لأوراق الذباب، وللمحافظة على حياة دجاجات الدراج الخاصة بك.

عندما رفعت بصري بعد قراءة هذه الرسالة الغامضة المنطوية على لغز أو شفرة، رأيت «هولمز» يضحك ملء شدقيه لما بدا على وجهي من ملامح معبرة من الدهشة والاستغراب.

قال «هولمز»:

ـ أراك مرتبكًا قليلًا.

قلت:

ـ لا يمكنني أن أفهم كيف أن رسالة كهذه، تستطيع أن توحي بالفزع. تبدو لي نوعًا من الخزعبلات أكثر من أي شيء آخر.

ـ من الممكن أن تكون كذلك، ولكن قارئها، الذي كان رجلًا مسنًّا قوي البنية، انهار عند قراءتها كما لو أنه ضرب بكرنافة مسدس.

قلت:

ـ إنك لتثير فضولي، يا «هولمز». ولكن لماذا قلت، الآن فقط، إن هناك سببًا قويًّا يدعوني لأن أدرس هذه القضية؟

ـ لأنها أول قضية تناولتها في حياتي.

كثيرًا ما حاولت أن أعرف من صديقي أول شيء حوَّل ذهنه إلى جهة الأبحاث الخاصة بالجرائم، بيد أنني أخفقت في إيقاعه تمام الإخفاق، ولا حتى بدعابات الحديث. فجلس على مقعده ذي المتكأَين ونشر المستندات فوق ركبتيه، ثم أشعل غليونه وجلس يدخن بعض الوقت وهو يقلبها بين يديه.

قال:

ـ ألم تسمعني قَطُّ أتكلم عن «فيكتور تريفور»؟ إنه الصديق الوحيد الذي صادقته إبان السنتين اللتين قضيتهما في الكلية. لم أكن قَطُّ رجلًا اجتماعيًّا جدًّا، يا «واطسون»، ولكنني كنت أفَضل دائمًا أن أمسح أرض شقتي، وأزاول طرق تفكيري الخاصة. ولذا، لم أختلط إطلاقًا مع رجال فرقتي. شغفت بقليل من أوجه الرياضة، كالشيش والملاكمة. ثم إن موضوع دراستي، كان يختلف تمامًا عن مواضيع دراسات غيري. لذا، لم يكن بيننا أي نقط توجب اتصالنا معًا. وكان «تريفور» هو الرجل الوحيد الذي عرفته هناك، وذلك بسبب حادث كلب صيده، الذي عض قدمي ذات صباح وأنا ذاهب إلى الكنيسة.

كانت طريقة سطحية لعقد صداقة، ولكنها كانت عميقة الأثر. فقد اضطررت إلى أن أبقى راقدًا مدة عشرة أيام. ظل خلالها «تريفور» يأتي باستمرار ليسأل عني ويعودني. كانت زياراته، في بادئ الأمر، عبارة عن التحدث معي لمدة دقيقة، ثم طالت مدتها شيئًا فشيئًا، حتى صرنا قبل نهاية مدة العلاج صديقين حميمين. كان رجلًا ودودًا، مملوءًا نشاطًا وحيوية على عكسي تمامًا في معظم النواحي. ولكننا وجدنا، أخيرًا، أن هناك بعض المواضيع المشتركة بيننا. وكانت صلة اتحاد الأمزجة عندما علمت أنه مثلي، ليس له أصحاب. وذات مرة دعاني إلى زيارته في بيت والده في دونيثورب في نورفولك. فقبلت دعوته لأن أقضي معه هناك مدة شهر من الإجازة الطويلة.

من الجلي أن «تريفور» العجوز كان رجلًا واسع الثراء، ذا مركز سامٍ مرموق، إذ كان قاضيًا وصاحب أملاك. أما دونيثورب فقرية



«تريفور» يأتي باستمرار ليسأل عني ويعودني

صغيرة شماليَّ لانجمور مباشرة في ريف بوردز. وكان بيته عتيق الطراز، واسع الأرجاء، سقوفه من كتل أخشاب البلوط، وهو مبني بالطوب الأحمر، تصل إليه عبر ممر تَحف به أشجار الليمون. وإلى جواره أراضٍ طيبة لصيد البط، ومجاري مياه يمكن صيد الأسماك منها. وبه مكتبة

صغيرة لكنها حافلة بالكتب المختارة حصل عليها، كما علمت، من الساكن السابق لذلك البيت. وبه مطبخ يديره طاهٍ قدير ماهر. لذا فمن الغباء ألا يقبل المرء مثل هذه الدعوة لتمضية شهر هناك.

كان «تريفور» الأب أرملًا، وكان صديقي ابنه الوحيد.

كما سمعت أن له ابنة ماتت بالدفتريا وهي في زيارة لمدينة برمنجهام. أعجبني ذلك الأب كثيرًا. كان رجلًا قليل الثقافة، غير أنه على قدر عظيم من القوة الجسدية والذهنية. قلما يعرف أي كتاب، لكنه سافر إلى بلاد بعيدة ورأى كثيرًا من بلاد الدنيا، ويتذكر كل ما عرفه. وهو ممتلئ الجسم، ذو شعر أجعد، ووجه أسمر لفحه الطقس، وعينين زرقاوين حادتين لدرجة الوحشية. ومع ذلك فقد اشتهر بالرقة والإحسان في جميع أنحاء منطقته، كما كانت أحكامه خفيفة وهو في كرسي القضاء.

وذات مساء، وقد مضى عليَّ هناك بضعة أيام فحسب، كنا جالسين نحتسي زجاجة من النبيذ الحلو، بعد تناول طعام العشاء، فإذا بـ«تريفور» الصغير يتحدث عن عادة الملاحظة القوية والتصور الصحيح اللذين كونتهما في نفسي، ولو أنني لم أقَدر قيمة الدور الذي كان عليهما أن يلعباه في حياتي. ومن الجلي أنه جال بفكر الأب أن ابنه يبالغ في وصفه لحادثة أو اثنتين تافهتين، قمت بهما.

فقال الأب ضاحكًا وفي روح طيبة: «تعالَ، يا «مستر هولمز». إنني موضوع رائع لهوايتك، إذا أمكنك أن تستنتج مني شيئًا». قلت: «أخشى أنني لن أستطيع استنتاج شيء كثير. فقد أقول إنك هربت من هجوم على شخصك في خلال الاثني عشر شهرًا الماضية».

خبَت الضحكة من شفتَي الوالد، وحملق في دهشة بالغة. قال: «هذا صحيح جدًّا، وإنك لتعرف يا «فيكتور»»، وهو يستدير نحو ابنه، «إننا عندما حللنا تلك العصابة، أقسم أفرادها أن يذبحونا. وبالفعل، هوجم «السير إدوارد هوبي». ولذا أخذت أحترس منذ ذلك الوقت».

قلت: «ولديك عصا جميلة جدًّا، أعرف من النقش الذي عليها أنها لم تكن لديك قبل سنة، وأنك ثقبت رأسها وصببت رصاصًا منصهرًا في ذلك الثقب لتجعلها سلاحًا فظيعًا. ورأيت أنك ما كنت لتتعب نفسك وتحتاط هكذا، إلا إذا كنت تخشى خطرًا ما». فقال مبتسمًا: «هل من شيء آخر؟». «لاكمتَ كثيرًا أيام شبابك». «هذا صحيح أيضًا. وكيف عرفتَ ذلك؟ هل هشم أنفي قليلًا، واعوج

عن استقامته؟». قلت: «لا، بل أذناك. فقد تفلطحتا وغلظتا إشارةً إلى الرجل الملاكم». «أما من شيء آخر؟». «قمتَ بكثير من أعمال الحفر الذي جعل جلدك غليظًا». «جمعتُ كل نقودي من حقول الذهب». «كنتَ في نيوزيلاند». «وهذا حقيقي أيضًا». «وزرت اليابان». «صحيح جدًّا». «وكنتَ على صلة وثيقة جدًّا بشخصٍ الحروف الأولى لاسمه هي: ج. أ. ثم تلهفت فيما بعد إلى نسيانه تمامًا».

وقف «المستر تريفور» ببطء، وثبَّت عينيه الكبيرتين الزرقاوين عليَّ في نظرة طويلة غريبة، ثم استلقى إلى الأمام على وجهه بين قشور البندق المتناثرة فوق المفرش، مغمى عليه تمامًا.

بوسعك أن ترى، يا «واطسون»، كم كان خجلي أنا وابنه عند ذاك. بيد أن تلك النوبة لم تمكث طويلًا، إذ أفاق عندما حللنا ياقته ورششنا ماء على وجهه من أحد أكواب غسل الأصابع. فتنفس عميقًا مرة أو مرتين، ثم جلس.

قال وهو يتصنع ابتسامة: «آه يا ولدي! أرجو ألا أكون قد أزعجتكما خوفًا عليَّ. فرغم مظهري القوي، هناك مكان ضعف في قلبي، ولا يستغرق التغلب عليه وقتًا طويلًا. لا أعلم، يا «مستر هولمز»، كيف أمكنك معرفة كل هذا. لكن يبدو أن جميع رجال البوليس السري الحقيقي والخيالي أطفال بين يديك. هذا طريق حياتك، يا سيدي، ويمكنك أن تثق بكلام رجل كان شيئًا ما في هذه الدنيا».

كانت هذه المشورة وذلك التقدير المُبالغ فيه عن مقدرتي التي قدم لها، كانا، لو تصدقني يا «واطسون»، هما ما جعلاني أفكر في أنه بالإمكان اتخاذ مهنة مما كان هوايتي الوحيدة حتى ذلك الوقت. ومع ذلك، فقد شغلني مرض مضيفي، في تلك اللحظة، عن التفكير في أي شيء آخر.

قلت: «أرجو ألا أكون قد قلت شيئًا آلمك».

تكلم الأب عندئذ بنغمة نصف مزاجية، ولكن مظهر الفزع ما زال كامنًا خلف عينيه: «لقد ضربت على وتر حساس عندي. وهل بإمكاني أن أسألك كيف عرفت كل ذلك، وماذا تعرف غيره؟». قلت: «هذا بسيط جدًّا. عندما كشفت عن ذراعك لتسحب تلك السمكة إلى القارب، أبصرت وشم الحرفين ج. أ. في مفصل المرفق. وما زال هذان الحرفان واضحين يمكن قراءتهما. ولكن من الواضح تمامًا من منظرهما المطموس، ومن صبغ الجلد حولهما، أنه بذلت جهود لمحوهما. فيتجلى

إذن، أن هذين الحرفين كانا في وقت ما عزيزين عليك، وأنك أردت فيما بعد أن تنساهما». فصاح وهو يتنهد بارتياح: «ما أدق عينك! إن الأمر كما تقول بالضبط. ولكننا لن نتكلم عنه. فأشباح أحبابنا القدامى هي أسوأ الأشباح جميعًا. هيا بنا إلى حجرة البلياردو، لتدخن سيجارًا في هدوء».

ومنذ ذلك اليوم البهيج، ووسط كرم الضيافة الذي قام به «المستر تريفور» نحوي، كان هناك شيء من الريبة في مسلكه حيالي، وحتى ابنه نفسه لاحظ هذا، فقال: «لقد أثرت في المحافظ تأثيرًا جعله لا يتأكد مرة أخرى مما تعرفه عنه وما لا تعرفه». لم يقصد أن يظهر ذلك، وأنا على يقين منه، ولكنه راسخ في ذهنه حتى ليتجلى في كل حركة من حركاته. وأخيرًا اقتنعت بأنني مصدر قلق له، فأنهيت زيارتي. وفي ذلك اليوم نفسه، قبل رحيلي، حدث أمر كانت له نتيجة بالغة الأهمية.

بينما نحن الثلاثة جالسون على الحشيش فوق مقاعد الحديقة، ننعم بأشعة الشمس ونعجب بالمنظر الذي نراه من خلال السور، جاءت الخادمة تقول إن بالباب رجلًا يرغب في رؤية «المستر تريفور». فقال مضيفي: «ما اسمه؟». «لم يذكر أي اسم». «إذن فماذا يريد؟». «يقول إنك تعرفه، وإنه يريد أن يتحدث إليك لحظة فحسب». «أدخليه إلى هنا».

وبعد هنيهة، ظهر أمامنا رجل صغير الجسم نحيله، بمظهر يدل على الذل والهوان، وبمشية مترنحة. كان يرتدي سترة مفتوحة، على كمها بقعة من القطران، وقميصًا أسود مخططًا بمربعات، وبنطلونًا من الدمور، وحذاء ثقيلًا باليًا جدًّا. أما وجهه فنحيل أسمر، دائم الابتسامة غير أنه تتجلى فيه سيماء الدهاء والشرور. ويظهر من بين شفتيه صف من الأسنان الصفراء غير المنتظمة، ويداه المغضنتان نصف مقفلتين بالطريقة الخاصة بالبحَّارة. وبينما هو قادم يترنح فوق الحشيش، سمعت «المستر تريفور» يُصدر صوتًا يشبه الفواقة[4]، وقفز من كرسيه وجرى داخل البيت، وعاد بعد برهة. فشممت رائحة البراندي القوية وهو يمر بجانبي.

قال: «حسنًا، يا صديقي، ماذا بوسعي أن أفعل لك؟». وقف البحَّار ينظر إليه بعينين متغضنتين، والابتسامة نفسها لا تفارق شفتيه. قال: «ألا تعرفني؟». قال «المستر تريفور» في صوت تشوبه الدهشة: «كيف، يا عزيزي؟ أنت «هدسون»، بكل تأكيد!». فقال البحَّار: «نعم، أنا «هدسون»، يا سيدي. لم أرَك منذ أكثر من ثلاثين سنة. أنت هنا في بيتك، بينما أنا لا أزال آكل اللحم المملح من المخلاة». فصاح «تريفور» يقول: «ويحك يا «هدسون»! ستجد أنني لم أنسَ الأيام الماضية». ثم سار نحو البحَّار وقال شيئًا بصوت منخفض، ثم استطرد يقول بصوت عالٍ: «اذهب

إلى المطبخ حيث تحصل على الطعام والشراب، لا شك أنني سأجد لك مكانًا». فقال البحَّار وهو يمشط إلى الوراء خصلة شعر تدلت على جبينه: «شكرًا، يا سيدي. نزلت الآن فقط من سفينة بقيت في البحر مدة سنتين، وكانت في رحلة تسير بسرعة ثماني عقدات. وأنا مفلس وفي حاجة إلى الراحة، فرأيت أن أصلح حالي وأستريح، إما هنا وإما لدى «المستر بيدوس»». فقال «المستر تريفور»: «هل تعرف أين يقيم «المستر بيدوس»؟». قال وهو يبتسم: «فليباركك الله يا سيدي! أعرف مكان جميع أصدقائي القدامى». ثم هرول خلف الخادمة إلى المطبخ. وبعد انصرافه تمتم لنا «المستر تريفور» أنه كان في سفينة مع هذا الرجل وهو عائد إلى الحفر بحثًا عن الذهب. ثم تركنا فوق الحشيش ودخل البيت. وبعد ساعة، حينما دخلنا البيت، وجدنا البحَّار راقدًا على أريكة بحجرة المائدة، سكران تمامًا. فتركت هذه الحادثة انطباعًا سيئًا في نفسي، ولم أشعر بالأسف في اليوم التالي على مغادرة دونيثورب، إذ شعرت بأن وجودي لا بد أن يكون مصدر إحراج لصديقي.

حدث هذا أثناء الشهر الأول من الإجازة الطويلة، فذهبت إلى شقتي في لندن حيث قضيت سبعة أسابيع قمت خلالها بإجراء بعض التجارب في الكيمياء العضوية. وذات يوم، وقد تقدم الخريف كثيرًا وقاربت الإجازة على الانتهاء، تسلمت برقية من صديقي يرجوني أن أعود إلى دونيثورب لأنه في حاجة ماسة إلى نصحي. وبالطبع، تركت كل شيء، وسافرت إلى الشمال مرة أخرى.

قابلني صديقي هذا على المحطة بعربة تجرها الكلاب، ورأيت لأول وهلة أن الشهرين الماضيين كانا عصيبين عليه. نحل جسمه وصار مثقلًا بالهموم وفقدَ بهجته ومرحه اللذين اشتهر بهما.

كانت أولى كلماته هي: «المحافظ يحتضر». صحت أقول: «مستحيل! ماذا جرى؟». «السكتة القلبية. صدمة عصبية. كان طوال اليوم على حافة الموت، وأشك في أننا سنجده حيًّا».

ذعرت، كما قد تظن، يا «واطسون»، لسماع هذا الخبر غير المتوقع. قلت: «وماذا سبَّبها؟». «هذه هي النقطة الغامضة، هيا اركب، وبوسعنا أن نتحدث عن هذا أثناء الطريق. أتذكُر ذلك الرجل المشؤوم، الذي جاء في المساء السابق ليوم مغادرتك لنا؟». «نعم، أذكره جيدًا». «أتعرف من ذلك الذي أدخلناه منزلنا في ذلك اليوم؟». «ليس عندي أي فكرة». صاح صديقي يقول: «إنه الشيطان، يا «هولمز»!».

حملقت فيه مدهوشًا.

«نعم، هو الشيطان عينه. لم نحظَ بساعة سلام أو راحة منذ أن جاء إلينا، ولا ساعة واحدة. لم يرفع المحافظ رأسه إطلاقًا منذ ذلك المساء. فطردت الحياة منه، وتحطم قلبه. كل هذا بواسطة هذا «الهدسون» اللعين». «إذن، وأي قوة كانت لديه؟». «هذا ما أريد معرفته بأي ثمن. ذلك المحافظ العجوز المحسن الطيب! كيف وقع بين براثن مثل هذا المجرم؟ ولكني مسرور لأنك جئت، يا «هولمز». أثق جدًّا في حكمك وحزمك، وأعلم أنك ستنصحني بأفضل ما يمكنني أن أفعل».

كنا منطلقين فوق الطريق الريفي الأبيض والسهول الثلجية ممتدة أمامنا تتألق بالضوء الأحمر للشمس الغاربة. وكان بوسعي أن أرى من خلال دغل على يسارنا، المداخن العالية وسارية العَلم، التي تُبين مقر ذلك السيد.

قال رفيقي: «عيَّن والدي ذلك الرجل بستانيًّا، ولما لم يقنع بذلك رقاه إلى سُفرجي، فجعل البيت تحت رحمته واستغل وجوده في البيت باستمرار، وأخذ يجول حيثما طاب له أن يجول. وشكَت الخادمات من معاكساته وهو سكران، ومن لغته البذيئة. فرفع الأب أجورهن جميعًا ليعوضهن عن تلك المضايقات، كما كان يأخذ القارب ويخرج في رحلات صيد قصيرة. وكل هذا بوجه عابس ساخر وقح، حتى خيل إليَّ أن أقتله عشرين مرة لو كان رجلًا من سني. وإني لأخبرك يا «هولمز» بأنني أحتفظ برباطة جأشي طوال ذلك الوقت. وهأنذا أتساءل: هل أكون عاقلًا لو أطلقت العنان لنفسي قليلًا.

سارت الأمور بنا من سيئ إلى أسوأ، وشرع هذا الحيوان «هدسون» يتمادى في أن يترك لنفسه الحبل على الغارب يفعل ما يشاء ويتدخل فيما لا يعنيه. وقد بلغ به الغرور والصلف أن رد على والدي بوقاحة في وجودي، فما كان مني إلا أن أمسكته من كتفه وأخرجته من الحجرة. فخرج بوجه متجهم وعينين حاقدتين، وتفوَّه بتهديدات أكثر مما يستطيع لسانه أن ينطق. ولست أدري ماذا دار بينه وبين والدي بعد ذلك. ولكنْ جاء أبي في اليوم التالي وطلب مني أن أعتذر له. فرفضت رفضًا باتًّا، كما يمكنك أن تتصور. وقلت لوالدي كيف يسمح لمثل هذا الوغد أن يأخذ حريته معه ومع من بالمنزل. قال: «آه، يا ولدي! من الخير أن أتكلم ولكنك لا تعرف مركزي، ولا بد أن تعرف يا «فيكتور». سأخبرك بكل شيء، وليحدث ما يحدث! إنك لا تفكر في أذى أبيك المسكين، هل تفكر

في هذا، يا غلام؟». قال هذا وهو في غاية التأثر، ثم حبس نفسه في المكتبة طوال اليوم، حيث أمكنني أن أراه من خلال النافذة مشغولًا بالكتابة طوال الوقت.

حدث في ذلك المساء ما لاح لي أنه فرج أي فرج، إذ أخبرنا «هدسون» بأنه سيتركنا. فدخل حجرة المائدة ونحن جالسون بعد العشاء، وأعلن عن عزمه على الرحيل. أعلن ذلك بصوت أجشَّ لرجل نصف سكران. قال: «نلت ما يكفي من نورفولك. سأذهب إلى «المستر بيدوس» في هامشير. وإنه ليسره أن يراني، كما سرك من قبل. يمكنني أن أقول ذلك». فقال أبي: «أرجو ألا تكون راحلًا عنا بنفس غاضبة، يا «هدسون»!». قال أبي هذا بطريقة جعلت دمي يغلي في عروقي. قال متجهمًا، وهو ينظر ناحيتي: «لم أحظَ باعتذاري». فقال أبي وهو يستدير نحوي: «هل لك أن تعلن أنك عاملت هذا الرجل العظيم بخشونة، يا «فيكتور»؟». كان جوابي هو: «على العكس. أرى أننا، كلينا، قد أبدينا نحوه صبرًا غير عادي». فقال «هدسون» ساخرًا: «نعم، فعلتما ذلك، فعلتماه. حسنًا جدًّا يا زميلي، سوف ننظر في هذا الأمر!». وخرج من الحجرة. وبعد نصف ساعة غادر البيت، تاركًا والدي في حالة عصبية يرثى لها. وبعد ذلك، كنت أسمعه ليلة تلو أخرى، يذرع أرض الحجرة. وعندما بدأ يستعيد ثقته بنفسه واطمئنانه، نزلت الضربة أخيرًا».

فسألته متلهفًا: «كيف؟». قال: «وصلنا خطاب باسم والدي، بطريقة غير عادية على الإطلاق، في مساء أمس، يحمل خاتم مكتب بريد فوردنجبريدج. فقرأه أبي وأمسك رأسه بكلتا يديه، وأخذ يدور حول الحجرة في دوائر صغيرة كرجل فقدَ عقله. وعندما أجلسته على الأريكة، التوى فمه وجفناه جميعها إلى ناحية، فأدركت أن ضربة أصابته. فجاء الدكتور «فوردهام» على الفور، وأرقدناه في السرير، غير أن الشلل انتشر في كل جسمه ولم يبدِ أي أمارات للرجوع إلى وعيه مرة أخرى. وأظننا قلما نجده حيًّا عند وصولنا».

قلت صائحًا: «إنك لتفزعني يا «تريفور». ماذا يمكن أن يكون في ذلك الخطاب ليسبب مثل هذه النتيجة المفزعة؟». «لا شيء. هذا هو الجزء غير المفهوم. كانت الرسالة غامضة وتافهة. ولكن، رباه! حدث ما كنت أخشاه!».

وبينما هو يقول ذلك، درنا حول منعطف الطريق وأبصرنا النور الخافت الدال على إقفال كل شيش النوافذ. وعندما هرعنا إلى الباب، تشنج وجه صديقي، إذ برز من الباب رجل يرتدي حُلة سوداء. فقال «تريفور»: «متى حدث ذلك، يا دكتور؟». «بعد أن انصرفت مباشرة تقريبًا». «هل

استعاد وعيه؟». «لحظة واحدة قبل أن تأتي النهاية». «هل من رسالة لي؟». «لا، باستثناء أن الأوراق في الدرج الخلفي للخزانة اليابانية».

صعد صديقي مع الطبيب إلى الحجرة التي مات فيها والده، بينما بقيت في حجرة المكتب أقلب المسألة كلها في رأسي، وأشعر باكتئاب لم أشعر بمثله طوال حياتي. ماذا كان ماضي «تريفور» هذا؟ كان ملاكمًا، وباحثًا عن الذهب. ولكن كيف وضع نفسه تحت رحمة هذا البحَّار كئيب الوجه؟ ولماذا أغمي عليه عند التلميح بالحروف الأولى الموشومة على ذراعه؟ ولماذا يموت خوفًا عندما وصله خطاب من فوردنجبريدج؟ ثم تذكرت أن فورد في هامشير، وأن «المستر بيدوس»، الذي قال البحَّار إنه ذاهب إليه، ليبتزه على ما يبدو، يعيش في هامشير. إذن، فالخطاب إما من «هدسون» البحَّار، يقول إنه أفشى السر الآثم الذي يبدو أنه موجود، أو من «بيدوس» يحذر به زميلًا قديمًا بوقوع مثل هذه الخيانة. وإلى هنا يبدو الأمر واضحًا. ولكن كيف يكون الخطاب تافهًا وغامضًا، كما وصفه الابن؟ لا بد أنه أخطأ في قراءته. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أيضًا أنه مكتوب بالشفرة التي تبدو بمعنى بينما هي تقصد معنى آخر. يجب أن أرى ذلك الخطاب. فلو كان فيه أي معنى خفي، فمن المؤكد أنني سأعرفه. جلست أفكر في الظلام لمدة ساعة حتى جاءتني أخيرًا إحدى الخادمات بمصباح، وبعدها مباشرة جاء صديقي «تريفور» شاحب اللون، ولكنه رابط الجأش، ومعه هذه الأوراق، التي على ركبتي، وقد أمسكها في يده. فجلس قبالتي، وسحب المصباح إلى حافة المائدة. ناولني قطعة من الورق مكتوبة، كما ترى، على فرخ واحد من الورق رمادي اللون، مكتوب فيه:

> يسير توريد طيور الصيد إلى لندن سيرًا متصلًا. طُلب من «هدسون»، رئيس الحرس، أن يتسلم جميع الطلبات لأوراق الذباب، وللمحافظة على حياة دجاجات الدراج الخاصة بك.

أعترف بأن الحيرة بدت على وجهي، كما بدت على وجهك عندما قرأت هذه الرسالة لأول مرة. ثم قرأتها ثانية بعناية وإمعان. من الجلي أنها كانت كما فكرت، ولو أن هناك معنى ثانيًا يكمن وراء مجموعة الكلمات هذه. أيمكن أن يكونا قد اتفقا من قبلُ على معنى بعض العبارات، مثل: «ورق الذباب» و«دجاجات الدراج»؟ عادة ما تكون أمثال هذه العبارات عرفية يتفق عليها بين الطرفين، ولا يمكن استنتاج معناها بأي وسيلة أخرى. ويبدو أن وضع اسم «هدسون» يدل على أن

مضمون الرسالة يتعلق بالموضوع الذي سبق أن خمنته. ومن المرجح أنها صادرة من «بيدوس»، وليست من البحَّار. حاولت أن أقرأها من آخرها، إلا إن عبارة «حياة دجاجات الدراج» لم تكن مشجعة. ثم حاولت أن أقرأ كلمة وأترك أخرى، ولكنْ دون جدوى، إذ لم تتفق الكلمات: «توريد طيور الصيد ولندن» مع المعنى.

ولكن بعد لحظة صار مفتاح اللغز في يدي، إذ وجدت أنني لو قرأت كلمة وتركت اثنتين، لاتضحت الرسالة وأدت معنًى، ساق «تريفور» العجوز إلى حالة من القنوط.

كانت رسالة قصيرة تتضمن تحذيرًا، كما قرأتها الآن لرفيقي:

باح «هدسون» بكل شيء، اهرب وانجُ بحياتك.

وضع «فيكتور تريفور» وجهه بين يديه المرتجفتين، وقال: «أعتقد أنها لا بد أن تكون كذلك. هذا أسوأ من الموت، إذ يعني العار أيضًا، ولكنْ ما معنى «رئيس الحرس» و«دجاجات الدراج»؟». «لا تعني شيئًا في الرسالة، ولكنها تعني الكثير لنا، إذا لم تكن لدينا وسيلة أخرى لمعرفة شخصية مرسلها. فقد وضع الكلمات التي يريدها تاركًا بينها مسافات، وأخيرًا ملأ المسافات بأي كلمات ليجعلها غامضة. هل تعرف أي شيء عن «بيدوس» هذا؟». قال: «بما أنك ذكرت اسمه، فأنا أتذكر أن والدي المسكين تسلم ذات مرة دعوة منه لكي يذهب ويصيد في أملاكه، كل خريف». قلت: «إذن، فلا بد أن هذا الخطاب جاء منه. وما بقي علينا إلا أن نعرف السر الذي يهدد به «هدسون» رأسَي هذين الرجلين الثريين المحترمين». فقال صديقي: «للأسف، يا «هولمز». أخشى أن يكون سرًّا يجلب الإثم والعار، ولكني لن أخفي عنك سرًّا. هاك الاعتراف الذي



صار مفتاح اللغز في يدي

كتبه عندما عرف أن الخطر أحدق به فعلًا من «هدسون». وجدته في الخزانة اليابانية كما أخبر الطبيب. خذ الورقة هذه واقرأها لي، إذ ليست لديَّ القوة ولا الشجاعة لأن أقرأها بنفسي».

ها هي الأوراق نفسها، يا «واطسون»، التي أعطانيها «تريفور». وسأقرأها لك كما قرأتها له في حجرة المكتب، تلك الليلة، وعليها عنوان من الخارج كما ترى: «بعض تفاصيل رحلة السفينة «جلوريا سكوت» منذ مغادرتها فالموث في الثامن من أكتوبر سنة 1855 إلى أن تحطمت عند خط عرض 15 درجة وعشرين دقيقة شمالًا، وخط طول 25 درجة وأربع عشرة دقيقة غربًا في السادس من نوفمبر». وهذه التفاصيل في صورة خطاب يحكيها هكذا:

> ابني العزيز العزيز: بما أن العام المقبل قد بدأ الآن يلقي ظله القاتم على آخر سنيِّ حياتي، فبوسعي أن أكتب بكل صدق وأمانة، وأنَّ أحزن ما يحزنني، وينهش قلبي، ليس هو الخوف من القانون ولا فقدان مركزي في المقاطعة، ولا سقوطي في عيون كل من عرفوني، ولكنه التفكير في أنك ستخجل من أجلي. أنت، يا من تحبني، ويا من لم تفعل شيئًا غير احترامي. ولكن، إذا نزلت الضربة التي كانت مسلطة إلى رأسي إلى

الأبد، فإنني أريدك أن تقرأ هذا حتى تعرف مني مباشرة، إلى أي مدى يقع اللوم عليَّ. ومن ناحية أخرى، إذا سار كل شيء على ما يرام (عسى أن يمنحنيه الله الرحيم القادر على كل شيء). وإذا لم تتلف هذه الورقة، ووقعت في يديك، فإني أستحلفك بكل ما هو مقدس لديك وغالٍ، وبذكرى أمك العزيزة، وبالمحبة التي كانت بيننا، أن تلقي بها في النار، وألا تفكر فيها بعد ذلك.

إذا ما وقعت عينك على هذا السطر، فاعرف أنني انكشفت وأُخرجت من بيتي، أو ما هو أكثر توقعًا، لأنك تعرف أن قلبي ضعيف، يظل فمي مقفلًا بالموت إلى الأبد. وعلى أي حال، فقد مضى زمن الشبهات وانقضى. وكل كلمة أقولها لك هي الحقيقة السافرة، وإني لأقسم على هذا، كما آمل في الرحمة.

ليس اسمي «تريفور»، يا ولدي العزيز، وإنما «جيمس أرميتادج» أيام شبابي، ويمكنك أن تفهم الآن سبب الصدمة التي أصابتني منذ بضعة أسابيع عندما لمح صديقك في الكلية، «المستر هولمز»، بما يفيد أنه استنتج سري. وقد دخلت أحد مصارف لندن باسم «أرميتادج»، وبه أيضًا أُدنت بخرق قوانين بلادي، فحُكم عليَّ بالنفي إلى خارج البلاد. لا تفكر فيَّ بغلظة يا بني، كان ما يسمونه «دين شرف» هو الذي كان عليَّ أن أدفعه، فدفعته من نقود ليست ملكي، أملًا في أن أضع بدلها قبل أن يعرف أحدٌ نقصها. غير أن حظي بالغ التعاسة طاردني، فلم تصلني قَطُّ النقود التي كنت أعتمد عليها، وحدث جردٌ فجائي للعهدة قبل الموعد المعتاد للجرد. فكشف العجز في عهدتي، وهو ما يسمونه بالاختلاس. وكان من الممكن تخفيف المحاكمة، غير أن تطبيق القانون منذ ثلاثين عامًا، كان أقسى، مما هو الآن. وفي عيد ميلادي الثالث والعشرين، وجدت نفسي مكبلًا بالسلاسل من أجل الاختلاس، مع سبعة وثلاثين متهمًا آخرين، وزُج بنا في الطابق الأوسط من السفينة «جلوريا سكوت» المسافرة إلى أستراليا. كان ذلك في سنة 55 وحرب شبه جزيرة القرم على أشدها. فاستعملت سفن نقل المساجين في النقل الحربي بالبحر الأسود. وعلى ذلك اضطرت الحكومة أن تستخدم سفنًا أصغر وأقل ملاءمة لنقل مساجينها. وكانت السفينة «جلوريا سكوت» تعمل في تجارة الشاي الصيني، غير أنها كانت سفينة عتيقة الطراز ثقيلة الحيزوم عريضة الكتل المستعرضة، وقد تفوقت عليها السفن الشراعية الحديثة. كانت حمولتها 500 طن. وعلاوة على

الثمانية والثلاثين سجينًا الذين بها، كانت تحمل 26 بحّارًا، و18 جنديًّا، وربانًا، وثلاثة ضباط، وطبيبًا، وكاهنًا. أي كان بها نحو مائة شخص، عندما أقلعت بنا من فالموث.

وبدلًا من أن تكون الحواجز بين زنزانات المساجين من خشب البلوط السميك، كما هي الحال في السفن العادية المخصصة لنقل المساجين، كانت رفيعة وهشة. كان السجين الذي إلى جانب زنزانتي من ناحية مؤخرة السفينة، هو من لاحظته على وجه الخصوص حينما قادونا إلى رصيف الميناء. كان شابًّا أبلج الوجه لم يطرَّ شاربه بعد، ذا أنف طويل رفيع وفكين بارزين، يرفع رأسه دائمًا عاليًا في الهواء، ويترنح في مشيته. وفوق كل شيء كان فارع الطول بطريقة ملحوظة. ولا أظن أن رأس أي واحد منا كان يصل إلى كتفه. وإنني لعلى يقين من أن طوله لا يقل عن ست أقدام ونصف. ومن الغريب أن ترى بين العديد من الوجوه الحزينة المكدودة، وجهًا مملوءًا نشاطًا وعزيمة مثل وجه ذلك الرجل. لاح لي وجهه كالنار في مهب العاصفة. لذا سرني أن يكون جاري، وسرني أكثر حينما سمعته في هدأة الليل البهيم يهمس إلى جانب أذني بعد أن ثقب فتحة في الألواح الفاصلة بيننا.

قال:

ـ مرحبًا، أيها الزميل. ما اسمك، ولماذا أنت هنا؟

فأجبته عن سؤاله، وسألته بدوري عن اسمه.

قال:

ـ أنا «جاك برندرجاست»، وأقسم بالله على أنك ستبارك اسمي قبل أن تعمل معي!

تذكرت أنني سمعت عن قضيته، إذ هزت البلاد كلها قبل القبض عليَّ بوقت ما. انحدر هذا الرجل من أسرة طيبة، وكان ذا كفاءة عالية، إلا إن عاداته الخبيثة الشريرة لم تكن قابلة للشفاء، حصل بالتزييف البارع المتقن على مبالغ ضخمة من المال، من أشهر تجار لندن.

قال مزهوًّا:

ـ أتتذكر قضيتي؟

ـ أتذكرها جيدًا جدًّا.

ـ إذن، فربما تذكرت شيئًا غريبًا فيها؟

ـ وما ذلك الشيء الغريب فيها؟

ـ أنني حصلت على ربع مليون تقريبًا. أتعرف ذلك؟

ـ هكذا قيل.

ـ ولكنهم لم يستعيدوا منها شيئًا.

ـ هذا صحيح.

قال:

ـ إذن، فأين تعتقد وجود الرصيد؟

قلت:

ـ ليست عندي أي فكرة عنه.

قال:

ـ إنه بين إصبعيك السبابة والإبهام. أقسم بالله على أن لي باسمي عددًا من الجنيهات أكثر مما في رأسك من شعر. وما دامت معك نقود يا ولدي، وتعرف كيف تديرها وتنفقها، فبوسعك أن تفعل شيئًا! وإنك لا تعتقد أن الرجل الذي بوسعه أن يفعل شيئًا، سيُبلى بنطلونه جالسًا داخل زنزانته عفنة الرائحة والمليئة بالجرذان والخنافس، في نعش عتيق لسفينة صينية؟ كلا يا سيدي. مثل هذا الرجل، لا بد أن ينظر في صالح

نفسه وفي صالح زملائه أيضًا. يمكنك الاعتماد عليَّ في ذلك. تمسك بهذا الرجل، وسوف تُقبل الكتاب المقدس، لأنه سينتشلك من هذه الاستكانة.

هكذا كان أسلوب كلام ذلك الرجل، وظننت كلامه في بادئ الأمر لا يعني شيئًا، ولكنْ بعد فترة قصيرة، وبعد أن اختبرني وضمني إليه بأن جعلني أقسم بأغلظ الأيمان على الولاء له، أخبرني بأن هناك خطة للاستيلاء والسيطرة على السفينة. دبر هذه الخطة اثنا عشر مسجونًا قبل المجيء إلى ظهر هذه السفينة. كان «برندرجاست» هو الزعيم، ونقوده هي القوة المحركة لها.

قال:

ـ لي شريك نادر المثال وأمين ووفي كألواح الناجود. الخطط معه، ولكن أين تظنها موجودة في هذه اللحظة؟ مع كاهن هذه السفينة، الكاهن، ولا أقل منه! جاء إلى ظهر هذه السفينة مرتديًا معطفًا أسود، ومعه الأوراق، وما يكفي من النقود في صندوق، ليشتري السفينة من قاعها إلى أعلاها. كما أن البحارة ملء يديه جسمًا وروحًا، وقد اشتراهم فعلًا قبل تعيين أي واحد منهم بالسفينة. ولديه اثنان من السجانين، والضابط الثاني «ميرسيه»، ويمكنه الحصول على الربان نفسه لو رأى ضرورة لذلك.

قلت:

ـ وماذا سنفعل، إذن؟

قال:

ـ ماذا تظن؟ سنجعل جاكتات هؤلاء الجنود أشد حمرة مما جعلها الخياط.

قلت:

ـ ولكنهم مسلحون.

ـ وهكذا سنكون نحن، يا بني. هنا حزام مسدسات لكل ابن أنثى منا. وإذا لم نستطع حمل هذه السفينة بتعضيد البحارة، عندئذ يحين الوقت الذي نرسل فيه إلى

مدرسة الفتيات الصغيرات الداخلية. تحدث إلى جارك الذي على يسارك، في هذه الليلة، وانظر ما إذا يمكن الوثوق به.

فعلت حسب مشورته، فوجدت جاري شابًّا صغير السن في موقفي نفسه. كانت جريمته التزييف واسمه «إيفانز»، ولكنه غيَّر اسمه فيما بعد، مثلي. وهو الآن رجل غني في جنوب إنجلترا. كان على استعداد تام للانضمام إلى تلك المؤامرة كوسيلة وحيدة لإنقاذنا. وقبل أن نعبر الخليج لم يكن خارج هذه المؤامرة سوى اثنين فقط، أحدهما ضعيف العقل، ولم نستطع المجازفة بالاعتماد عليه. أما الآخر فكان مريضًا بالصفراء ولا يمكن أن يكون ذا فائدة لنا.

الحقيقة أنه، منذ البداية، ما كان هناك عائق ليقف أمام استيلائنا على السفينة. فالبحارة مجموعة من الفتوات الأقوياء اختيروا لهذا الغرض، وأما الكاهن المزيف فكان يأتي إلى زنزاناتنا يحمل حقيبة سوداء، كان المفروض أن تكون مليئة بالنشرات الدينية. وكان يزورنا كثيرًا، حتى إنه لم يأتِ اليوم الثالث إلا وقد خبأ كل واحد منا عند مؤخرة سريره، مبردًا وحزام مسدسات ورطلًا من البارود وعشرين طلقة. وكان اثنان من حراس السجن من أتباع «برندرجاست»، وكان الضابط البحري الثاني يده اليمنى. ولم يكن ضدنا سوى الربان والضابطين البحريين الآخرين، واثنين من حرس السجن والملازم أول «مارتين» وجنوده الثمانية عشر والطبيب. ورغم اطمئناننا لسلامة خططنا، فإننا لم نهمل بأي احتياطات وعملْنا ترتيبنا على القيام بهجومنا فجأة أثناء الليل. بيد أن الهجوم جاء بأسرع ما كنا نتوقع، جاء بهذه الطريقة.

ذات مساء، بعد نحو ثلاثة أسابيع من بدء رحلتنا، جاء الطبيب ليعود مسجونًا مريضًا. وبينما هو يفحصه، وضع يده عند مؤخرة السرير فأحس بانبعاج الفراش فوق المسدسات. ولو سكت الطبيب لكان من الممكن أن ينسف كل خططنا من أساسها، ولكنه كان شابًّا صغير السن وعصبيًّا، فأطلق صيحة الدهشة، وامتقع لونه، فعرف الرجل من فوره ماذا سيحدث، فقبض على الطبيب وكمم فمه وربطه في السرير قبل أن يرسل إنذارًا. وكان قد فتح قفل الباب المؤدي إلى ظهر السفينة، فاندفعنا خلاله جميعًا وأطلقنا الرصاص على الديدبانَين فقتلناهما. وكذلك فعلنا بجندي برتبة عريف جاء يجري ليرى

ماذا حدث، ثم فعلنا الشيء نفسه بجنديين آخرين عند باب حجرة القيادة بدا أن قذافتيهما غير معبأتين بالرصاص، إذ لم يطلقا الرصاص علينا، فقتلناهما وهما يحاولان تثبيت السنكي. ثم اندفعنا إلى داخل كابينة الربان. ولكن عندما دفعنا الباب لنفتحه، سمعنا انفجارًا من الداخل، وقد انكفأ الربان برأسه فوق خريطة الأطلنطي الملصقة بالنضد، وأبصرنا الكاهن واقفًا إلى جانبه وفي يده مسدس ينبعث منه الدخان بجانب ذراع الربان. أما الضابطان البحريان كلاهما، فقبض عليهما البحارة، وهكذا بدا أن المؤامرة كلها قد نفذت تمامًا.

كانت حجرة القيادة بجانب كابينة الربان، فتجمعنا فيها وجلسنا على المقاعد نتحدث معًا، إذ كنا في غمرة جنون الإحساس بحريتنا مرة أخرى. وكان حول حوائط تلك الحجرة خزانات صغيرة، ففتح «ويلسون» ـ هو الكاهن المزيف ـ خزانة منها وأخرج اثنتي عشرة زجاجة من نبيذ الشري بني اللون، كسرنا أعناقها وأفرغنا محتوياتها في أكواب. وبينما نحن كذلك، إذ بصوت إطلاق الرصاص يدوي، دون سابق إنذار. أطلق الجنود رصاص قذَّافاتهم على زملائنا، وامتلأ الصالون بالدخان حتى تعذرت علينا الرؤية وراء النضد. وبعد أن انقشع الدخان، شاهدنا المكان فوضى. كان «ويلسون» وثمانية آخرون يتلوون واحدًا فوق الآخر على الأرض، واختلط الدم بالنبيذ البني فوق النضد، الأمر الذي يقشعر له بدني كلما فكرت فيه بعد ذلك. فخارت عزائمنا حتى خيل إليَّ أننا لا بد أن نستسلم، لولا «برندرجاست» الذي أخذ يصرخ كالثور واندفع نحو الباب يتبعه كل من كان حيًّا منا، فجرينا خارجًا حيث أبصرنا الملازم أول وعشرة من رجاله واقفين عند مؤخرة السفينة. وكانت فتحة التهوية التي فوق النضد مفتوحة قليلًا، فأخذ الجنود يطلقون علينا الرصاص من خلالها، فانقضضنا عليهم قبل أن يعيدوا تعبئة قذَّافاتهم بالرصاص، غير أنهم وقفوا وقفة الرجال رغم انتصارنا عليهم. انتهى كل شيء في مدى خمس دقائق. يا إلهي! هل توجد في العالم كله مجزرة مثل مجزرة تلك السفينة؟ كان «برندرجاست» أشبه بشيطان ثائر، شرع يمسك الجنود بيديه كما لو كانوا أطفالًا، ويلقي بهم في اليم، أحياء أو أمواتًا. وكان هناك جندي باسل برتبة عريف، قد جرح جرحًا بليغًا، ولكنه رغم هذا استمر يسبح عسى أن يأتي الوقت الملائم

فيبقي على حياته، غير أن أحد رجالنا أشفق عليه ونسف مخه. وعندما انتهى القتال، لم يبقَ هناك أحد من الأعداء سوى حارسَي السجن والضباط البحريين، والطبيب.

دارت المعركة الكبرى مع هؤلاء، وخرج كثير منا ونحن نشعر باستعادة حريتنا. ومع ذلك، فلم تكن لنا رغبة في أن توصم نفوسنا بالقتل. يختلف قتل الجنود المسلحين بالقذائف عن قتل هؤلاء وهم عُزل من السلاح. قال ثمانية منا، خمسة مساجين وثلاثة بحارة، إنهم لا يرون تنفيذ ذلك. ولكن ما من شيء كان يثني «برندرجاست» ومن معه عن عزمهم. فقال «برندرجاست»:

ـ ليس هناك سوى طريق واحد للنجاة، وهو التخلص من كل أعدائنا كيلا يبقى لسان واحد يشهد ضدنا. عليكم إما أن تقاسموا الباقين نصيبهم، وإما أن تأخذوا قاربًا وتغادروا السفينة.

فاخترنا العرض الأخير، إذ برمنا بأعمال القتل هذه كلها، ورأينا أن سيكون هناك ما هو أسوأ قبل تنفيذ ذلك. فزودنا بما يحتاج إليه البحارة في البحر: ناجود من الماء، وصندوق من الحبال وآخر من البسكويت، وبوصلة، وخريطة. وأوصانا بأن نقول إننا الناجون من بحارة سفينة ركاب تحطمت في عرض البحر عند خط عرض 15 درجة شمالًا وخط طول 25 درجة غربًا، ثم أطلق القارب. وهكذا انفصلنا عن السفينة وعنهم.

والآن أكتب أكثر أجزاء قصتي مدعاة إلى الدهشة، يا ولدي العزيز. كان البحارة قد طووا الشراع الأمامي وقت الثوران، ولكنهم عادوا فنشروه ثانية. ولما كانت هناك ريح خفيفة آتية من الشمال والشرق، أخذت السفينة تبتعد عنا ببطء، وشرع قاربنا يرتفع ويهبط مع الأمواج الطويلة. وكنت أنا و«إيفانز» أكثر من في القارب تعلمًا، فجلسنا ندرس الخريطة لنعرف موضعنا عليها، ونقرر إلى أي شاطئ نتجه. كان هذا عملًا شاقًّا، إذ كان كاب دي فير يبعد عنا بنحو 500 ميل إلى الشمال، بينما كان الساحل الأفريقي على مسافة 700 ميل شرقينا. وعلى أي حال، لما هبت الريح إلى الشمال، رأينا أن سيراليون قد تكون أنسب ما نتجه نحوه، فأدرنا مُقدمة قاربنا في ذلك الاتجاه. وكانت السفينة، في ذلك الوقت، قد بعدت عنا مؤخرتها عند جانبنا المواجه للريح.

وفجأة، ونحن ننظر إليها، إذ بنا نبصر سحابة كثيفة من الدخان الأسود تنطلق منها وتخيم كشجرة عملاقة على أفق السماء. وبعد ذلك ببضع ثوانٍ سمعنا صوت انفجار يدوي في آذاننا كالرعد. وبعد أن خفَّت حدة الدخان، لم نرَ أي أثر للسفينة «جلوريا سكوت». وفي لحظة، أدرنا مُقدمة القارب ثانية نحو مكان السفينة ونحن نجدف بكل قوتنا، بينما الضباب المنتشر هناك يبين لنا مسرح تلك الكارثة.

بقينا ساعة طويلة قبل أن نصل إلى ذلك المكان، وخشينا أن يكون قد فات أوان إنقاذ أي شخص. كان هناك قارب ممزق، وبعض الصناديق، وقطع من الأخشاب، تعلو وتنخفض طافيةً فوق الأمواج مبينة الموضع الذي غاصت فيه السفينة. غير أنه لم يكن هناك أي دليل على وجود حياة. فاستدرنا بعيدًا يائسين، فإذا بنا نسمع صرخة استغاثة، وأبصرنا على مسافة منا قطعة من الحطام يرقد فوقها رجل. لما جذبناه إلى داخل القارب، رأيناه بحَّارًا صغير السن اسمه «هدسون»، يعاني من الحروق، وهو منهوك القوى لدرجة أنه لم يروِ لنا ما حدث إلا في صباح اليوم التالي.

يبدو أنه بعد أن غادرنا السفينة، أخذ «برندرجاست» وعصابته يقتلون الأعداء الخمسة الباقين. فقتلوا حارسَي السجن والضابط البحري الثالث، وألقوا بجثثهم في البحر. ثم نزل «برندرجاست» بين السطحين وذبح بيده الطبيب سيئ الحظ. لم يبقَ سوى الضابط البحري الأول الذي كان جريئًا ونشيطًا. فعندما أبصر ذلك المسجون قادمًا نحوه وفي يده السكين القاتلة،



جذبناه إلى داخل القارب

تخلص من قيوده التي خفَّفها قبل ذلك بطريقة ما، واندفع هابطًا تحت السطح إلى العنبر الخلفي.

نزل خلفه اثنا عشر مسجونًا شاهرين مسدساتهم، فوجدوه ممسكًا في يده علبة ثقاب وقد أخرج منها عودًا، وجالسًا إلى جانب ناجود بارود مفتوح. كان واحدًا من مائة ناجود بارود تحملها السفينة. فأقسم ذلك الضابط على أن ينسف السفينة بمن فيها وما فيها إذا تعرض له أي شخص بأي حال من الأحوال. وبعد لحظة حدث الانفجار. هذا، ولو أن «هدسون» كان يعتقد أن الانفجار حدث بسبب رصاصة طائشة أطلقها أحد المساجين على الضابط البحري وليس من الثقاب الذي أشعله ذلك الضابط. ومهما يكن السبب، فهكذا كانت نهاية «جلوريا سكوت» وطائفة الطغاة الذين استولوا عليها.

هذا، باختصار، يا ولدي العزيز، هو تاريخ ذلك العمل المريع الذي اشتركت فيه. وفي اليوم الثاني، التقطتنا سفينة الركاب الكبيرة «هوتسبير» المتجهة إلى أستراليا، والتي لم يجد ربانها مشقة في تصديق أننا الأحياء من سفينة ركاب غرقت. أما وزارة البحرية، فسجلت سفينة النقل «جلوريا سكوت» على أنها مفقودة في البحر، ولم تتسرب

أي كلمة عن مصيرها الحقيقي. وبعد رحلة موفقة، رست السفينة «هوتسبير» على ميناء سِيدني، حيث غيرت أنا و«إيفانز» اسمينا وشققنا طريقنا إلى مواضع الحفر بحثًا عن الذهب، وهناك لم نجد صعوبة في تغيير اسمينا السابقَين وسط كل تلك الحشود الكبيرة المجتمعة هناك والقادمة من جميع دول العالم. لا حاجة بي أن أحكي بقية القصة. جمعنا ثروة طائلة من الحفر عن الذهب، وسافرنا عائدين ثانية إلى إنجلترا كرجلين من أغنياء المستعمرات، واشترينا مزارع ريفية، وقضينا أكثر من عشرين عامًا في حياة هادئة هانئة، آملين في نسيان ماضينا إلى الأبد. ويمكنك أن تتصور مشاعري عندما جاء إلينا ذلك البحَّار اللعين وتعرفت عليه في الحال، ذلك الذي انتشلناه من بين حطام السفينة وأنقذنا حياته! لقد اقتفى أثرنا بطريقة ما، ووطد نفسه على أن يعيش على مخاوفنا. ستفهم الآن، يا ولدي، كيف اجتهدت في إكرامه وإرضائه، ولا بد أنك سترثي من أجل الخوف الذي يملأني الآن بعد أن تركني ذاهبًا إلى ضحيته الأخرى وهو يهدد ويتوعد.

كُتبت في آخر الخطاب عبارة بيدٍ مرتجفة قلَّما يُتمكن قراءة كلماتها:

كتب لي «بيدوس» بالشفرة، أن هـ. باح بكل شيء. ارحمنا، أيها الإله الرحيم!

هذه هي القصة التي قرأتها في تلك الليلة إلى صديقي «تريفور». وأعتقد، يا «واطسون»، أنها في تلك الظروف قصة درامية. فانكسر قلب ذلك الصديق الطيب، ورحل إلى مزارع الشاي في تيراي، حيث علمت أنه جمع ثروة كبيرة. أما عن أمر البحَّار و«بيدوس»، فلم أسمع شيئًا بعد ذلك اليوم الذي كتب فيه «بيدوس» خطاب التحذير. اختفى كل منهما تمامًا، ولم تُقدَّم أي شكوى للبوليس. ويبدو أن «بيدوس» فهم التهديد خطأً على أنه سيفضحه. رؤيَ «هدسون» يتسكع في تلك المنطقة، ويعتقد البوليس أن «هدسون» قتل «بيدوس» واستولى على أمواله. أما أنا شخصيًّا، فأعتقد أن الحقيقة هي العكس تمامًا. أرى من المحتمل جدًّا، أن «بيدوس» أثير إلى درجة الهياج. وإذ اعتقد أن «هدسون» خانه فعلًا وأفشى سره، انتقم لنفسه منه، وهرب من المنطقة بكل ما أمكن أن تقع عليه يده من أموال.

هذه هي حقائق القضية، يا دكتور «واطسون»، وإذا رأيت أنها تفيد مجموعتك، فاعلم أنها تحت أمرك وإذنك، عن طيب خاطر.

تراث عائلة «مسجريف»

لفت انتباهي نشاز في عادات صديقي «شرلوك هولمز». فرغم أنه، من حيث تفكيره، أدق وأضبط البشر جميعًا، ورغم كونه يراعي رقة هادئة معينة في ملبسه، فإنه في ناحية عدم ترتيبه أدواته وأمتعته، أكثر رجل لفت نظر رفيقه في المسكن. ولو أنني، أنا نفسي، لست مثاليًّا في هذه الناحية بالذات، فإن العمل المضطرب في أفغانستان، الذي يأتي في قمة البوهيمية الطبيعية للتكون الخلقي، جعلني أتراخى بما لا يليق برجل الطب. ولكن هناك حدودًا لكل شيء. فعندما أجد رجلًا يضع السيجار في دلو الفحم، والتبغ في الخف الفارسي ناحية الأصابع، ويثبت رسائله التي لم يَرُد عليها بسكين الخطابات في وسط رف الوطيس، عندئذ أضفي على نفسي صفات حميدة. كذلك كنت أرى أن التمرين بالمسدس يجب أن يكون هواية تُمارَس في الخلاء. وعندما يجلس «هولمز»، في إحدى نزعاته الغريبة، على مقعده ذي المتكأين، ومعه مسدسه الدقيق ومائة خرطوشة، ثم يشرع في تزيين الحائط المقابل له بالحروف الوطنية، ينقشها بثقوب الرصاص، فإنني أشعر شعورًا قويًّا بأن جو حجرتنا ومنظرها لم يتحسنا بهذه الحروف إطلاقًا.

تمتلئ حجراتنا دائمًا بالمواد الكيميائية، وببقايا محرزات الجرائم التي دأبَتْ على أن تنتقل إلى أي موضع يعجبها، كالدخول في طبق الزبد أو في الأماكن التي لا نحتاج إليها كثيرًا، غير أن أوراقه كانت شغلي الشاغل. كان يشمئز من إتلاف المستندات، ولا سيما ما كان منها ذا صلة بقضاياه الماضية. ومع ذلك، فمرة واحدة في كل سنة أو سنتين، يخصص جزءًا من نشاطه كي يجلس ويرتب هذه الأوراق. فكما سبق أن قلت إنه إذا بذل مجهودًا جبارًا في قضية ما من قضاياه التي لمع اسمه فيها، فإنه يتبع ذلك الجهد بشيء من التراخي والكسل. فتراه يستلقي على الأريكة أو الفراش، ويمسك قيثارته، وقلما تتحرك كتبه إلا من الأريكة إلى النضد. وهكذا تتراكم أوراقه شهرًا

بعد شهر حتى يمتلئ كل ركن من أركان الحجرات بحزم المخطوطات التي لا يمكن أن تحرق مهما تكن الأسباب، والتي لا يمكن أن تنتقل من موضعها إلا بيد صاحبها. بينما كنا جالسين معًا في إحدى ليالي الشتاء، نصطلي نار الوطيس، اقترحت عليه، بما أنه قد انتهى من إلصاق المقتطفات في دفتره العادي، أن يقضي الساعتين التاليتين في ترتيب حجرتنا وجَعْلها أكثر صلاحية للسُّكنى. فلم يستطع إنكار عدالة مطلبي. وهكذا ذهب إلى حجرة نومه بوجه مكتئب، ثم رجع منها يجر خلفه صندوقًا ضخمًا من المعدن إلى أن وضعه في وسط الحجرة. وجلس القرفصاء أمام الصندوق، على مقعد منخفض، وفتح غطاءه إلى الخلف. وكان بوسعي أن أرى الصندوق مملوءًا إلى ثلثه بحُزم من الأوراق مربوطة بشريط أحمر، في حزم متفرقة.

قال وهو ينظر إليَّ بعينين فيهما بعض الدهاء:

ـ هنا ما يكفي من القضايا، يا «واطسون». أعتقد أنك إذا عرفت كل ما لديَّ في هذا الصندوق، لطلبت مني إخراج بعضه بدلًا من وضع حزم أخرى فيه.

قلت:

ـ إذن، فهل فيه سجلات أولى قضاياك؟ كم أرغب في تدوين مذكرات عن تلك القضايا!

قال وهو يرفع حزمة بعد أخرى بعناية ورفق:

ـ نعم، يا ولدي، عملت هذه كلها في أوليات مُدد اشتغالي بهذه المهنة، وقبل أن يمجدني كاتب تاريخ حياتي. لم تكلل جميع هذه القضايا بالنجاح يا «واطسون»، بل يوجد بينها بعض مشاكل بسيطة. فهذه الحزمة سجل مقتل «تارليتون»، وهذه قضية «فامبري» تاجر الخمور، وهذه مغامرة العجوز الروسية، وهذه القضية الفريدة للعكاز المصنوع من الألومنيوم، وهذه الحزمة سجل كامل لعامل النادي «ريكوليتي» وزوجته المقيتة. وهذه، آه! هذه حقًّا، شيء عبارة عن بحث صغير.

أدخل «هولمز» ذراعه إلى قاع الصندوق، وأخرج صندوقًا خشبيًّا صغيرًا ذا غطاء منزلق كالصناديق التي تحفظ فيها لعب الأطفال. وأخرج قطعة ورق مغضنة ومفتاحًا من النحاس الأصفر عتيق الطراز، وإصبعًا خشبية تتصل بكرة من الدوبارة، وثلاثة أقراص معدنية عتيقة صدئة.

سألني «هولمز» وهو يبتسم لِما رآه في وجهي من ملامح معبرة، فقال:

ـ والآن، يا غلامي، ماذا تستنتج من هذه المجموعة؟

ـ إنها مجموعة غريبة.

ـ غريبة جدًّا، وأغرب منها قصتها التي لا بد أن تذهلك أكثر منها.

ـ إذن، فلهذه البقايا تاريخ؟

ـ نعم، لها تاريخ أي تاريخ، جعلها هي نفسها، تاريخًا.

ـ ماذا تعني بذلك؟

أخرج «شرلوك هولمز» تلك البقايا ووضعها عند حافة النضد، ثم نهض فجلس على كرسيه وأعاد النظر إليها، وفي عينيه بريق الرضا.

قال:

ـ هذه هي كل ما تبَقى عندي ليُذكرني بحلقة «تراث عائلة مسجريف».

سبق لي أن سمعت «هولمز» يذكر هذه القضية أكثر من مرة، ولو أنني لم أتمكن من معرفة التفاصيل.

قلت:

ـ يسرني أن ترويها لي.

قال بخبث:

ـ وتترك القمامة لي؟ لن يتطلب الترتيب جهدًا كبيرًا، يا «واطسون». ولكن يسرني أن تضيف هذه القضية إلى مذكراتك، إذ فيها بعض نقاط تجعلها طريفة جدًّا في تاريخ الجريمة لهذه المملكة، أو كما أعتقد لجميع دول العالم. فمجموعة أعمالي التافهة لا تكون كاملة إلا إذا تضمنت هذه القضية بالغة الغرابة.

قد تتذكر قضية السفينة «جلوريا سكوت»، وحديثي إلى الرجل التعيس الذي أخبرتك بمصيره الذي حوَّل اتجاهي إلى هذه المهنة فصارت كلَّ عمل حياتي. تراني الآن وقد صار اسمي ذائع الصيت في طول البلاد وعرضها. وعندما صار الجمهور والقوات الحكومية يعرفونني بأنني محكمة الاستئناف الأخيرة في القضايا المشكوك فيها. وحتى عندما عرفتني في بادئ الأمر في القضية التي تعرفها بموضوع «دراسة بالدم»، كونت علاقات كثيرة، ولو أنها ليست ممتازة. قلما يمكنك أن تدرك كيف وجدتها أولًا، وكم كان عليَّ أن أنتظر قبل نجاحي في تقدمي.

عندما جئت إلى لندن لأول مرة، أقمت في شقة بشارع مونتاج عند منعطف الطريق المؤدي إلى المتحف البريطاني، وبقيت هناك أملأ أوقات فراغي، أدرس جميع فروع تلك العلوم التي قد تجعلني أكثر كفاءة. ومن آنٍ إلى آخر، كانت تقابلني قضايا يأتيني بها زملائي الطلبة، إذ كثر الحديث عني وعن طرق تفكيري وأنا في السنة النهائية بالجامعة. وثالث هذه القضايا هي قضية «تراث عائلة مسجريف». وبفضل المتعة التي أثارتها سلسلة الأحداث الطريفة والنتائج العظمى التي ثبت أنها في خطر، تقدمت نحو المركز الذي أحظى به الآن.

كان «ريجينالد مسجريف» طالبًا بكلِّيتي نفسها، وكانت تربطني به صداقة بسيطة، ولم يكن هو، على العموم، ذائع الصيت بين زملائه، ولو أنه بدا لي دائمًا أن ما يعتبره الإنسان فخرًا، ليس في الحقيقة سوى محاولة لتغطية منتهى عدم الثقة بالنفس الطبيعية. كان في مظهره رجلًا من النوع بالغ الأرستقراطية، نحيل الجسم، شامخ الأنف، واسع العينين، يتحلى بأخلاق عالية. كان في الحقيقة سليل أسرة من أعرق الأسر في المملكة، ولو أن الفرع الذي نبت منه انفصل عن الجذع الأصلي لأسرة «مسجريف» الشمالية في وقت ما من القرن السادس عشر، وركز نفسه في وسترن ساسكس، حيث يحتمل أن يكون بيت هيرلستون هو أقدم البيوت المسكونة في المملكة. يبدو أن شيئًا عن مسقط رأس هذا الرجل قد التصق به. ولم أنظر قَطُّ إلى وجهه الحاد ممتقع اللون، ولا إلى وضعية رأسه، دون أن أفكر في وجود علاقة بينه وبين البواكي الرمادية، والنوافذ المقسمة بحواجز، وكل الحطام المحترم لعهد الإقطاع. كنا نتحدث بين آونة وأخرى، وبوسعي أن أتذكر أنه عبَّر، ذات مرة، عن إعجابه البالغ بطرق ملاحظاتي واستدلالي.

لم أرَه مدة أربع سنوات، إلى أن جاء ذات صباح إلى حجرتي في شارع مونتاج. لم يتغير إلا تغيرًا طفيفًا، في ملابس شاب أنيق، والحق يقال إنه كان أنيقًا في ملبسه دائمًا، ويحتفظ بالأخلاق

الهادئة نفسها التي كانت تميزه من قبل.

وبعد أن حييته بيدي ورحبت به ترحيبًا حارًّا، قلت له: «كيف الأحوال معك يا «مسجريف»؟». قال: «من المحتمل أنك سمعت عن مقتل والدي المسكين. مات منذ سنتين، ومنذ ذلك الوقت تحملت مسؤولية ممتلكات هيرلستون وأنا عضو نائب عن منطقتي، لذا تجد حياتي مشغولة باستمرار. ولكني أفهم، يا «هولمز»، أنك استخدمت تلك المواهب التي طالما أدهشتَنا بها، في أغراض عملية». قلت: «نعم، أعيش الآن بواسطة ذكائي». «يسرني أن أسمع ذلك، وستكون نصيحتك لي الآن عظيمة القيمة. حدثت أمور غريبة جدًّا في هيرلستون، ولم يستطع البوليس إلقاء أي ضوء على الموضوع. الحقيقة أنها مسألة غريبة جدًّا ومتعذرة التفسير».

يمكنك أن تتصور، يا «واطسون»، مبلغ شوقي ولهفتي إلى الاستماع إليه، لأن الفرصة الوحيدة التي كنت أنتظرها طوال شهور راحتي، قد جاءتني تسعى وصارت في متناول يدي. كنت أؤمن في أعماق قلبي بأنني سأنجح حيث أخفق غيري، وها هي فرصة اختبار نفسي ماثلة أمامي. صحت: «أرجوك، أخبرني بالتفاصيل».

جلس «ريجينالد مسجريف» قبالتي، وأشعل سيجارة قدمتها إليه. قال: «يجب أن تعلم أنني رغم كوني أعزب، فإنني ملزم بالاحتفاظ بعدد كبير من الخدم في هيرلستون، لأنه قصر قديم مترامي الأطراف ويحتاج إلى عناية كبيرة. كما أنني أقيم دائمًا حفلات منزلية في شهور صيد الدراج. لذا عندي باستمرار ثماني خادمات وطاهٍ وسفرجي وخادمان وغلام صغير. وهذا، بالطبع، بخلاف خدم الإسطبل والحديقة.

ومن بين خدمنا رجل يدعى «برنتون» يعمل سفرجيًّا، وله



«ريجينالد مسجريف»

عندنا أطول مدة. كان مُدرسًا شابًّا صغير السن، فلما تعطل عن العمل أخذه والدي سفرجيًّا عنده. والحقيقة أنه رجل عظيم النشاط والشخصية، وسرعان ما صار رجلًا بالغ القيمة وسط الخدم في منزلنا. وكان كامل الرجولة، أنيق الهندام، ذا جبين شامخ. ورغم كونه معنا لمدة عشرين سنة، فإن عمره الآن لا يزيد على أربعين سنة. ويتحلى بميزات شخصية ومواهب خارقة، فيستطيع أن يتكلم عدة لغات، ويعزف على جميع الآلات الموسيقية تقريبًا. ومن الغريب أنه قانع بمثل هذا العمل طوال العشرين سنة، ولكني أعتقد أنه مرتاح ولا يفكر في تغيير عمله، وأن سفرجي هيرلستون هذا شخصية لا ينساها كل من زارنا.

غير أن هناك عيبًا واحدًا في ذلك الشخص المثالي. فهو «دون جوان»، وبوسعك أن تتصور أن دورًا كهذا ليس من الصعب القيام به في منطقة ريفية هادئة. لما كان متزوجًا، كان حسن السير والسلوك في هذه الناحية. ولكنه منذ أن ترمل سبب لنا متاعب لا حد لها. فمنذ بضعة أشهر راودنا الأمل في أنه سيستقر مرة أخرى، إذ خطب «راشيل هويلز» خادمتنا الثانية. غير أنه تركها وخطب

«جانيت تريجالا» ابنة رئيس شؤون الصيد. و«راشيل» هذه فتاة طيبة جدًّا، رغم مزاجها سريع الإثارة الخاص بأهل ويلز. وأخيرًا أصيبت بلمسة حادة من الحمى المخية، فأخذت تدور في أنحاء البيت، وظلت كذلك حتى أمس. كانت هذه أول دراما في هيرلستون، ولكن حدثت دراما أخرى محت الدراما الأولى من عقولنا، مقدمتها عار «برنتون» السفرجي بمنزلنا، وفصله من الخدمة.

حدث هذا كما يأتي: قلت إن ذلك الرجل بالغ الذكاء، وإن هذا الذكاء المفرط نفسه هو الذي كان سبب خرابه، إذ يبدو أنه ساقه إلى فضول لا يمكن إشباعه، عن أشياء لا تخصه أو تهمه في كثير أو قليل. لم تكن عندي أي فكرة عن أي مدى سيحمله هذا، حتى فتحت عيني إلى ذلك بمحض الصدفة.

قلت إن البيت واسع، وفي إحدى ليالي الأسبوع الماضي ـ في ليلة الخميس، لأكون أكثر دقة ـ انتابني أرق أقضَّ مضجعي ونفى النوم عن عيني، إذ تناولت، بغباء، فنجانًا من القهوة السوداء الثقيلة بعد العشاء. وبعد أن ناضلت ضد ذلك الأرق حتى الساعة الثانية صباحًا، لم أجد فائدة من محاولة النوم. ولذا، نهضت وأوقدت شمعة بهدف إكمال رواية كنت بدأت قراءتها. وكان الكتاب في حجرة البلياردو. وعلى هذا، لبست الروب وخرجت لإحضاره.

لكي أصل إلى حجرة البلياردو كان عليَّ أن أهبط سلمًا، ثم أعبر ممرًّا يؤدي إلى المكتبة وإلى حجرة الأسلحة. وبوسعك أن تتصور دهشتي حينما نظرتُ خلال الممر ورأيت وميض نور ينبعث من باب المكتبة المفتوح. وكنت قد أطفأت المصباح بنفسي، وأقفلت الباب قبل ذهابي إلى الفراش. وبطبيعة الحال، اتجه أول تفكيري إلى وجود لصوص. فإن حوائط هيرلستون مزينة بالكثير من التحف والأسلحة الأثرية. فتناولت بلطة حربية من بين تلك الأسلحة، وتركت شمعتي خلفي، وتسللت على أطراف أصابع قدميَّ خلال الممر حتى وصلت إلى الباب المفتوح.

لَشد ما كانت دهشتي عظيمة عندما أبصرت «برنتون» السفرجي جالسًا في المكتبة وقد ارتدى ثيابه كاملة، ومعه قطعة ورق تبدو كالخريطة نشرها فوق ركبتيه، وأمالَ جبهته إلى الأمام فوق يده في تفكر عميق. وقفت وقد أُخرِس لساني من فرط الدهشة وأنا أراقبه خلال الظلام. وكانت على طرف النضد شمعة رفيعة تلقي ضوءًا ضعيفًا يكفي لأن يريني أنه كان مرتديًا كامل ملابسه. وفجأة عندما نظرت إليه نهض مِن على مقعده، وسار إلى مكتب في أحد جوانب المكتبة، ففتحه، وجذب أحد الأدراج فأخرج منه ورقة بيضاء، ثم عاد إلى مقعده وبسط الورقة بجانب الشمعة على

حافة النضد، وأخذ يدرسها بإمعان كبير. فثارت كرامتي للعبث بأوراق الأسرة على هذا النحو، فتقدمت خطوة إلى الأمام، فأحس بي «برنتون»، ورفع بصره إلى أعلى فأبصرني واقفًا في مدخل المكتبة، فهب واقفًا على قدميه وقد شحب لون وجهه خوفًا وهلعًا، فدس الورقة التي كان يدرسها في صدره.

قلت: «إذن، فهل هكذا تجازينا على ثقتنا بك؟ ستترك خدمتي غدًا».

فانحنى ونظر إليَّ نظرة رجل سُحق تمامًا، ومر بجانبي دون أن يتفوه بكلمة واحدة. وكانت الشمعة لا تزال على النضد، فتطلعت على ضوئها لأرى الورقة التي أخذها «برنتون» من الدرج. ولَشد ما كانت دهشتي بالغة عندما رأيت أنها شيء عديم القيمة، بل هي نسخة من قائمة أسئلة وأجوبة من قديم الزمان تُعرف باسم «تراث عائلة مسجريف». إنها نوع من تقاليد أسرتنا يجب أن يعرفها كل فرد في أسرة «مسجريف» عندما يبلغ سن الرشد، إنها شيء ذو أهمية خاصة لا يفيد منها كثيرًا علماء الآثار، مما يُكتب على الحلل الحربية والدروع، ولكنها ليست ذات قيمة عملية على الإطلاق.

قلت: «من الخير أن نرجع إلى الورقة فيما بعد». قال في شيء من التردد: «إذا رأيتَ ضرورة لها». ولكي أستطرد في حديثي، أقفلتُ المكتب بالمفتاح الذي تركه فيه «برنتون»، ثم استدرت لأنصرف، فإذا بي أفاجأ بالسفرجي «برنتون» يعود ويقف أمامي. قال في صوت بُح من عواطفه الثائرة: «سيدي، يا «مستر مسجريف»! لا يمكنني احتمال العار، يا سيدي، أنا الذي كنت أفخر بما يزيد على مركزي في الحياة. سيقتلني العار، وسيكون دمي على رأسك، سيكون كذلك إذا دفعتني إلى اليأس. فإذا لم يمكنك الاحتفاظ بي بعدما حدث، إذن، فإكرامًا لخاطر الله، اسمح لي بأن أقدم لك إخطارًا بأنني سأترك العمل من تلقاء نفسي بعد شهر، كما لو كنت أنا الذي أطلب ذلك. يمكنني أن أحتمل هذا، يا «مستر مسجريف»، ولكن لا يمكنني احتمال أن أُطرد أمام جميع من أعرفهم جيدًا، ويعرفونني حق المعرفة». قلت: «إنك لا تستحق أي اعتبار، يا «برنتون». كان مسلكك شائنًا جدًّا. ومع ذلك، فبما أن لك مدة طويلة في أسرتي، فلا أرغب في أن أعلن عارك على رؤوس الأشهاد. ولكن شهرًا كثير. اترك العمل بعد أسبوع، وقدِّم أي سبب تراه». صاح في صوت ينم عن اليأس: «أسبوع واحد، هذا قليل جدًّا، يا سيدي! اجعله أسبوعين على الأقل». كررت قولي:

«أسبوع واحد فحسب، وبذا تعتبر نفسك قد عوملت بمنتهى الرحمة واللين». انصرف «برنتون»، وقد طأطأ رأسه حتى بلغ صدره، كرجل محطم، بينما أطفأت النور وقفلت راجعًا إلى حجرتي.

ظل «برنتون» مواظبًا تمامًا على عمله طوال اليومين التاليين، ولم أُلمح قَطُّ إلى ما حدث منتظرًا في شيء من الفضول لأرى كيف سيغطي عاره. غير أنه لم يظهر في الصباح الثالث كعادته بعد الفطور ليتلقى تعليماتي لذلك اليوم. وأثناء مغادرتي حجرة المائدة، التقيت بالخادمة «راشيل هويلز». وقد أخبرتك بأنها شفيت حديثًا من مرضها، وكانت شاحبة اللون جدًّا وذابلة. فاعترضت على رجوعها إلى العمل قائلًا: «يجب أن تذهبي إلى الفراش، يا «راشيل»، ولا تعودي إلى العمل إلا بعد أن تستعيدي قوتك». نظرت إليَّ نظرة غريبة حتى إنني بدأت أشك في أن عقلها ما زال متأثرًا. قالت: «أنا قوية جدًّا، يا «مستر مسجريف»». قلت: «سنرى ماذا يقول الطبيب. يجب أن تكُفي عن العمل الآن. وعندما تهبطين إلى الدور الأرضي، أخبري «برنتون» بأنني أود رؤيته». قالت: «السفرجي انصرف!». «انصرف! إلى أين انصرف؟». «انصرف دون أن يراه أحد، وليس موجودًا في حجرته. نعم، انصرف!».

قالت هذا وارتمت على الحائط تطلق صرخة إثر صرخة من الضحك، بينما اعتراني الذعر لتلك النوبات الهستيرية المفاجئة، فاندفعت نحو الجرس أطلب النجدة. ثم حملت الفتاة إلى حجرتها وهي ما زالت تصرخ وتنتحب، بينما أخذت أستفسر عن «برنتون». لا شك في اختفائه على الإطلاق. فسريره لم ينَم فيه، ولم يُرَ برفقة أي فرد منذ أن ذهب إلى حجرته في الليلة الماضية. ومع هذا، فمن الصعب معرفة كيف يمكن أن يكون قد غادر البيت، إذ وُجدت النافذتان مغلقتين، كما وجد الباب مغلقًا كذلك، في الصباح. وكانت ملابسه وساعته، وحتى نقوده نفسها، موجودة في الحجرة، غير أن الحُلة السوداء التي اعتاد ارتداءها، لم تكن في الحجرة، وكذلك اختفى خُفاه، بيد أن حذاءه كان موجودًا. إذن، فإلى أين يمكن أن يكون ذلك السفرجي «برنتون» قد ذهب أثناء الليل، وماذا عن مصيره الآن؟

وبالطبع، فتشنا البيت وخارجه دون أن نعثر له على أثر. والبيت، كما قلت، بيت قديم، عبارة عن متاهة متعددة الممرات، ولا سيما الجناح الأصلي غير المسكون الآن. وفتشنا كل حجرة وكل ركن، حتى السطح، دون أن نكتشف أقل علامة تدل على ذلك الرجل المختفي. لا أصدق أبدًا أنه انصرف تاركًا أمتعته بالحجرة. وبناء عليه، أين يمكن أن يكون؟ استدعيت البوليس المحلي، ولكن

دون فائدة. وكان المطر قد نزل في الليلة السابقة، ففحصنا الأرض المغطاة بالحشيش والممرات التي حول البيت من جميع الجهات. ظلت الحال على ذلك النحو حتى وقع حادث جديد ذهب بانتباهنا بعيدًا عن اللغز الأصلي.

ظلت «راشيل هويلز» مريضة لمدة يومين، واشتد بها المرض حتى اعترتها نوبات هستيرية جعلتنا نستخدم ممرضة لتجلس معها ليلًا. وفي الليلة الثالثة بعد اختفاء «برنتون»، لما وجدتِ الممرضة أن مريضتها نائمة جدًّا، أغفت قليلًا وهي جالسة على المقعد. وعندما استيقظت في الصباح الباكر، وجدت الفراش خاليًا ولا أثر للمريضة. فأيقظوني في الحال، فخرجت على الفور مع الخادمين نبحث عن الفتاة الغائبة. لم يكن من الصعب معرفة الاتجاه الذي سارت فيه، فبدأنا من تحت نافذتها مقتفين آثار قدميها فوق الحشيش إلى حافة الطين، حيث اختفت الآثار بجانب الممر المبلط بالحصى والمؤدي إلى الفناء. وإن عمق البحيرة في هذه النقطة ثماني أقدام، وبوسعك أن تتصور مشاعرنا عندما رأينا أن آثار قدمَي الفتاة المخبولة المسكينة قد انتهت عند حافة البحيرة، وبالطبع فتشنا البحيرة على الفور وبدأنا العمل لاستعادة بقايا الجثة، ولكننا لم نستطع العثور على أي أثر للجثة. إلا إننا أخرجنا إلى السطح شيئًا ما كنا لنتوقع وجوده هناك على الإطلاق، وجدنا كيسًا من القماش بداخله كتلة من المعدن صدئة وعديمة اللون، وعدة قطع من الحصى أو الزجاج باهت اللون. وهذا الشيء الغريب هو كل ما أمكننا العثور عليه من الطين. وعلى الرغم من بحثنا بالأمس في كل موضع ممكن، وبسؤال كل من أمكننا سؤاله، فإننا لم نعرف مصير «راشيل هويلز» ولا «ريتشارد برنتون». هذا وإن بوليس المقاطعة حائر تمامًا، لذا جئت إليك، يا «مستر هولمز»، كملجأ أخير».

يمكنك أن تتصور لهفتي، يا «واطسون»، وأنا أصغي إلى تسلسل الأحداث الغريبة هذه. وحاولت ربط كل حادث منها بالآخر، وإيجاد خط سير يمكن أن يقودنا إلى شيء. اختفى السفرجي، واختفت الخادمة. أحبت الخادمة السفرجي، ولكن نشأ بعد ذلك سبب جعلها تمقته. كان يجري في عروقها دم أهل ويلز العصبيين وسريعي الانفعال. ثارت بعنف بعد اختفائه مباشرة، وألقت في البحيرة كيسًا يحتوي على بعض الأشياء الغريبة. كل هذه عوامل يجب أن يُنظر إليها بعين الاعتبار. ومع ذلك، فما من عامل منها يصل إلى لب الموضوع. ما هي نقطة الابتداء في سلسلة الأحداث هذه؟ وهنا نهاية هذا الخط الشائك.

قلت: «يجب أن أرى، يا «مسجريف»، تلك الورقة التي ظن خادمك السفرجي أنها جديرة بدراسته لها، والمخاطرة بوظيفته من أجلها». قال: «إن تراثنا هذا عمل لا معنى له، ولكن، على الأقل، له قيمته كتراث للأسرة يجب الاحتفاظ به. ولديَّ هنا نسخة من هذا التراث، وهو عبارة عن قائمة من الأسئلة والإجابات عنها، ربما يروق لك أن تلقي عليها نظرة». ناولني «مسجريف» هذه الورقة الغريبة، التي معي هنا الآن، يا «واطسون»، وهي الآثار القديمة والتراث العتيق، الذي يجب على كل شخص ينحدر من أسرة «مسجريف» أن يدرسه بإمعان عندما تؤول إليه ممتلكات العائلة. سأقرأ لك الأسئلة وأجوبتها كما هي بالضبط:

ـ ملك مَن هي؟

ـ ملك مَن ذهب.

ـ مَن سينالها؟

ـ مَن سيأتي.

ـ ماذا كان الشهر؟

ـ السادس مِن البداية.

ـ أين كانت الشمس؟

ـ فوق أشجار البلوط.

ـ أين كان الظل؟

ـ تحت أشجار الدردار.

ـ كيف قيست؟

ـ شمالًا بعشرة وبعشرة، وشرقًا بخمسة وبخمسة، وجنوبًا باثنين وباثنين، وغربًا بواحد وبواحد. وهكذا أسفل.

ـ ماذا ندفع فيه؟

ـ كل ما نملك.

ـ لماذا ندفعه؟

ـ من أجل خاطر الثقة.

وقد أبدى «مسجريف» ملاحظته قائلًا: «لا تحمل النسخة الأصلية أي تاريخ، ولكنه في هجاء القرن السابع عشر. ومع ذلك، فإني أخشى أن تكون قليلة العون في حل هذا اللغز». قلت: «إنها، على الأقل، تعطينا لغزًا آخر أكثر إمتاعًا من اللغز الأول. وقد يكون حل أحد اللغزين مفتاحًا لحل اللغز الآخر. وأرجو أن تعذرني يا «مسجريف» إن قلتُ إن خادمك السفرجي هذا يبدو لي رجلًا بالغ المهارة وذا بصيرة أوضحَ من بصيرة عشرة أجيال من سادته». قال «مسجريف»: «قلما أستطيع متابعتك، فلا تبدو لهذه الورقة أي أهمية عملية». «ولكنها تبدو لي عملية جدًّا، ويخيل إليَّ أن «برنتون» كانت له النظرة نفسها. من المحتمل أنه رأى تلك الورقة قبل الليلة التي أمسكتَه فيها». «هذا ممكن جدًّا. لم نعمل أي احتياط لإخفائها». «الأمر ببساطة، أنه أراد، كما يخيل إليَّ، أن يراجع النظرة الأخيرة في ذاكرته، في تلك الليلة. كان معه، كما أفهم، نوع من الخرائط أو الرسوم، وأخذ يقارنها بذلك المخطوط، فدسه في جيبه عندما باغتَّه». «هذا صحيح. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل بهذا التراث العتيق لأسرتنا، وما معنى هذه الخزعبلات غير المفهومة؟». قلت: «لا أعتقد أننا سنجد صعوبة كبيرة في معرفة ذلك. ومن بعد إذنك، نستقل أول قطار إلى ساسكس، ونتعمق أكثر في هذه المسألة على الطبيعة».

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه كنا كلانا في هيرلستون. من المحتمل أنك رأيت صورًا وقرأت أوصافًا لذلك المبنى العتيق الشهير، لذا سأحصر كلامي على أنه مبنيٌّ على شكل الحرف «L». تُمثل الذراع الطويلة فيه المبنى الحديث، أما الذراع القصيرة فتمثل النواة العتيقة لهذا القصر، وهي التي نشأ منها الجزء الحديث. وقد نقش التاريخ 1607 في وسط الباب ذي الزخرف العلوي الثقيل. غير أن الخبراء اتفقوا أن الكتل الخشبية والحوائط المبنية بالحجارة، من تاريخ أقدم من هذا التاريخ بكثير. وبسبب الحوائط بالغة السُّمك والنوافذ الصغيرة جدًّا، قامت الأسرة في القرن الماضي ببناء الجناح الجديد. ويستعمل القسم العتيق الآن كمخازن وأقبية، في حالة استعماله، وأحيانًا كان يُترك بغير استعمال. ويحيط بالبيت متنزه جميل ذو أعمال خشبية دقيقة. أما البحيرة التي أشار إليها زبوني فتقع بجوار الطريق، على مسافة مائتي ياردة من هذا المبنى.

كنت مقتنعًا تمامًا، من قبل، يا «واطسون»، أنه لا توجد هنا ثلاثة ألغاز منفصلة، بل لغز واحد. وإذا ما قرأت تراث أسرة «مسجريف» قراءة صحيحة، أمسكت في يدي المفتاح الذي سيقودني إلى الحقيقة فيما يختص بكلٍّ من السفرجي «برنتون» والخادمة «راشيل هويلز». فركزت كل نشاطي في فهم ذلك التراث. لماذا تلهف ذلك الخادم إلى معرفة كنه تلك الصيغة؟ من الجلي أنه تلهف لأنه رأى فيها شيئًا فات كل تلك الأجيال من النبلاء الريفيين، كما توقع الحصول منها على منفعة شخصية. ماذا كان ذلك التراث، وكيف أثر في مصيره؟

ظهر لي بوضوح، من قراءة هذا التراث، أن تلك المقاسات لا بد أن تصل إلى بقعة بعينها تتعلق بها بقية ما جاء بهذا التراث. فإذا استطعنا معرفة هذه البقعة، صرنا في مركز يوصلنا إلى معرفة السر، الذي وجد «مسجريف» العجوز أن من الضروري وضعه في مثل هذه الصورة الغريبة. هناك دليلان يمكننا الابتداء بهما: شجرة بلوط، وشجرة دردار. أما شجرة البلوط فلا جدال فيها البتة، لأنها أمام البيت مباشرة، وعلى الجانب الأيسر من الطريق، وسط أشجار البلوط. إنها من أجمل وأروع الأشجار التي رأيتها في حياتي.

فقلت ونحن نمر إلى جانبها بالعربة: «هل كانت هذه الشجرة موجودة عندما خُطط تراثكم؟» قال: «كانت هناك أيام الغزو النورمانديِّ، ويبلغ محيطها ثلاثًا وعشرين قدمًا». قلت: «هل عندكم أشجار دردار قديمة؟». «كانت هناك شجرة عتيقة جدًّا، غير أن صاعقة أحرقتها منذ عشر سنين، فقطعنا ما تبَقى من جذوعها». «أيمكنك معرفة مكانها؟». «نعم، بكل تأكيد». «هل هناك أشجار دردار أخرى؟». «لا أشجار دردار قديمة، لكن عندنا كثيرًا من أشجار الزان». «أريد أن أرى أين كانت».

كنا راكبين عربة بعجلتين، فقادني إليها مضيفي، في الحال، قبل أن نذهب إلى البيت. رأيت آثار شجرة وسط الحشيش حيث كانت شجرة الدردار، وكانت في منتصف المسافة، تقريبًا، بين شجرة البلوط والبيت. وبدا أن تحقيقي يتقدم. فقلت: «أظن من المستحيل معرفة ارتفاع شجرة الدردار». قال: «يمكنني أن أذكره لك من فوري. كان ارتفاعها أربعًا وستين قدمًا». فقلت مدهوشًا: «وكيف عرفتَه؟». «اعتاد مدرسي العجوز أن يعطيني تمرينات في حساب المثلثات تلزمني بقياس الارتفاعات. فعندما كنت صبيًّا، قست ارتفاع كل شجرة وكل مبنى في ضيعتنا».

هذه نقطة حظ لم أكن أتوقعها. فإن المعلومات التي أحتاج إليها تصلني بسرعة أكثر مما أتوقع.

قلت: «أخبرني، ألم يسألك «برنتون»، في يوم ما، هذا السؤال؟». نظر إليَّ «ريجينالد مسجريف» مدهوشًا، وقال: «إنك تُذكرني الآن بهذا الشيء. فمنذ بضعة أشهر، سألني عن ارتفاع تلك الشجرة، إذ حدث جدال بسيط بينه وبين السائس».

كان هذا خبرًا رائعًا، يا «واطسون»، إذ أوضح لي أنني أسير في الطريق الصحيح. فنظرت إلى الشمس فكانت منخفضة في السماء، فقدرت أنها في أقل من ساعة ستكون فوق أعلى أغصان شجرة البلوط العتيقة. وبذا أمكن تحقيق شرط من الشروط التي تضمنتها قائمة التراث. وإن ظل شجرة الدردار يجب أن يعني الطرف البعيد للظل، وإلا فلماذا اختير الجذع لأن يكون مرشدنا؟ كان عليَّ في ذلك الوقت أن أجد موضع نهاية الظل عندما تظهر الشمس من شجرة البلوط.

ـ لا بد أن كانت هذه عملية صعبة يا «هولمز»، لا سيما وأن شجرة الدردار ليست هناك.

ـ على الأقل، كنت أعلم أنه ما دام «برنتون» استطاع معرفة ذلك، فمن المؤكد أنني سأعرفه أنا أيضًا. وعلى أي حال، لم تكن هناك أي صعوبة. فذهبت مع «مسجريف» إلى حجرة مكتبه، وقطعت لنفسي وتدًا من الخشب، ربطت فيه قطعة طويلة من الدوبارة، جعلت بها عقدة عند كل ياردة، وأخذت قصبة صيد سمك طولها ست أقدام بالضبط، ورجعت مع زبوني إلى الموضع الذي كانت فيه شجرة الدردار. وكانت الشمس تكاد تلمس قمة شجرة البلوط. فثبتُّ القصبة من طرفها وحددت اتجاه الظل، وقسته، فكان تسع أقدام.

وبالطبع صار القياس سهلًا. فإذا كان عودٌ طوله ست أقدام يُحدث ظلًّا طوله تسع أقدام، فإن شجرة ارتفاعها أربع وستون قدمًا تُحدث ظلًّا طوله ست وتسعون قدمًا في الاتجاه نفسه. فقست المسافة التي بلغت حائط البيت تقريبًا حيث غرست وتدًا في تلك النقطة التي تُحدد نهاية الظل. ويمكنك أن تتخيل فرحي، يا «واطسون»، عندما أبصرت انخفاضًا في الأرض على مسافة بوصتين من وتدي، فعرفت أن هذه هي العلامة التي وضعها «برنتون» عندما قاس المسافة، وأنني ما زلت أحذو حذوه.

أخذت أخطو من نقطة الابتداء هذه بعد أن حددت الجهات الأصلية ببوصلة أحملها دائمًا في جيبي، فعشر خطوات لكل قدم إلى الشمال أخذتني إلى اتجاه موازٍ لحائط البيت، فعينت هذه النقطة بوتد، ثم خطوت بعناية خمس خطوات إلى الشرق، واثنتين إلى الجنوب، فصرت عند عتبة الباب القديم نفسها. وتقدمت خطوتين غربًا لأصِل إلى الممر المبلط بالحجارة. إذن، فهذا هو المكان الذي حدده التراث.

لم أشعر في حياتي بمثل قشعريرة الإخفاق هذه، يا «واطسون». فلمدة لحظة بدا لي أن هناك خطأ في حساباتي. سقطت أشعة الشمس الغاربة على أرض الممر تمامًا، وأمكنني أن أرى الحجارة الرمادية العتيقة البالية بفعل الأقدام. كانت ملتحمة معًا تمامًا، وبالطبع لم تُحرَّك لعدة سنين طوال. لم يعمل «برنتون» هنا. فطرقت الأرض فأحدثت رنينًا بطولها كله. ولم يكن هناك أي علامة لشرخٍ أو شق. غير أن، لحسن الحظ، «مسجريف»، الذي بدأ يقدر معنى عملي، والذي كان وقتئذ متحمسًا مثلي، أخرج المخطوط من جيبه ليراجع حساباتي. صاح «مسجريف» يقول: «لقد نسيت عبارة «وهكذا أسفل»». ظننت أننا يجب أن نحفر، ولكنني عرفت لتوي أنني أخطأت فَهْم معناها، فصحت أقول: «إذن فهناك بدروم تحت هذا المكان». «نعم، يوجد بدروم قديم قِدم البيت أسفل هذا الممر، نصل إليه بهذا الباب».

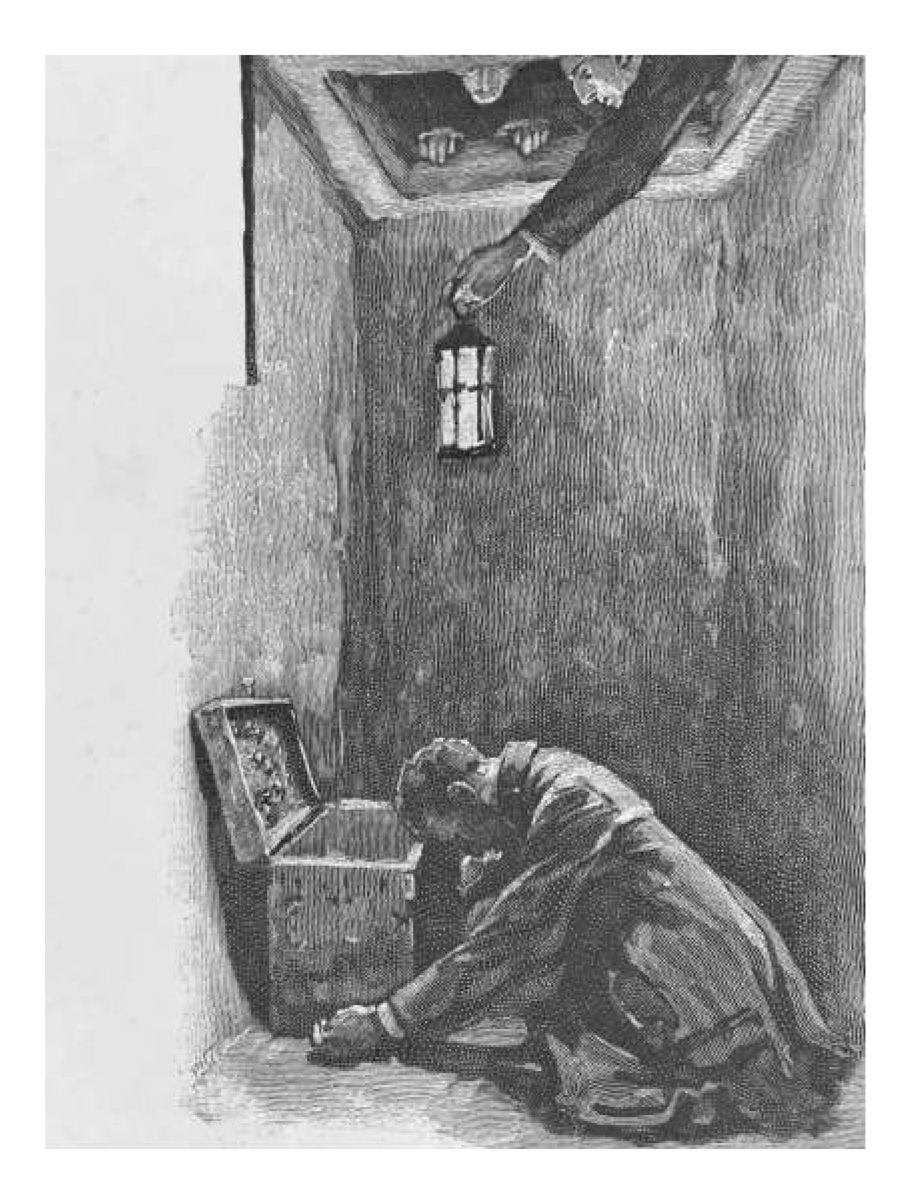
هبطنا سلمًا حجريًّا حلزونيًّا، وأشعل رفيقي عود ثقاب أوقد به فانوسًا كان فوق ناجود في الركن. وفي لحظة، اتضح لنا أننا أمام المكان الحقيقي، وأننا لم نكن الوحيدَين اللذين زارا هذا المكان حديثًا.

استُعمل هذا البدروم لتخزين الأخشاب، ولكن الأوراق المهملة التي ألقيت هناك متناثرة على أرض البدروم، أزيحت جانبًا وكُومت لتترك موضعًا في الوسط، حيث وجدنا غطاء ضخمًا من الحجر بوسطه حلقة حديدية صدئة رُبطت فيها كوفية راعٍ. صاح زبوني يقول: «أقسم بـ«جوف» على أن هذه كوفية «برنتون». رأيتها عليه مرارًا. ماذا كان يفعل هنا ذلك الوغد؟».

وتبعًا لاقتراحي، استُدعي اثنان من بوليس المقاطعة ليحضرا معنا. وعندئذ حاولت رفع الغطاء بالكوفية، ولكني لم أستطع سوى زحزحته قليلًا، فساعدني أحد الكونستابلين، ورفعنا الغطاء أخيرًا، ووضعناه جانبًا. فإذا بجُب مظلم تحته، نظرنا فيه جميعنا، بينما ركع «مسجريف» بجانبه وأدلى الفانوس إلى أسفل الجُب.

كان ذلك الجُب عبارة عن حجرة صغيرة عمقها نحو سبع أقدام، مربعة الشكل، طول ضلعها أربع أقدام، في أحد جوانبها صندوق خشبي مصفح بالنحاس الأصفر، وقد فُتح غطاؤه ذو المفصلات، وبه هذا المفتاح عتيق الطراز بارزًا من القفل. ويحيط بالصندوق من الخارج طبقة من التراب والطين، وقد أكل السوس الخشب حتى نما بداخله بعض الأُشْنة. وجدنا على قاع الصندوق عدة أقراص معدنية متناثرة، من الجلي أنها نقود قديمة، تشبه الأقراص التي معي هنا. لكن الصندوق لم يحوِ شيئًا آخر.

إلى تلك اللحظة، لم تكن لدينا فكرة عن ذلك الصندوق العتيق، إذ تسمرت عيوننا على الهيكل القابع إلى جانبه. كان جسم رجل يرتدي حُلة سوداء، وقد جثا على ركبتيه وجبهته داخل الصندوق، وذراعاه على جانبَي الصندوق. سحبَتْ هذه الوضعة كل الدم الراكد إلى وجهه. وما كان لأي فرد أن يتعرف عليه بملامحه التي في لون الكبد، إلا من طوله وثيابه وشعره التي كانت كافية، عندما رفعت الجثة خارجًا، لكي يعرف «مسجريف» أنها جثة السفرجي الغائب. كان ميتًا منذ بضعة أيام، ولكن



كان جسم رجل

لم يكن به أي جروح أو كدمات لتُبين كيف لقي حتفه الفظيع. وبعد أن نُقلت الجثة من البدروم، كنا لا نزال نواجه مشكلة لا تقل فظاعة عن هذه.

أعترف يا «واطسون»، بأنني، إلى هذا الحد، أعتبر نفسي قد أخفقت في التحقيق. كنت أعتمد على حل المسألة بمجرد أن اكتشفت الموضع المبيَّن في التراث. لكني ما زلت جاهلًا ما كانت الأسرة تخفيه بمثل هذا الاحتياط البارع. صحيح أنني ألقيت ضوءًا على مصير «برنتون». ولكن

يجب أن أبين كيف لقي هذا المصير الشنيع، وأي دور لعبته تلك المرأة، التي اختفت، في هذا الموضوع. فجلست على ناجود في الركن، وفكرت في الأمر كله بإمعان.

وإنك لتعرف طرقي في مثل هذه القضايا، يا «واطسون». أضع نفسي في مكان ذلك الرجل، وأتخذ لنفسي مبلغ ذكائه، وأحاول أن أتخيل كيف كنت أتصرف في مثل تلك الظروف. بسط «برنتون» الأمور بذكائه الممتاز. فلم تكن هناك حاجة إلى فرض أي فروض للمعادلة الشخصية كما كوَّنها الفلكيون. عرف «برنتون» أن الغطاء الحجري ثقيل، فلا يقدر على رفعه شخص واحد بمفرده. لم يستطع الحصول على مساعدة من الخارج، حتى ولو كان هناك شخص يثق فيه، دون فتح الأبواب والتعرض لخطر اكتشاف أمره. إذن، فلو استطاع الحصول على هذه المساعدة من شخص داخل البيت. ولكن ممن يطلب هذه المساعدة؟ كانت تلك الفتاة «راشيل هويلز» مخلصة له. وإن الرجل ليجد دائمًا أنه من الصعب عليه إدراك أنه خسر محبة امرأة مهما يكن قد أساء معاملتها. فليحاول إصلاح ذات البين مع «راشيل هويلز»، بقليل من المداعبة، ثم يستخدمها شريكة له. فيأتيان معًا أثناء الليل إلى البدروم، وتكفي قوتاهما المتحدتان لرفع ذلك الغطاء الثقيل. وإلى هنا يمكنني أن أتابع أفعالهما كما لو كنت قد رأيتهما فعلًا.

ولكن رَفْع ذلك الحجر كان ثقيلًا عليهما، وأحدهما رجل والأخرى امرأة. فماذا يفعلان لكي يتمكنا من إنجاز ذلك العمل؟ وماذا كنت أفعل أنا نفسي؟ فنهضت من مقعدي، وأخذت أفتش جيدًا في ذلك المكان خلف الأوراق المهملة المبعثرة على الأرض. وفي الحال، عثرت على ضالتي المنشودة: قطعة من الخشب طولها نحو ثلاث أقدام، وفي أحد أطرافها تسنين بسيط، بينما ضغطَتْ عدة قطع على الجوانب وعُلقت بها، كما التحمت بها بقوة. ومن الجلي أنهما عندما سحبا الحجر إلى أعلى، وضعا بعض الشظايا الخشبية في الشق حتى صارت الفتحة كبيرة لكي يزحف خلالها شخص، ثم حافظا على بقائها مفتوحة بقطعة من الخشب وضعاها بالطول، فضغط عليها الغطاء الحجري فأحدث بها تسنينًا عند الطرف السفلي. وإلى هذا الحد كان تخيلي صحيحًا أيضًا.

والآن، كيف يتسنى لي أن أبدأ في تصور هذه الدراما التي حدثت وقائعها في منتصف الليل؟ ومن الجلي أن شخصًا واحدًا هو الذي نزل من الفتحة إلى الجُب، وهو «برنتون»، ولا بد أن الفتاة بقيت خارج الفتحة. بعد ذلك فتح «برنتون» الصندوق، ومن المعقول أنه أعطاها محتويات الصندوق، إذ لم نجد به تلك المحتويات. ثم، ماذا حدث؟

أي نار انتقام متأججة تلك التي اشتعلت فجأة في نفس تلك المرأة الكلتية سريعة الانفعال عندما أبصرت الرجل الذي داس على كرامتها وظلمها، وربما ظلمها بأكثر مما نعلم، في قواها؟ أم هل قطعة الخشب انكسرت صدفة فوقع الغطاء في مكانه وحبس «برنتون» داخل الجُب الذي صار قبره؟ هل هي مذنبة بعدم إعلان مصيره؟ أم هل ضربةٌ من يدها هي التي أزاحت الخشبة فأرسلت الغطاء هابطًا إلى مكانه؟ ليكن ما كان، فإنني لا أزال أتصور صورة تلك المرأة ممسكة بكنوزها وهي تجري بجنون صاعدة السلم الحلزوني والصرخات المكتومة تدوي في أذنيها، وكذلك صوت طرق اليدين على الغطاء الحجري الذي خنق حبيبها فلفظ روحه.

هذا هو السر في وجهها الممتقع وأعصابها المضطربة ونوبات ضحكاتها الهستيرية في الصباح التالي. ولكن ماذا كان في الصندوق؟ وماذا فعلت به؟ بالطبع، لا بد أن كانت به قطعة من المعدن العتيقة، والحصى الذي أخرجه زبوني من الطين. رمتْ كل ذلك في البحيرة، في أول فرصة، لتُزيل آخر أثر لجريمتها.

جلستُ لا أتحرك مدة عشرين دقيقة، وأنا أفكر في الأمر. وما زال «مسجريف» واقفًا بوجه شاحب جدًّا، يهز فانوسه وينظر إلى أسفل داخل ذلك الجُب.

أمسك «مسجريف» بعض الأقراص التي كانت في الصندوق، وقال: «هذه هي العملة التي سكها «تشارلز الأول»، وبذا ترى أننا كنا على حق في تحديد تاريخ التراث!».

طرأ على بالي معنى محتمل للسؤالين الأولين من ذلك التراث، فقلت: «قد نجد شيئًا آخر لـ«تشارلز الأول». أرني محتويات الكيس الذي أخرجته من الطين».

صعدنا إلى حجرة مكتب «مسجريف»، فوضع أمامي تلك الأنقاض التي كانت بالكيس. وكان بوسعي أن أفهم السبب في أنه اعتبرها عديمة الأهمية عندما نظر إليها، إذ كان المعدن أسود اللون تقريبًا، والأحجار عديمة البريق ومعتمة. ولكن عندما دلكت إحداها في كمي، تألقت في تجويف يدي المظلم كأنها شرارة. وكانت قطعة المعدن على هيئة حلقة مزدوجة، ولكنها التوت وتغير شكلها.

قلت: «يجب أن تضع في ذهنك أن الحفل الملكي الذي أقيم في إنجلترا بعد موت الملك وهرب الموجودون بعده مباشرة، ربما دفنوا كثيرًا من أشيائهم الثمينة في مكان ما بهدف العودة

لأخذها وقت السلم». فقال صديقي: «كان سلفي «السير رالف مسجريف» فارسًا شهيرًا، وكان اليد اليمنى للملك «تشارلز الثاني» في تجوالاته». قلت: «أحقيقي هذا! إذن، أعتقد أن هذا يمدنا بآخر حلقة كنا بحاجة إليها. والآن، لا بد أن أهنئك على امتلاكك لآثار بالغة القيمة الحقيقية، وذات قيمة أعظم كعاديَّات تاريخية، ولو أن هذا حدث بمأساة». فقال مدهوشًا: «وما هي إذن هذه الآثار؟». «إنها ليست أقل من تاج ملوك إنجلترا القديم». «التاج!». «بالضبط. تمعن فيما يقوله التراث: «ملك مَن هذا؟ ملك مَن ذهب». كان هذا بعد إعدام «الملك تشارلز». «ومَن سينالها؟ مَن سيأتي». وهذا هو «تشارلز الثاني»، الذي تنبأ بمجيئه. وأعتقد أنه لا شك في أن هذا التاج المحطم والمعوج قد أحاط، فيما مضى، بجباه ملوك إنجلترا». «وكيف جاء إلى البِركة؟». «هذا سؤال تحتاج الإجابة عليه إلى وقت طويل».

وبهذا حررت قائمة بسلسلة الأدلة والنتائج الكثيرة التي كونتها. وجاء الشفق، وأخذ القمر ينير متألقًا في السماء قبل أن تنتهي روايتي. فقال «مسجريف»: «إذن، فكيف حدث أن «تشارلز» لم يحصل على تاجه عندما رجع؟»، ثم وضع هذه البقايا في الكيس. «هأنتذا تضع إصبعك على النقطة الوحيدة التي ربما لا نستطيع توضيحها إطلاقًا. من المعقول أن يكون «مسجريف»، المحتفظ بالسر، قد مات في تلك المدة، ثم ترك هذا المرشد لخلَفه دون أن يفسر له معناه. ومنذ ذلك اليوم إلى الآن، يسلِّم الأب هذا المرشد لابنه، حتى وقع أخيرًا في يد رجل كشف سره وفقد حياته في هذه المغامرة».

هذه هي قصة «تراث مسجريف»، يا «واطسون». ولدى أسرة «مسجريف» التاج، الآن، في هيرلستون. ولو أن هناك إشكالًا قانونيًّا، وسيُدفع مبلغ ضخم قبل السماح لهم باستعادة هذا التاج. وأنا على يقين من أنك إذا ذكرت لهم اسمي، فسيسرهم أن يطلعوك عليه. أما عن تلك المرأة فلم يُسمع شيء، ومن المحتمل أنها غادرت إنجلترا، حاملة نفسها وذكرى جريمتها إلى بلد ما فيما وراء البحار.

قضاة ريجيت

حدثت وقائع هذه القضية قبل أن يشفى صديقي «شرلوك هولمز»، تمامًا، من الإجهاد البالغ في ربيع سنة 1887. وما زالت قضية شركة سومطرة بالأراضي المنخفضة، والخطط الضخمة للبارون «موبرتويس»، حديثة جدًّا في أذهان الجمهور، ومتصلة اتصالًا وثيقًا جدًّا بالشؤون السياسية والمالية، إلى حد لا يمكنها أن تشكل معه موضوعًا ملائمًا لمجموعة القصص هذه. ولكنها أدت، بطريق غير مباشر، إلى مسألة فريدة ومعقدة، هيأت لصديقي فرصة عرض قيمة سلاح جديد من بين الأسلحة الكثيرة التي شن بها معركته ضد الجريمة طوال حياته.

بالرجوع إلى مذكراتي، وجدت أنني في الرابع عشر من أبريل تلقيت برقية من ليون تقول إن «هولمز» راقد في السرير مريضًا بفندق «دبلونج». ولم تمضِ أربع وعشرون ساعة حتى كنت في حجرته بالفندق. واطمأنت نفسي عندما علمت أنه ليس في أعراض مرضه ما ينذر بالخطر. إلا إن بنيته الحديدية قد تداعت تحت ضغط التحقيق الذي امتد إلى أكثر من شهرين، عمل خلالهما ما لا يقل عن خمس عشرة ساعة في اليوم. وفي أكثر من مرة استمر يعمل لمدة خمسة أيام متواصلة ليلًا ونهارًا كما أكد لي. ولكن انتصاره في عمله لم ينقذه من رد فعل ذلك الإجهاد الفظيع. وبينما كانت أوروبا تدوي باسمه، وحجرته مملوءة إلى نصفها ببرقيات التهنئة، وجدته فريسة لأسوأ انهيار عصبي. وحتى علمه بأنه نجح حيث أخفق البوليس في ثلاث دول، وبأنه تغلب على أعظم نَصاب مثقف في أوروبا، لم يكن كافيًا ليوقظه من ذلك الانهيار.

بعد ذلك بثلاثة أيام كنا معًا ثانية في شارع بيكر، ولكن كان من الجلي أن صحة زميلي ستتحسن إن قضى فترة ما في جو غير جو لندن. كما أن فكرة قضاء أسبوع في الريف وقت فصل الربيع ستكون ذات فائدة لي أنا شخصيًّا. فإن صديقي الكولونيل «هايتر» الذي أشرفت على علاجه

في أفغانستان، قد اشترى بيتًا قرب ريجيت بمقاطعة صري. وكثيرًا ما وجه إليَّ الدعوة لزيارته في ذلك البيت. وذكر في آخر دعوة منه أنه يسره جدًّا أن أصحب معي صديقي «شرلوك هولمز» في زيارتي له. احتاج الأمر إلى قليل من الدبلوماسية، غير أنه لما علم «هولمز» بأن صديقي أعزب، وأنه ستكون له مطلق الحرية هناك، وافق على خطتي. وبعد أسبوع من عودتنا من ليون، كنا تحت سقف بيت الكولونيل في ريجيت. وكان «هايتر» هذا جنديًّا مسنًّا لطيف المعشر شاهَد الكثير في الدنيا. وسرعان ما وجد، كما كنت أتوقع، أن بينه وبين «هولمز» كثيرًا من الصفات المشتركة.

جلسنا مساء يوم ذهابنا، في حجرة أسلحة الكولونيل، وقد تمدد «هولمز» على الأريكة، بينما أنا و«هايتر» نتفرج على مجموعة أسلحته.

فقال «هايتر» فجأة:

ـ بالمناسبة يا دكتور «واطسون»، سآخذ معي أحد هذه المسدسات إلى الدور العلوي، فربما استدعى الأمر استعماله في حالة الخطر.

قلت:

ـ خطر!

ـ نعم، وقع حادث سرقة روَّع المنطقة كلها أخيرًا، إذ دخل اللصوص بيت «المستر أكتون» العجوز، أحد قضاة مقاطعتنا، يوم الاثنين الماضي. ورغم عدم حدوث خسائر كبيرة، فإن اللصوص ما زالوا طليقين.

أدار «هولمز» عينيه نحو الكولونيل، وقال:

ـ أمَا من قرينة أو دليل؟

ـ لا شيء حتى الآن، ولكن المسألة تافهة. إنها إحدى الجرائم الصغيرة التي تبدو تافهة جدًّا، فلا تستحق انتباهك، يا «مستر هولمز»، بعد تلك القضية الدولية العظمى.

لم يهتم «هولمز» بهذا الإطراء، ولو أن ثغره افترَّ عن ابتسامة عبَّرت عن سروره.

ـ هل صاحبت السرقة ظاهرة هامة؟

ـ كلا، وإنما فتش اللصوص المكتبة ولم يسرقوا إلا القليل جدًّا نظير مجهودهم الكبير ذاك. قلبوا المكتبة كلها رأسًا على عقب. فتحوا الأدراج، وألقوا محتويات الخزانات على الأرض. فكان كل ما سرقوه هو نسخة قديمة من «هوميروس» من تأليف البابا، وشمعدانان مطليان بالفضة، وثقل خطابات من العاج، وبارومتر صغير من خشب البلوط، وكرة دوبارة.

قلت مستغربًا:

ـ يا لها من تشكيلة غريبة!

ـ من الواضح جدًّا أن اللصوص أخذوا كل ما استطاعت أيديهم أن تقع عليه.

تمتم «هولمز» ببضع كلمات وهو مستلقٍ على الأريكة.

قال:

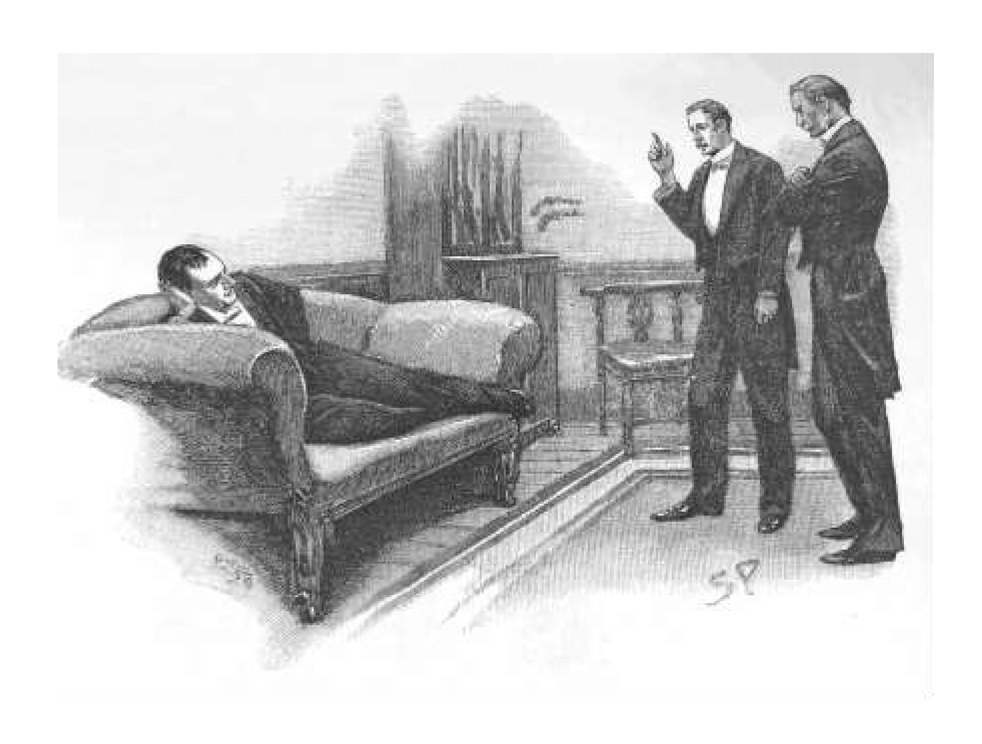
ـ يجب على بوليس المقاطعة أن يستنتج شيئًا من هذا. من الجلي أن...

لكني رفعت إصبعي محذرًا:

ـ أنت هنا للراحة، يا زميلي العزيز، إكرامًا للسماء. لا تبدأ بمسألة جديدة، وما زالت أعصابك محطمة.

هز «هولمز» كتفيه، ونظر إلى الكولونيل نظرة إذعان. وتحول مجرى الحديث إلى موضوعات أقل خطرًا.

ومع ذلك، فقد قُدر لكل جهودي واحتياطاتي المهنية أن تضيع هباء. ففي الصباح التالي فرضت المسألة نفسها علينا بطريقة لم نستطع معها تجاهلها، واتخذت زيارتنا الريفية طابعًا لم يتوقعه أي واحد منا. فبينما نحن نتناول طعام الإفطار، إذ بسفرجي الكولونيل يندفع داخلًا وهو يرتجف هلعًا.



رفعت إصبعي محذرًا

قال وهو يلهث:

ـ هل سمعت الخبر الجديد يا سيدي، عن أسرة «كننجهام»؟

قال الكولونيل، وفنجان القهوة بيده في الهواء:

ـ سرقة؟

ـ قتل!

صفَّر الكولونيل، وقال:

ـ بحق «جوف»! من الذي قُتل، إذن؟ أهو القاضي أم ابنه؟

ـ لا هذا ولا ذاك يا سيدي، إنه «وليم» سائق عربتهما. أطلقت عليه رصاصة أصابت قلبه، فلم يتكلم بعد ذلك.

ـ من أطلق عليه الرصاص؟

ـ اللص، يا سيدي. وهرب كالسهم. اختفى تمامًا. دخل من نافذة البهو، فانقض عليه «وليم»، فلقي حتفه، حفاظًا على أملاك سيده.

ـ متى؟

ـ في الليلة الماضية، يا سيدي، في قرابة الساعة الثانية عشرة مساء.

فقال الكولونيل ببرود وهو يجلس لإكمال طعام إفطاره:

ـ سنذهب إلى هناك حالًا.

وعندما انصرف السفرجي، استأنف الكولونيل كلامه قائلًا:

ـ يا له من عمل شنيع! إنه خادم القاضي العجوز «كننجهام»، وهو شخص بالغ الأدب، سيحزن عليه القاضي حزنًا عميقًا، إذ كان في خدمته منذ عدة سنوات، وكان أمينًا. ومن الجلي أن القاتل هو اللص نفسه الذي سرق بيت «أكتون».

وقال «هولمز» وهو يفكر:

ـ وسرق تلك المجموعة الفريدة؟

ـ بالضبط.

ـ يا للعجب! ستتمخض هذه القضية عن كونها أبسط مسألة في الدنيا، ولكنها على أي حال غريبة بعض الشيء، أليس كذلك؟ فإن عصابة من اللصوص تعمل في مقاطعة، لا بد أن تغير مسرح عملياتها، فلا تقوم بعمليتين في المنطقة نفسها في خلال بضعة أيام. فعندما تكلمت عن الاحتياط في الليلة الماضية، مر بخاطري أنه من المحتمل أن تكون هذه آخر أبرشية في إنجلترا كلها يهتم بها لص أو لصوص. وهذا يعني أنني سأعلم الكثير فيما بعد.

فقال الكولونيل:

ـ يخيل إليَّ أن هذا عمل شخص من المنطقة نفسها. وفي هذه الحال، يكون بيت «أكتون» وبيت «كننجهام» هما المكانان اللذان يقصدهما السارق، لأنهما أضخم مبنيين في هذه الجهة.

ـ وأغناهما؟

ـ نعم، يجب أن يكونا كذلك، ولكن توجد بينهما قضية منذ عدة سنوات، امتصت دم كليهما، على ما أظن. يطالب «أكتون» العجوز بملكيته لنصف مزرعة «كننجهام»، وظل المحامون يعملون في تلك القضية بكل ما أوتوا من جهد.

فقال «هولمز» وهو يتثاءب:

ـ إذا كان اللص أحد الأوغاد المحليين، فلن تكون هناك صعوبة في القبض عليه. حسنًا، يا «واطسون»، لا أنوي أن أتدخل.

فتح السفرجي الباب وقال:

ـ المفتش «فورستر»، يا سيدي.

ومفتش البوليس هذا، رجل صغير السن، أنيق الهندام، حاد الوجه، قال وهو يدخل الحجرة:

ـ صباح الخير يا كولونيل «هايتر». آمل في ألا أكون متطفلًا، ولكننا سمعنا أن «المستر هولمز» القاطن في شارع بيكر، موجود في ضيافتك هنا.

أشار الكولونيل بيده نحو صديقي، فانحنى له المفتش «فورستر»:

ـ فكرنا في أنك ربما تتدخل في هذه القضية، يا «مستر هولمز».

فضحك «هولمز» وقال:

ـ الأقدار ضدك، يا «واطسون».

كنا نتحدث عن هذا الأمر قبيل أن تأتي، أيها المفتش. ربما أمكنك أن تخبرنا ببعض التفاصيل.

استند «هولمز» بظهره إلى الخلف في مقعده بطريقته المعهودة، فعرفت أنه لا أمل في هذه القضية.

قال المفتش:

ـ ليس لدينا أي دليل في مسألة سرقة «أكتون»، ولكن لدينا كثيرًا من الأدلة في هذه القضية الأخيرة، ربما تقودنا إلى شيء. ولا شك في أن اللص واحد في الحالتين. وقد رؤي اللص القاتل وهو يهرب.

ـ مرحى!

ـ نعم، يا سيدي، ولكنه هرب كالظبي بعد أن أطلق الرصاصة التي قتلت «وليم كيروان» المسكين. أبصره «المستر كننجهام» من نافذة حجرة النوم، كما رآه «المستر أليك كننجهام» من الممر الخلفي. وكانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا. عندما انتشر الخبر، كان «المستر كننجهام» قد أوى إلى فراشه منذ لحظة، بينما كان ابنه «أليك» يدخن غليونًا وهو لابس الروب. وقد سمع كلاهما الحوذي «وليم» وهو يصرخ مستغيثًا، فجرى «المستر أليك» إلى الدور الأرضي ليرى ماذا حدث. وكان الباب الخلفي مفتوحًا. وعندما وصل إلى قاعدة السلم، رأى رجلين يتصارعان معًا خارج الباب، وأطلق أحدهما رصاصة على الآخر، فسقط هذا ميتًا، واندفع القاتل عبر الحديقة، وقفز فوق السور النباتي. وأطل «المستر كننجهام» العجوز من نافذة حجرة نومه فأبصر القاتل يجري ويصل إلى الطريق، ولكنه اختفى في الحال من أمام ناظريه. ووقف «المستر أليك» ليرى ما إذا كان بوسعه أن يسعف الرجل المحتضر، وهكذا هرب ذلك الوغد بعيدًا. وزيادة على كونه رجلًا متوسط الحجم ويرتدي ملابس دكناء، فليس لدينا أي دليل شخصي. ولكن تحرياتنا تجري على قدم وساق، فإذا كان ذلك اللص القاتل غريبًا عن المنطقة، فسرعان ما سنعثر عليه.

ـ و«وليم» هذا، ماذا كان يعمل هناك؟ هل قال شيئًا قبل أن يموت؟

ـ ولا كلمة. إنه يعيش في كوخ مع أمه. ولما كان شخصًا يتفانى في خدمة سيده، فيخيل إلينا أنه سار إلى البيت بهدف الاطمئنان عليه. إذ بالطبع، جعلت مسألة «أكتون» هذه، كل شخص يلزم الحذر. لا بد أن السارق فتح الباب عنوة ـ كسر القفل ـ عندما باغته «وليم».

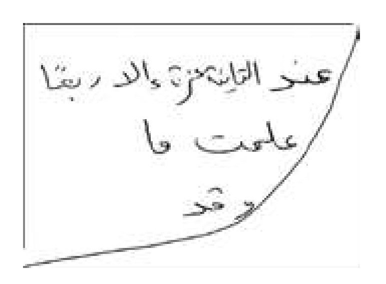
ـ هل قال «وليم» شيئًا لأمه قبل أن يخرج؟

ـ إنها عجوز دردبيس وصماء، ولم نستطع الحصول منها على أي معلومات. وقد أطارت هذه الصدمة نصف عقلها، ولكني أعلم أنها لم تكن في أي وقت على شيء من الذكاء. ومع ذلك، فهناك دليل بالغ الأهمية. انظر إلى هذه!

أخذ المفتش قطعة ورق صغيرة انتُزعت من دفتر مذكرات، وبسطها على ركبته.

ـ وجدت هذه الورقة بين سبابة القتيل وإبهامه. يبدو أنها قطعة من ورقة أكبر. وتلاحظ أن الساعة المذكورة بها هي الساعة نفسها التي لقي فيها ذلك المسكين حتفه. كما ترى أن قاتله قد يكون خطف منه بقية الورقة، أو أنه خطف هذه القطعة من يد القاتل. يبدو من قراءتها أنها موعد.

أخذ «هولمز» قطعة الورق التي ترى هنا صورة طبق الأصل منها.


عند الثانية عشرة إلا ربعًا
علمت ما
وقد

استطرد المفتش يقول:

ـ لنفرض أنها كانت موعدًا، فبالطبع تكون النظرية المعقولة، أنه على الرغم من سمعة «وليم كيروان» هذا وشهرته بالأمانة، فربما كان على اتفاق مع اللص. ربما قابله هناك، وربما ساعده في كسر الباب. وبعد ذلك قد يكونان اختلفا فيما بينهما.

قال «هولمز» الذي كان يفحص الورقة بتركيز بالغ:

ـ هذا الخط ذو أهمية خارقة، هناك أمور أعمق مما كنت أعتقد.

ثم وضع رأسه على يديه، بينما ابتسم المفتش لذلك الأثر الذي أحدثته قضيته على إخصائي لندن الشهير.

قال «هولمز» في الحال:

ـ ملاحظتك الأخيرة في إمكان وجود تفاهم بين اللص والخادم، وأن هذه الورقة قد تكون موعدًا من أحدهما للآخر، ملاحظةٌ وليدة الذكاء البالغ، وليست غير ممكنة. غير أن هذه الكتابة تبدأ...

وضع «هولمز» رأسه على يديه مرة أخرى، وبقي كذلك لبضع دقائق يفكر تفكيرًا عميقًا. وعندما رفع رأسه، أدهشني أن أرى خده ملونًا بالحمرة، وعينيه تتألقان كما كان قبل مرضه. ونهض واقفًا على قدميه بخفته ونشاطه القديمين.

قال:

ـ أقول لك ماذا! أريد أن ألقي لمحة هادئة على تفاصيل هذه القضية. هناك شيء يثير تفكيري كثيرًا. فلو سمحت سأترك صديقي «واطسون» هنا معك، وسأذهب مع المفتش لاختبار حقيقة واحدة أو اثنين من تخيلاتي الصغيرة. سأعود إليكما بعد نصف ساعة.

مرت ساعة ونصف قبل أن يعود المفتش وحده.

قال المفتش:

ـ «المستر هولمز» يذرع أرض الحقل جيئة وذهابًا في الخارج، ويريدنا نحن الأربعة أن نذهب إلى البيت معًا.

ـ إلى بيت «المستر كننجهام»؟

ـ نعم، يا سيدي.

ـ لماذا؟

هز المفتش كتفيه، وقال:

ـ لا أعلم بالضبط، يا سيدي. وفيما بيننا، أعتقد أن «المستر هولمز» لم يتغلب على مرضه بعد. بدا منه مسلك غريب وهو منفعل غاية الانفعال.

قلت:

ـ لا أعتقد أن هناك ما يدعو إلى القلق، فقد جرت العادة على أنني أجد طريقة تفكير في ذلك الجنون الذي يبدو عليه.

فتمتم المفتش يقول:

ـ قد يقول بعض الناس إن هناك جنونًا في طريقه. ولكنه متلهف إلى أن يبدأ تحقيقه. فمن الخير أن نلحق به إذا كنتما مستعدين.

وجدنا «هولمز» في الحقل يسير ذهابًا وإيابًا وذقنه مغروس في صدره، ويداه في جيوب بنطلونه.

قال:

ـ ما أعظم ما تزيد متعة هذه القضية! الحقيقة يا «واطسون»، أن رحلتك هذه قد نجحت نجاحًا واضحًا. سعدت بصباح بهيج.

قال الكولونيل:

ـ علمت أنك ذهبت إلى مسرح الجريمة.

ـ نعم، قمت أنا والمفتش بقليل من الاستكشاف.

ـ هل من نجاح؟

ـ نعم، رأينا بعض الأشياء الممتعة. سأخبرك ماذا فعلنا ونحن سائرون. رأينا أولًا جثة ذلك الرجل منكود الحظ. ومن المؤكد أنه مات من رصاصة كما ذكر.

ـ وهل شككت في ذلك؟

ـ من الخير أن نفحص كل شيء، ففحصنا أشياء كثيرة، ولم يَضِع فحصنا سدى. ثم التقينا بـ«المستر كننجهام» وابنه اللذين أمكنهما تحديد النقطة التي انطلق منها القاتل خلال الحديقة أثناء فراره. وكانت هذه بالغة الأهمية.

ـ بطبيعة الحال.

ـ ثم ألقينا نظرة على والدة «وليم» المسكين، ولم نستطع الحصول منها على أي معلومات بسبب شيخوختها وضعفها.

ـ وما نتيجة تحقيقك؟

ـ عرفت أن الجريمة فيها الكثير من الغرابة، وربما جعلتها زيارتنا هذه أقل غموضًا. أظننا متفقين، يا سيادة المفتش، على أن قصاصة الورق التي وُجدت في يد القتيل وقد كُتب عليها موعد موته بالضبط، بالغة الأهمية.

ـ هي دليل، يا «مستر هولمز».

ـ إنها دليل بالفعل. فالشخص الذي كتب هذه المذكرة، هو الذي أخرج «وليم كيروان» من فراشه في تلك الساعة المتأخرة. ولكن، أين بقية هذه الورقة؟

فقال المفتش:

ـ فحصت الأرض بعناية بهدف العثور عليها، ولكني لم أجدها.

ـ لقد انتُزعت من يد القتيل وهو متشبث بها فتمزقت، وبقي جزء منها في يده. لماذا تلهف شخص ما إلى الحصول عليها؟ لأنها تثبت التهمة عليه. وماذا سيفعل بها؟ المعقول أنه وضعها في جيبه دون أن يفطن إلى أن أحد أركانها بقي في يد القتيل. فلو أمكننا الحصول على بقية هذه الورقة، فمن الجلي أننا نكون قد قطعنا شوطًا طويلًا نحو حل هذا اللغز.

ـ هذا صحيح. لكن كيف نصل إلى جيب القاتل قبل أن نقبض عليه؟

ـ حسنًا، حسنًا! هذا جدير بالتفكير. هناك نقطة واضحة أخرى. أرسلت هذه المذكرة إلى «وليم»، ولا يمكن أن يكون الرجل الذي كتبها قد أخذها إليه بنفسه، وإلا كان بوسعه أن يخبره بمضمون الرسالة شفويًّا. فمن أحضر هذه المذكرة، إذن؟ وهل جاءت بالبريد؟

قال المفتش:

ـ عملت تحقيقًا، فعلمت أن «وليم» تسلم خطابًا بالبريد بعد ظهر أمس. ولكنه مزق مظروف الخطاب.

فصاح «هولمز» وهو يربت على ظهر المفتش:

ـ رائع! هل رأيت ساعي البريد؟ إنه لَمما يسرني أن أعمل معك يا سيادة المفتش. حسنًا، ها هو الكوخ، هل تأتي معي يا كولونيل فأريك مسرح الجريمة؟

مررنا بالكوخ الجميل الذي كان القتيل يعيش فيه، وسرنا في طريق تحفُّ بجانبيه أشجار البلوط، ومنه إلى بيت الملكة «آن» القديم الجميل، الذي يحمل تاريخ معركة «مالبلاكيه» على الزخرف مثلث الشكل فوق بابه. فقادنا «هولمز» والمفتش حوله حتى وصلنا إلى البوابة الجانبية التي يفصلها جزء من الحديقة عن سور النباتات المتسلقة المجاور للطريق، وكان هناك كونستابل واقفًا عند باب المطبخ.

فقال «هولمز»:

ـ افتح الباب، أيها الضابط!

كان «المستر أليك كننجهام» واقفًا على السلم، فأبصر الرجلين يتصارعان في هذا المكان الذي نحن فيه الآن، أما «المستر كننجهام» المسن فكان واقفًا إلى جانب الشباك ـ الثاني إلى اليسار ـ فأبصر القاتل يجري إلى يسار تلك الشجيرة. وكذلك أبصره الابن. وهما متأكدان من ذلك فيما يختص بالشجيرة. ثم خرج «المستر أليك» وركع بجانب الرجل المجروح. والأرض صلبة، كما ترى، ولا آثار أقدام هناك.

وبينما هو يتكلم، جاء رجلان يسيران في ممر الحديقة، حول زاوية البيت، أحدهما مسن ذو وجه قوي عميق التجاعيد، به عينان قويتان. أما الآخر، فصغير السن ذو ملامح باسمة متألقة، يرتدي ملابس جميلة، على نقيض الموضوع الذي جاء بنا إلى ذلك المكان.

نظر هذا الشاب إلى «هولمز» وقال:

ـ أما زلت في هذا التحقيق؟ ظننتكم، أيها اللندنيون، لا تخطئون أبدًا. وعلى أي حال، يبدو أنك لست سريعًا.

فقال «هولمز» بروح طيبة:

ـ يجب أن تعطينا قليلًا من الوقت.

قال «أليك كننجهام» الصغير:

ـ ستحتاج إلى ذلك الوقت. لا أرى أي دليل لدينا على الإطلاق.

فقال المفتش:

ـ لدينا دليل واحد. أعتقد أننا لو وجدناه... يا لرحمة السماء! ماذا جرى يا «مستر هولمز»؟

ففجأة صارت ملامح صديقي مخيفة: دارت عيناه إلى فوق، والتَوت ملامحه من شدة الألم، وأصدر أنَّة مكبوتة سقط في إثرها على وجهه فوق الأرض. وإذ فزعنا لهول تلك المفاجأة وشدة هذه النوبة، حملناه إلى المطبخ وأرقدناه فوق مقعد طويل ضخم وهو يتنفس بصعوبة، واستمر هكذا لبضع دقائق.

ـ سيخبركم «واطسون» أنني ما كدت أشفى من مرض شديد، وأنني ما زلت معرضًا إلى مثل هذه النوبات العصبية المفاجئة.

فقال «كننجهام» العجوز:

ـ هل أرسلك إلى البيت في عربتي؟

ـ بما أنني هنا، فهناك نقطة واحدة يجب أن أتأكد منها. ويمكننا التحقق منها بسهولة.

ـ وما هي؟

ـ يبدو أنه من الممكن أن مجيء «وليم» المسكين لم يكن قبل دخول اللص إلى البيت، وإنما بعده. يبدو أننا لا بد أن نأخذ، كقضية مسلمة، أنه على الرغم من كسر الباب، فإن اللص لم يدخل إطلاقًا.

فقال «المستر كننجهام» برزانة:

ـ أعتقد أن هذا واضح تمامًا. لم يكن ابني «أليك» قد ذهب إلى الفراش بعد، وبالطبع كان لا بد أن يسمع أي شخص يسير في البيت.

ـ أين كان يجلس؟

ـ كنتُ جالسًا أدخن في حجرة النوم.

ـ عند أي نافذة كنت؟

ـ آخر نافذة على اليسار، المجاورة لحجرة أبي.

ـ وكان مصباحاك كلاهما مضاءين بالطبع؟

ـ من دون شك.

فقال «هولمز» مبتسمًا:

ـ هنا بعض نقاط طريفة، أليس من الخارق أن يأتي لص ـ ولص ذو خبرة سابقة ـ ويكسر باب بيتٍ ويدخل في وقت يرى فيه، من الأضواء، أن اثنين من الأسرة ما زالا متيقظين؟

ـ لا بد أنه كان غشيمًا.

فقال «المستر أليك»:

ـ بالطبع، إذا لم تكن هذه القضية غريبة، فما كنا نستدعيك ونطلب منك تفسيرًا. وأما قولك إن الرجل سرق البيت قبل أن يمسكه «وليم»، فقول سخيف. أمَا كنا نجد المكان في فوضى وتضيع منا الأشياء التي يأخذها؟

قال «هولمز»:

ـ هذا يتوقف على نوع تلك الأشياء، يجب أن تتذكر أننا نتعامل مع لص غريب الأطوار، يبدو أنه يعمل بطريقته الخاصة. فمثلًا، انظر إلى المجموعة الغريبة التي سرقها من بيت «أكتون»، ماذا كانت؟ كرة من الدوبارة، وثقل خطابات. ولا أعلم ماذا كانت الأشياء الغريبة الأخرى!

فقال «كننجهام» الأب:

ـ حسنًا، نحن في يديك، يا «مستر هولمز». أي شيء تقترحه أنت أو المفتش، سننفذه بكل تأكيد.

قال «هولمز»:

ـ أولًا، أريد أن تعرض مكافأة منك شخصيًّا، لأن الحكومة قد تستغرق زمنًا طويلًا قبل أن تتفق على مبلغ المكافأة، وقد جرت العادة ألا تتم هذه الأمور بسرعة. هاك صيغة الإعلان عنها إذا لم يكن لديك مانع من التوقيع عليها. أعتقد أن خمسين جنيهًا تكفي.

فقال القاضي «كننجهام»:

ـ أُقدم، بكل سرور، خمسمائة جنيه.

وأخذ الورقة والقلم اللذين قدمهما له «هولمز»، وقال وهو ينظر إلى المستند:

ـ ولكن هذا ليس صحيحًا.

ـ لأنني كتبته بسرعة.

ـ تَرى أنك بدأت تقول: «بما أنه في قرابة الساعة الواحدة إلا ربعًا حدثت محاولة، إلخ»، بينما كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا.

تألمت لذلك الخطأ، لأنني أعرف أن «هولمز» دقيق في مثل هذه الأمور، ولا يمكن أن يخطئ هكذا. من ميزاته أنه دقيق فيما يختص بالحقائق، ولكن مرضه الأخير لا بد أنه أثر فيه. فكانت هذه الحادثة الصغيرة كافية لأن تريني أنه لم يَعُد إلى نفسه بعد. ومن الجلي أنه أُحرج لحظة عندما رفع حاجبيه، وانفجر «أليك كننجهام» ضاحكًا، فصحح الأب الخطأ، وناول «هولمز» الورقة ثانية.

قال الأب:

ـ انشرها بسرعة قدر الإمكان. أظن فكرتك رائعة، يا «مستر هولمز».

وضع «هولمز» قطعة الورق بعناية في دفتر مذكراته، وقال:

ـ والآن، من الخير حقيقة أن نمر جميعًا في البيت كله، معًا، لنتأكد من أن ذلك اللص غريب الأطوار لم يحمل معه شيئًا.

قبل أن يدخل «هولمز»، فحص بعناية الباب الذي كسره اللص. من الجلي أن إزميلًا أو سكينًا قوية، أُدخلت، ودفع القفل إلى الداخل بتلك الأداة. كان بوسعنا أن نرى العلامات في أخشاب الباب حيث أدخلت هذه الأداة.

فسأل قائلًا:

ـ إذن، فأنتم لا تستعملون مزاليج؟

ـ لم نجدها ضرورية على الإطلاق.

ـ هل تحتفظون بكلب؟

ـ نعم، ولكنه مربوط بسلسلة في الجانب الآخر من البيت.

ـ متى يذهب الخدم إلى الفراش؟

ـ في قرابة الساعة العاشرة.

ـ أعلم أن «وليم» يذهب إلى الفراش في تلك الساعة أيضًا.

ـ نعم.

ـ من الطريف أنه كان ساهرًا في تلك الليلة بالذات. والآن، يا «مستر كننجهام»، يسرني إذا تفضلت وأريتنا البيت.

هناك ممر مبلط بالحجارة، يتفرع منه المطبخ بسلم خشبي يصل مباشرة إلى الدور الأول من البيت. ويفتح على الجانب المقابل بسلم ثانٍ أكثر زخرفًا، يأتي من البهو الأمامي. وتفتح حجرة الاستقبال على هذا البهو، وكذلك عدة حجرات نوم، تتضمن حجرة نوم «المستر كننجهام»، وحجرة نوم ابنه. وكان «هولمز» يمشي وئيدًا وهو يلاحظ بدقة تلك المظاهر المعمارية للبيت. وكان بوسعي

أن أعرف من ملامحه أنه وقع على دليل قوي، ومع ذلك فلم يمكنني أن أتصور إلى أي جهة ستقوده هذه الاستدلالات.

قال «المستر كننجهام» في شيء من القلق:

ـ يا سيدي الفاضل، ليس هذا ضروريًّا بالتأكيد. هذه هي حجرتي الواقعة عند آخر السلم، والتي بعدها حجرة ابني. وأترك لحكمك وتقديرك ما إذا كان بوسع اللص أن يصعد إلى هنا دون أن يزعجنا.

قال الابن بابتسامة خبيثة:

ـ يجب أن تبدأ من الأول ثانية، وتبحث عن دليل جديد.

قال:

ـ لا أزال أطلب منك أن تحترمني أكثر من ذلك. فلا بد أن أعرف، مثلًا، المسافة التي تسيطر بها حجرات النوم على واجهة البيت. أفهم أن هذه حجرة نوم ابنك.

وفتح الباب.

ـ وأظن هذه هي الحجرة التي جلس يدخن فيها حينما أطلق الإنذار بالخطر. على أي مكان يطل شباك هذه الحجرة؟

ودخل حجرة النوم وفتح الباب وألقى نظرة حول الحجرة الأخرى.

قال «المستر كننجهام» مختبرًا:

ـ آمل في أن تكون قد اقتنعت الآن؟

ـ أشكرك. أعتقد أنني رأيت كل ما رغبت في رؤيته.

ـ ثم إذا كان من الضروري حقيقة، فيمكننا أن ندخل حجرتي.

ـ إذا لم يكن في هذا تعب كبير لك.

هز القاضي كتفيه، وتقدم الطريق إلى حجرته التي كانت مؤثثة بأثاث بسيط، وكانت حجرة عادية. وعندما دخلناها في اتجاه النافذة، تأخر «هولمز» حتى صرت أنا وهو آخر أفراد المجموعة. وكان عند مؤخرة السرير نضد صغير مربع، عليه طبق برتقال ودورق ماء. وعندما مررنا بجانبه، لَشد ما كانت دهشتي بالغة عندما مال «هولمز» أمامي وأوقع النضد عمدًا بكل ما كان فوقه. تحطم الدورق ألف قطعة، وتدحرجت الفاكهة إلى كل ركن من الحجرة.

فقال ببرود:

ـ عملتَ هذا الآن، وأحدثت كل هذه الفوضى على الطنفسة!

انحنيت في شيء من الارتباك وأخذت ألتقط البرتقال. وقد فهمت من ذلك أنه لأمر ما رغب زميلي في إلصاق التهمة بي. كذلك انحنى الآخرون يجمعون البرتقال ويضعونه في الطبق مرة أخرى، وأقاموا النضد على قوائمه ثانية.

فصاح المفتش يقول:

ـ يا للعجب! إلى أين ذهب «المستر هولمز»؟

اختفى «هولمز».

فقال «أليك كننجهام»:

ـ انتظر هنا لحظة. في رأيي أنه ليس في رشده. تعالَ معي، يا أبي، لنرى أين ذهب!

اندفع الابن وأبوه خارج الحجرة، تاركين المفتش والكولونيل معي، وكل منا يحملق في الآخر.

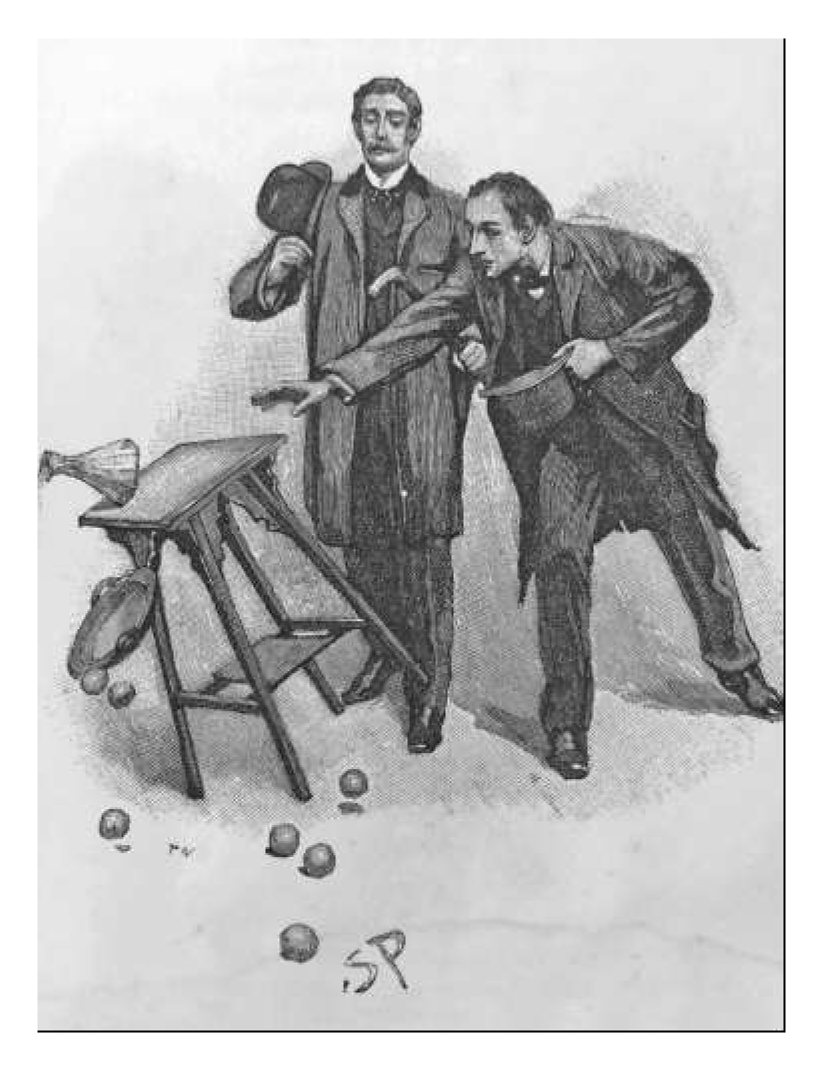
قال المفتش:

ـ أقسم بشرفي على أنني أوافق «المستر أليك». قد يكون هذا تأثير مرضه، ولكن يبدو لي أن...

لم يكمل المفتش كلامه، إذ سمعنا صرخة تدوي فجأة:

ـ أغيثوني! أغيثوني! جريمة قتل!

فتعرفت على صوت صديقي، واندفعت بجنون من الحجرة إلى



أوقع النضد عمدًا بكل ما كان فوقه

البهو. وكان الصراخ قد تحول إلى صياح مبحوح آتٍ من الحجرة التي زرناها أولًا. فاندفعت إلى داخلها وإلى الحجرة التي بعدها. فأبصرت الأب وابنه منحنيين فوق جسم «هولمز» الطريح على الأرض، وقد أمسك الابن بعنق «هولمز» بكلتا يديه، بينما لوى الأب معصمه. وفي لحظة هجمنا عليهما نحن الثلاثة، وأزحناهما بعيدًا عنه. فترنح واقفًا على قدميه شاحب اللون جدًّا وبادي الإنهاك.

صاح «هولمز» يقول:

ـ اقبض على هذين الرجلين، أيها المفتش!

ـ عن أي تهمة؟

ـ تهمة قتل سائق عربتهما «وليم كيروان»!

نظر المفتش حوله مرتبكًا، وقال:

ـ أنا على يقين من أنك لا تقصد هذا حقيقة، يا «مستر هولمز».

فصاح «هولمز» بجدية يقول:

ـ ويحك، يا رجل، انظر إلى وجهيهما!

بالتأكيد، لم أرَ في حياتي اعترافًا بالذنب باديًا على الوجه البشري أوضح مما ظهر في وجهَي هذين الرجلين.

بدا الرجل الكبير متحجرًا ومذهولًا، وقد أُخرس لسانه وبان الذعر قويًّا في ملامح وجهه. أما الابن، فقد ترك كل أسلوب الصلف والعجرفة الذي تميز به، والتَوت ملامحه الجميلة. لم يقُل المفتش شيئًا، بل خرج إلى الباب وأطلق صفارته. فلبى نداءه اثنان من الكونستابلات.

قال المفتش:

ـ ليس لي الخيار، يا «مستر كننجهام» أتعشم أن يسفر هذا كله عن خطأ. ولكنك ترى، أليس كذلك؟ اترك هذا!

قال ذلك وضرب يد الابن، فوقع على الأرض مسدس كان على وشك إطلاقه.

فقال «هولمز»:

ـ احتفظ بهذا.

ووضع قدمه بسرعة على المسدس وقال:

ـ سنجده ذا فائدة عند المحاكمة. هذه، في الحقيقة، هي ما كنا نريدها.

ورفع في يده قطعة صغيرة من الورق، مغضنة.

فصاح المفتش يقول:

ـ بقية الورقة!

ـ بالضبط.

ـ وأين كانت؟

ـ في الموضع الذي كنت متأكدًا من ضرورة وجودها فيه. سأوضح لك كل شيء الآن. أعتقد أن بوسعك أن ترجع الآن، يا كولونيل، أنت و«واطسون»، وسأعود إليكما بعد ساعة على الأكثر. يجب أن أتحدث إلى المسجونين، أنا والمفتش، وستريانى في موعد الغداء بالتأكيد.

كان «شرلوك هولمز» عند وعده، إذ انضم إلينا في قرابة الساعة الواحدة مساء في حجرة تدخين الكولونيل، بصحبة رجل مسن قصير القامة، قدمه إلينا على أنه «المستر أكتون»، الذي كان منزله مسرح السرقة الأولى.

قال «هولمز»:

ـ أردت أن يكون «المستر أكتون» حاضرًا وأنا أشرح لكما هذه القضية، إذ من الطبيعي أن يهتم كثيرًا بالتفاصيل. أخشى، يا عزيزي الكولونيل، أن تأسف على استضافة شخص كثير المشاكل مثلي.

قال الكولونيل، بجدية:

ـ على العكس، فإنني أعتبر زيارتك أعظم ميزة جعلتني أدرس طرق عملك. وأعترف بأنها تفوق كل ما كنت أتوقعه. كما أنني عاجز تمامًا عن معرفة كيفية تَوصلك إلى هذه النتيجة. لم أرَ حتى الآن وجه أي دليل.

ـ أخشى أن يضللك شرحي، ولكني تعودت دائمًا ألا أخفي شيئًا من طرقي، سواء عن صديقي «واطسون» أو عن أي واحد يجد فيها متعة. ولكن، أولًا، بما أنني أعاني من وقوعي على الأرض ومن الإجهاد الذي أصابني في حجرة النوم هناك، فأظن أنني يجب أن أشرب كأسًا من البراندي الخاص بك، يا كولونيل، إذ أُنهكت قوتي أخيرًا.

ـ أتعشم ألا تعاني شيئًا بعد ذلك من هذه النوبات العصبية.

ضحك «شرلوك هولمز» ملء فمه، ثم قال:

ـ سنأتي إلى هذه النقطة حينما يأتي دورها. سأسرد لكم وقائع القضية بترتيبها الصحيح، مبينًا لكم مختلف النقط التي أرشدتني. وأرجو أن تقاطعوني إذا ما رأيتم استدلالًا غير واضح لكم.

من الأهمية القصوى في اكتشاف الجرائم، أن يستطيع المحقق معرفة عدد الوقائع العرضية والوقائع الحيوية، وإلا صار انتباهه مشتتًا بدلًا من أن يكون مُركزًا. وفي هذه القضية، لم يكن في ذهني أدنى شك من البداية في أن مفتاح هذه القضية كلها يقع في قصاصة الورق التي وُجدت في يد القتيل.

وقبل الدخول في هذا الموضوع، أحب أن أوجه انتباهكم إلى أنه إذا كانت رواية «أليك كننجهام» صحيحة، وأن القاتل، بعد أن أطلق الرصاص على «وليم كيروان»، هرب على الفور. فمن الجلي أنه ليس هو الذي انتزع الورقة من يد القتيل، وإذا لم يكن هو الذي انتزعها، فلا بد أن الذي فعل ذلك هو «أليك كننجهام» نفسه. إذ عندما نزل الوالد كان كثيرٌ من الخدم في مكان الجريمة. فالواقعة هنا سهلة جدًّا، ولكن المفتش سها عنها لأنه وضع في ذهنه أنه لا يد لأحد من هؤلاء الوجهاء الريفيين في الجريمة. أما أنا فلا أتعصب لأحد قطعيًّا، وأتتبع بسهولة كل واقعة قد تقودني إلى حقيقة ما. لذلك، فمنذ المرحلة الأولى وجدت نفسي أتساءل عن الدور الذي لعبه «أليك كننجهام».

فحصت ركن الورقة التي أعطانيها المفتش فحصًا دقيقًا، فاتضح لي على الفور أنها جزء من مستند عظيم الأهمية. ها هي، هل تلاحظون الآن شيئًا فيها يعتبر دليلًا في القضية؟

فقال الكولونيل:

ـ منظرها غير منتظم.

فصاح «هولمز» يقول:

ـ يا سيدي العزيز. ما من أقل شك في الدنيا، أن الذي كتبها شخصان. كتب كل منهما كلمة وترك أخرى للآخَر. إن لفتُّ نظركم إلى «العين» القوية في «عند» والـ«ألف لام» القوية في «إلا»، وطلبت منكم المقارنة بـ«العين» في «عشرة» والـ«ألف لام» في «الثانية»، ستدركون الأمر على الفور. وتحليل سريع جدًّا لتلك الكلمات سيمكنكم من التأكيد بثقة أن «علمت» و«وقد» خطتهما اليد القوية، و«ما» خطتها اليد الأضعف.

فصاح الكولونيل يقول:

ـ وحق «جوف»! إنها لواضحة وضوح النهار. لماذا يكتب رجلان مذكرة بهذه الطريقة؟

ـ من الجلي أن الموضوع لم يكن شريفًا، وكان أحدهما لا يثق بالآخر، فأصر على أنه إذا اكتشفت الجريمة، فلا بد أن ينال الآخر نصيبه من العقاب. والآن، فيما يختص بالرجلين، يتضح أن الذي كتب «عند» و«إلا» هو رئيس العصابة.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ يمكننا أن نستنتج هذا من مقارنة صفة أحد الخطين بصفة الخط الآخر. ولكن لدينا أسبابًا أكثر تأكيدًا من الافتراض. فإذا فحصت قصاصة الورق هذه بإمعان، استنتجت أن الرجل ذا الخط الأقوى كتب جميع كلماته أولًا، تاركًا مسافات ليملأها الآخر، ولم تكن هذه المسافات كافية دائمًا. ويمكنك ملاحظة أن الرجل الثاني اضطر إلى ضغط إحدى الكلمات. فالرجل الذي كتب كل كلماته من قبل، لا شك في أنه الرأس المدبر لهذه الجريمة.

فصاح «المستر أكتون» يقول:

ـ رائع!

قال «هولمز»:

ـ ولكن هذه مسألة سطحية، والآن، نأتي إلى نقطة هامة. قد لا يكون وصل إلى علمكم أن خبراء الخطوط توصلوا إلى معرفة سن الرجل، بغاية الدقة، من خطه. ففي الأحوال العادية، يمكن وضع الشخص في عَقده الصحيح بثقة تامة. أقول في الأحوال العادية، لأن اعتلال الصحة والضعف البدني يعطيان مظهر تقدُّم السن، وحتى ولو كان المريض شابًّا. وفي حالتنا هذه، يُنظر إلى الخط الجريء القوي لأحد الرجلين، وإلى منظر خط الآخر متكسر المظهر، الذي ما زال محتفظًا بقوته على أن يُقرَأ رغم أن حرف «الألف» في «ما» بدأ يفقد استقامته. فيمكننا إذن أن نقول إن الأول رجل صغير السن، والثاني متقدم في سنوات عمره دون أن يكون عاجزًا.

فصاح «المستر أكتون» للمرة الثانية، يقول:

ـ رائع!

ـ ومع ذلك، فهناك نقطة أخرى أكثر دهاء، وبالغة الأهمية. هناك صفة مشتركة بين الخطين. إنهما لرجلين من دم واحد، ويتجلى هذا لكم بوضوح في الشكل المشترك لـ«العين» في «عند» و«عشرة». أما لي، فهناك نقط صغيرة تدل على الشيء نفسه. لا شك إطلاقًا في أن هناك صفة عائلية يمكن اقتفاؤها في عينتَي الخط هاتين. أعطيكم هنا النتائج المرشدة فحسب، لفحص تلك الورقة. هناك ثلاثة وعشرون استنتاجًا تهمُّ الخبراء أكثر مما تهمكم. وتميل كلها إلى تأكيد النتائج التي توصلتُ إليها، بأن «كننجهام» الأب وابنه هما كاتبا هذا الخطاب.

وبعد أن وصلت إلى هذه النتيجة، كانت خطوتي التالية، بلا شك، هي فحص تفاصيل الجريمة، وإلى أي مدى يمكن أن تساعدنا. ذهبت مع المفتش إلى البيت حيث عاينت كل ما تجب معاينته. فقد حدث الجرح القاتل، كما أمكنني أن أستدل في ثقة تامة، برصاصة مسدس أُطلقت على مسافة تزيد على أربع ياردات. لم تكن هناك بقع احتراق البارود على ملابسه، وهكذا يتضح أن «أليك كننجهام» كاذب حينما قال إن الرجلين كانا يتصارعان عندما أطلقت الرصاصة. ثم اتفق كل من الأب والابن على الموضع الذي هرب منه الرجل إلى الشارع. والواقع أن هناك حفرة عريضة في تلك النقطة، مبتلة القاع. ولكن ليس بها ما يدل على آثار حذاء عند هذه الحفرة. فتأكدت ثانية من كذب هذين الرجلين، ولم يكن هناك رجل غير معروف في مكان الجريمة، إطلاقًا.

سأناقش الآن دافع ارتكاب الجريمة الفريدة هذه. ولكي أصل إلى هذا الدافع، كان عليَّ أن أصل أولًا إلى سبب تلك السرقة الطريفة التي حدثت في بيت «المستر أكتون». فهمت من شيء ذكره لي الكولونيل، أن هناك قضية قائمة بينك يا «مستر أكتون» وبين أسرة «كننجهام». وبالطبع، فكرت في الحال في أنهما اقتحما مكتبتك بهدف الحصول على مستند ذي أهمية بالغة في القضية.

فقال «المستر أكتون»:

ـ هكذا، بالضبط. ولا يمكن أن يكون هناك شك في نياتهما. لي الحق في امتلاك نصف مزرعتهما. ولو أمكنهما العثور على مستند واحد بعينه ـ كان لحسن الحظ في خزانة محاميَّ ـ لأحبطا القضية دون ريب.

فقال «هولمز» مبتسمًا:

ـ هكذا كان! كانت محاولة جريئة محفوفة بالخطر. يمكنني أن أستنتج منها نفوذ ذلك الابن «أليك». فلما لم يجدا شيئًا مما أراده، حاولا دفع الشبهة عنهما بجعلها تبدو سرقة عادية، وبذا حملا كل ما وقعت عليه أيديهما. وما كنت بحاجة إليه هو حصولي على ذلك الجزء الباقي من المذكرة. كنت على يقين من أن «أليك» انتزعه من يد القتيل، ومن المؤكد تقريبًا، أنه دسه في جيب روبه، وإلا فأين يمكن أن يكون قد خبأه؟ والسؤال الوحيد بعد ذلك هو: هل الورقة ما زالت في جيب الروب أم أُخرجت منه؟ كان هذا يستحق القيام بمجهود للعثور عليها. ولهذا الغرض ذهبنا جميعًا إلى البيت.

انضم إلينا الأب وابنه، كما تعلمون، خارج باب المطبخ. كان من الأهمية الأولى عدم تذكيرهما بوجود هذه الورقة، وإلا أتلفاها دونما تأخير. وكان المفتش على وشك إخبارهما بالأهمية التي نعلقها على هذه الورقة، ولكن الحظ أتاح لي أعظم فرصة، فتصنعت تغيُّر ملامحي، وجحوظ عينيَّ، كما لو كانت أصابتني نوبة عصبية. وهكذا غيرت مجرى الحديث.

فصاح الكولونيل، يقول:

ـ يا لرحمة السماء! أتعني أن إشفاقنا عليك ضاع سدى، وأنها كانت مجرد تظاهُر؟

قلت وأنا أنظر مدهوشًا إلى هذا الرجل الذي كان يحيرني دائمًا بطور جديد من دهائه:

ـ إذا حُق لنا أن نتكلم بمصطلحات مهنية، قلت إنها تمت بروعة.

قال:

ـ هذا فن ينفع في كثير من المواقف. وعندما أفقت، أفلحت بطريقة تحتاج إلى بعض النبوغ إلى جعل «كننجهام» المسن يكتب عبارة «الثانية عشرة» كي أقارنها بمثيلتها في الورقة، فتعمدت الخطأ في ذكر الساعة الواحدة بدلًا من الثانية عشرة.

فصحت مدهوشًا أقول:

ـ كم كنتُ حمارًا!

قال «هولمز» ضاحكًا:

ـ كان بوسعي أن ألاحظ عليك أنك تنسب هذا الخطأ إلى مرضي. وإني لآسف تمامًا على أنني سببت لك ألمَ الإشفاق عليَّ، الذي كنت أعلم أنك شعرت به. ثم صعدنا معًا إلى الطابق العلوي. وبعد أن دخلت الحجرة، أبصرت الروب معلقًا خلف الباب، فقلبت النضد بما عليه من برتقال ودورق ماء لأشغل انتباههما لحظة، ورجعت لأفتش الجيوب. غير أنه ما كادت يدي تمسك بالورقة التي وجدتها في أحد الجيوب، كما كنت أتوقع، حتى انقض عليَّ الأب وابنه، وأوشكا أن يقتلاني، كما أعتقد، لولا إسراعكم إلى نجدتي، أيها الأصدقاء. فقبض الابن الفتى على رقبتي بكلتا يديه، ولوى الأب معصمي بهدف الحصول على الورقة من يدي. أدركا أنني عرفت كل شيء عنهما، فتحولا من الاطمئنان التام، إلى اليأس المطلق، وبذا ثارت ثائرتهما وصمما على انتزاع الورقة من يدي بأي ثمن.

بعد القبض عليهما، وجهت بعض الأسئلة إليهما، فكان الأب طيعًا سهل التناول، أما ابنه فكان شيطانًا رجيمًا، على استعداد لنسف رأسه، أو رأس أي فرد آخر لو استطاع الوصول إلى مسدسه. فلما رأى الأب أن الاتهام ضده قويًّا، خارت عزيمته واعترف بكل شيء. يبدو أن «وليم» اقتفى سرًّا أثَر سيديه في الليلة التي أغارا فيها على بيت «المستر أكتون»، وبذا وضعهما تحت رحمته وفي قبضة يده، وشرع يهددهما بفضح أمرهما ليبتز منهما بعض المال. ولكن «المستر أليك» كان رجلًا خطرًا. فلا يقبل أن يعامله ذلك الرجل على هذا النحو. فرأى الفرصة سانحة أمامه،

إذ ساد المنطقة كلها ذعر شديد من وجود لصوص بها. وماذا يمنعه، والحال هذه، من التخلص من الرجل الذي يخشاه. فأخرج «وليم» من كوخه بحيلة بارعة، ثم أطلق عليه الرصاص. ولو حصلا على الخطاب كله، أو فكرا في إتلافه قبل أن يقع في يد الغير، لَما اتجهت الشبهات نحوهما إطلاقًا.

فقلت:

ـ والخطاب؟

وضع «شرلوك هولمز» الورقة الموصولة أمامنا، فقرأنا فيها:

إذا أتيت عند الثانية عشرة إلا ربعًا
إلى البوابة الشرقية، علمت ما
سيكون مفاجأة كبيرة لك وقد
يكون خدمة عظيمة لك، وكذلك
للعمة "موريسون". ولكن لا تقل شيئًا
لأحد عن هذا الموضوع.

قال «هولمز»:

ـ هذا هو الشيء نفسه الذي كنت أتوقعه. وبالطبع، لسنا نعرف حتى الآن العلاقة بين «أليك كننجهام» و«وليم كيروان» والعمة «آني موريسون». وتوضح النتيجة أن الطعم قد أجيد وضعه في المصيدة بمهارة فائقة. وأعتقد، يا «واطسون»، أن فترة راحتنا الهادئة في الريف هذه، كانت نجاحًا واضحًا. وبالتأكيد، سأعود غدًا إلى شارع بيكر، وأنا ممتلئ نشاطًا وقوة.

الرجل المشوَّه

جلست في إحدى ليالي الصيف، بعد زواجي ببضعة أشهر، إلى جانب وطيسي أدخن آخر غليون، وأقرأ رواية، إذ كان عملي بالعيادة في ذلك اليوم مرهقًا تمامًا. وكانت زوجتي قد صعدت من قبل إلى الطابق العلوي. ودلني صوت إقفال باب البهو على أن الخدم قد انصرفوا ليناموا. نهضت من مجلسي أنفض الرماد من غليوني، فإذا بي أسمع فجأة رنين الجرس.

نظرت إلى الساعة فكانت الثانية عشرة إلا ربعًا. ليس هذا زائرًا الذي يأتي في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. لا بد أنه مريض جاء ليكمل عناء اليوم، ومن الممكن أن عينه لم تذق طعم النوم. فذهبت بوجه متجهم وفتحت الباب، فإذا بي أدهش لرؤية «شرلوك هولمز» واقفًا على عتبة الباب.

قال:

ـ حمدًا لله، يا «واطسون»! كنت آمل في ألا أجيء متأخرًا جدًّا كي أجدك.

ـ أرجوك أن تدخل، يا زميلي العزيز.

ـ تبدو مدهوشًا، ولا عجب في هذا! وقد اطمأنت نفسك أيضًا على ما يبدو لي! ويحك ألا تزال تدخن خليط الأركاديا، الذي كنت تدخنه وأنت أعزب! هذا أكيد، يفضحه الرماد العالق بسترتك والمنتفخ بصورة ملحوظة. ومن السهل معرفة أنك تعودت أن تلبس حُلة كاملة في بيتك، يا «واطسون». كما أنك لن تصير مدنيًّا أصيلًا ما دمت تتمسك بعادة الاحتفاظ بمنديلك داخل كمك. هل بوسعك أن تستضيفني في هذه الليلة؟

ـ بكل سرور، وعلى الرحب والسعة!

ـ أخبرتَني بأن لديك حجرة لشخص أعزب، وأرى عدم وجود زائر رجل هنا في الوقت الحاضر، فإن حامل قبعاتك يدل على ذلك.

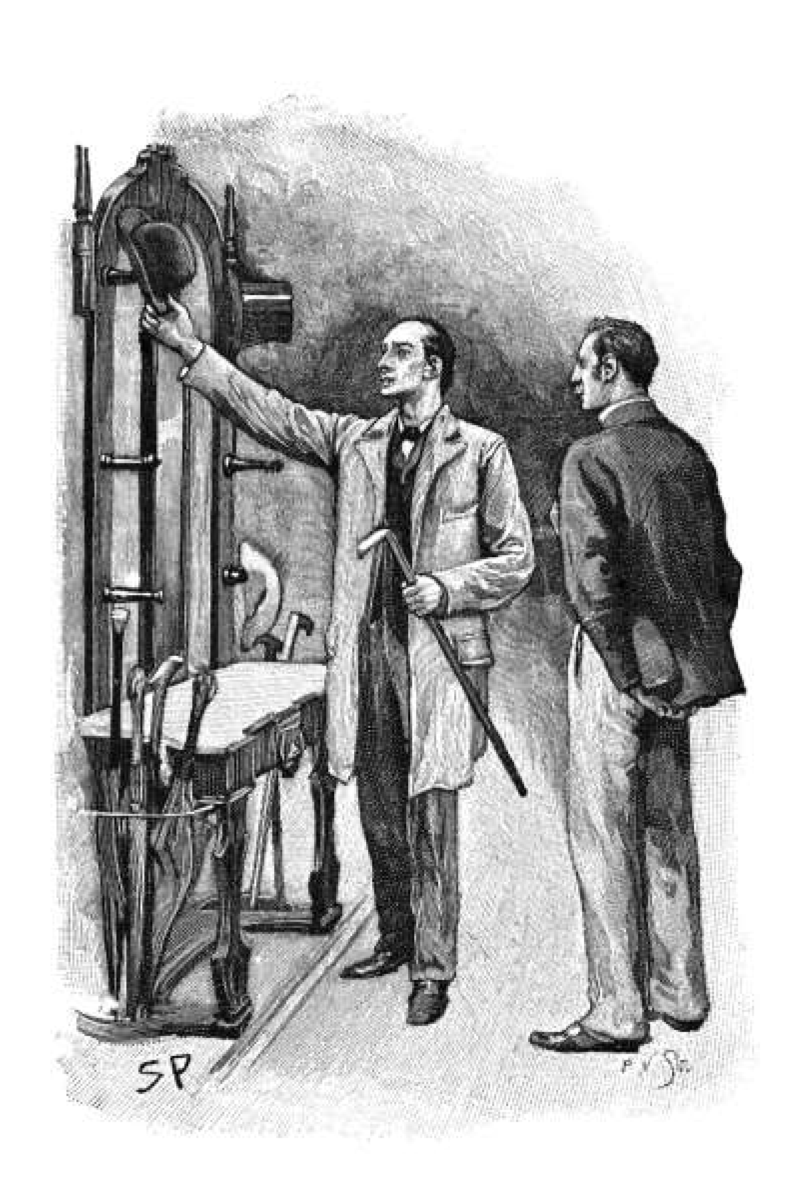
ـ سيبهجني جدًّا إن بقيت.

ـ شكرًا. سأملأ مشجبًا شاغرًا في حامل قبعاتك. آسف لأرى أن عاملًا بريطانيًّا كان يعمل عندك اليوم. إنه دليل الشر. وأتعشم ألا يكون عامل المجاري.

ـ إنه عامل الغاز.

ـ لقد ترك أثرَي مسمارَين من حذائه على مُشمع أرض بيتك حيث يقع الضوء. لا، شكرًا، تناولت العشاء في ووترلو، ولكني سأدخن معك غليونًا بكل سرور.

ناولته كيس التبغ، فجلس قبالتي، ودخن لبعض الوقت وهو صامت. وكنت أعلم تمامًا أنه ما من شيء يأتي به إلى بيتي في مثل ذلك الوقت سوى عمل هام، لذا انتظرت في صبر حتى يفتح لي الموضوع بنفسه.



سأملأ مشجبًا شاغرًا في حامل قبعاتك

قال وهو ينظر إليَّ بإمعان:

ـ كنتَ مجهدًا في عمل العيادة اليوم؟

ـ نعم. كنت مشغولًا طوال اليوم، ولكني لست أدري كيف استنتجت هذا؟

قهقه «هولمز» في نفسه، وقال:

ـ لي ميزة معرفة عاداتك، يا «واطسون»: إذا كان عملك خفيفًا فإنك تمشي، أما إذا كان كثيرًا مرهقًا فإنك تركب عربة. وإني لأرى حذاءك غير قذر رغم استعماله، فلم أشك في أنك كنت مشغولًا، ولذلك استخدمت عربة.

صحت أقول:

ـ أنت رائع، يا «هولمز»!

قال:

ـ هذه أمور مبدئية. هذا أحد الأمثلة التي يستطيع فيها المدلل إحداث تأثير يبدو رائعًا في نفس جاره، لأن هذا الجار لا يعرف النقطة التي هي أساس الاستنتاج. ويمكن أن يقال الشيء نفسه، يا زميلي العزيز، عن بعض الأمور القيمة التي تتوقف قيمتها على بعض عوامل القضية التي في يدك، والتي لم تنقل إلى القارئ. والآن، أنا في مركز هؤلاء القراء، لأنني أمسك في يدي هذه عدة خيوط لقضية من أغرب القضايا التي حيرت عقل الإنسان، ولكن ينقصني خيط أو اثنان لإكمال نظريتي، ولكني سأحصل عليهما، يا «واطسون». سأحصل عليهما!

قال هذا وتألقت عيناه، واحمرت وجنتاه الرفيعتان. ولمدة لحظة، انقشع القناع من فوق طبيعته الحادة، ولكن لمدة لحظة واحدة فحسب. فلما نظرت إليه ثانية، وجدت وجهه قد استعاد لونه الهندي الأحمر، الذي جعل الكثيرين يعتبرونه آلة أكثر منه رجلًا.

قال:

ـ تنطوي هذه المسألة على مظاهر ممتعة، ويمكنني القول بأنها مظاهر استثنائية بالغة المتعة. فكرت في هذا الموضوع من قبل ووصلت، على ما أعتقد، إلى ما يكاد يكون هو الحل. فإذا أمكنك أن ترافقني في هذه الخطوة الأخيرة، كنت ذا فائدة كبيرة لي.

ـ يسرني هذا.

ـ أبوسعك أن تذهب معي غدًا إلى آلدرشوط؟

ـ لا شك في أن «جاكسون» يستطيع فحص مرضاي.

ـ حسنًا جدًّا. أريد الذهاب بقطار الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق من ووترلو.

ـ في هذا متسع من الوقت لي.

ـ ثم إذا لم يكن النوم يداعب عينيك، فسأعطيك مجملًا لما حدث وما بقي لنعمله.

ـ غالبني النعاس قبل مجيئك، أما الآن فأنا يقظان تمامًا.

ـ سأختصر القصة قدر الإمكان دون أن أترك أي شيء هام في القضية. ومن الممكن أن تكون قرأت شيئًا عنها. إنها قضية الاعتداء على الكولونيل «باركلي» وقتله. وهو من فرقة «مانسترز» الملكية في آلدرشوط. وهي القضية التي أقوم بالتحقيق فيها.

ـ لم أسمع عنها شيئًا.

ـ لم تُثِر هذه القضية انتباه الكثيرين حتى الآن، باستثناء جمهور منطقة وقوعها. حدثت وقائعها منذ يومين فقط، وهي باختصار:

تعلم أن فرقة «مانسترز» الملكية، هي أشهر فرقة أيرلندية في الجيش البريطاني، إذ فعلت العجائب في حرب شبه جزيرة القرم، وقمع المتمردين. وشهرت نفسها في كل فرصة ممكنة منذ ذلك الوقت. كان يقودها «جيمس باركلي» حتى ليلة الاثنين. وهو من قدامى المحاربين الشجعان. بدأ حياته العسكرية كجندي بسيط، ورُقِّي لبطولته أيام حرب المتمردين. وهكذا عاش ليقود الفرقة التي كان فيها نفرًا يحمل بندقية، في وقت ما.

تزوج الكولونيل «باركلي» أيام أن كان رقيبًا، من فتاة اسمها قبل الزواج «نانسي ديفوي». وهي ابنة الرقيب حامل العَلم بالفرقة نفسها. لذا كان بينهما بعض الاتصال الاجتماعي البسيط، كما يمكن أن يتصور المرء. وعندما كان هذان الزوجان صغيرين (إذ ما زالا صغيرين)، وجدا أنفسهما في بيئة جديدة، ويبدو أنهما تأقلما بسرعة. وكما أعلم، اشتهرت «مسز باركلي» بين سيدات الفرقة مثلما كان زوجها بين زملائه الضباط. كما يمكنني أن أضيف على قولي هذا، أنها كانت على قدر عظيم من الجمال. ورغم أنها تزوجت منذ أكثر من ثلاثين عامًا، فإنها ما زالت فاتنة جذابة المنظر.

يبدو أن حياة الكولونيل «باركلي» العائلية كانت سعيدة تسير في نظام رتيب. وقد أكد لي الماجور «مورفي»، الذي أدينُ له بمعظم هذه الحقائق، أنه لم يسمع قَطُّ عن حدوث سوء تفاهم بين هذين الزوجين. وعلى العموم، يعتقد أن إخلاص «باركلي» لزوجته أكثر من إخلاصها له. فإذا تصادف أن غاب «باركلي» بعيدًا عن زوجته لمدة يوم واحد، قلق أشد القلق. أما هي، من ناحية أخرى، فرغم وفائها وأمانتها، كانت أقل حبًّا لزوجها من حب زوجها لها. ولكنهما يعتبران، في الفرقة، نموذجًا للزوجين متوسطي العمر. ولم يكن في علاقتهما المتبادلة شيء على الإطلاق يمكن أن يؤدي إلى وقوع تلك الجريمة التي سأروي لك قصتها.

يبدو أن للكولونيل «باركلي» بعض نزعات شاذة في أخلاقه. ففي حالته العادية، تراه جنديًّا مرحًا جريئًا. إلا إنه كانت هناك حالات يبدي نفسه فيها قادرًا على كثير من العنف والحقد وحب الانتقام. ومع ذلك، يبدو أن هذا الجانب من حياته لم يتجه نحو زوجته إطلاقًا. حقيقة أخرى استرعت انتباه الماجور «مورفي» وثلاثة أخماس الضباط الآخرين الذين تحدثت معهم، وهي أنه كانت تعتريه أحيانًا حالة من الاكتئاب. وعندما عبر الماجور عن ذلك، كثيرًا ما كانت ترتسم على فمه ابتسامة كما لو كانت تحركها يد غير مرئية، حينما ينضم إلى مائدة حفل مرح في مطعم الثكنات. وأحيانًا كانت تلازمه نوبة من الاكتئاب لعدة أيام متصلة، فيبدو في أعمق حالات الحزن. وهذه، وبعض الخرافات الأخرى، هي كل ما في أخلاقه من نزعات غير عادية لاحظها إخوانه الضباط. والخرافة التي سادت لديه، هي أنه كان يخاف البقاء وحده في أي مكان، ولا سيما بعد هبوط الظلام. وهذه ظاهرة نتج عنها كثير من التقول والتخمينات، إذ كانت في رجل يتصف بالجرأة والشجاعة.

بقي الفيلق الأول من فرقة «مانسترز» الملكية (الذي هو الفيلق المائة والسابع عشر) في آلدرشوط لعدة سنين. ويقيم الضباط المتزوجون خارج الثكنات. فأقام الكولونيل «باركلي» طوال هذه المدة في فيلَّا اسمها «لاشين»، تبعد عن المعسكر الشمالي بنحو ميل ونصف الميل. يقوم ذلك البيت في قطعة أرض خاصة به، ولكن الجانب الغربي منه لا يبعد عن الطريق العام بأكثر من ثلاثين ياردة. وتتألف هيئة الخدم من: سائق عربة وخادمين. وهؤلاء، مع سيدهم وسيدتهم، هم كل سكان «لاشين»، إذ لم ينجب الزوجان «باركلي» أطفالًا، كما لم يكن من عادتهما أن يزورهما من يقيم معهما.

وقعت الأحداث الأخيرة في «لاشين»، فيما بين الساعة التاسعة والعاشرة من مساء يوم الاثنين الماضي.

يبدو أن «مسز باركلي» كانت عضوًا في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وكانت مولعة بالخدمة في جمعية القديس جورج التابعة لكنيسة شارع واط، بهدف إمداد الفقراء بالملابس المستعملة. وعقد اجتماع لهذه الجمعية في ذلك المساء في الساعة الثامنة. ولكي تحضر «مسز باركلي» ذلك الاجتماع، أسرعت بتناول عشائها مبكرًا. وحينما غادرت البيت، سمعها سائق العربة وهي تتحدث إلى زوجها في بعض الأمور العادية وتؤكد له أنها ستعود بعد فترة قصيرة. ثم نادت «مس موريسون» الشابة التي تقيم في الفيلَّا التالية لبيتها، فذهبت الاثنتان معًا لحضور ذلك الاجتماع الذي استغرق أربعين دقيقة، عادت بعده «مسز باركلي» إلى بيتها في الساعة التاسعة والربع بعد أن تركت «مس موريسون» عند باب بيتها وهي تمر أمامه.

هناك في فيلَّا «لاشين» حجرة تستعمل كحجرة صباحية، تقع في مواجهة الطريق، ولها باب زجاجي ضخم ذو أربعة مصاريع، يفتح على الأرض المعشوشبة البالغ عرضها ثلاثين ياردة، ولا يفصلها عن الطريق العام سوى حائط منخفض بأعلاه جلفق من الحديد. فلما رجعت «مسز باركلي» إلى بيتها، ذهبت إلى هذه الحجرة. ولم يكن الشيش مقفلًا، إذ قلما تستعمل هذه الحجرة في المساء. ولكن «مسز باركلي» نفسها أوقدت المصباح، ثم دقت الجرس وطلبت من خادمتها «جين ستيوارت» أن تأتيها بقدح من الشاي، على غير عادتها. وكان الكولونيل جالسًا في حجرة المائدة. ولكنه لما سمع بعودة زوجته، ذهب إليها في الحجرة الصباحية. وقد أبصره سائق العربة وهو يعبر البهو ويدخل تلك الحجرة. غير أنه لم يُرَ بعد ذلك حيًّا مرة أخرى.

جاءت الخادمة بالشاي المطلوب بعد عشر دقائق، ولكنها عندما تقدمت من الباب أدهشها أن تسمع سيدها وسيدتها في نزاع حاد. فطرقت الباب دون أن تسمع ردًّا، فأدارت مقبض الباب ولا مجيب. كان الباب مقفلًا من الداخل. وبطبيعة الحال جرت إلى داخل البيت لتخبر الطاهية. فجاء سائق العربة والمرأتان إلى البهو، ووقفوا يصغون إلى العراك الذي كان لا يزال دائرًا. واتفقوا جميعًا على أن هناك صوتين ليس غير: صوت «باركلي» وصوت زوجته. كانت أقوال «باركلي» منخفضة ومتقطعة، لذا لم يسمع المتصنتون منها شيئًا. أما صوت السيدة فكان مريرًا، وعندما رفعته أمكنهم أن يسمعوا بوضوحٍ قولها: «أنت جبان!». وكررت هذه العبارة مرات ومرات. «ماذا يمكن

عمله الآن؟ أعد إليَّ حياتي. لن أستنشق الهواء نفسه الذي تستنشقه أنت مرة أخرى! أيها الجبان! أيها الجبان!». كانت هذه بعض عبارات حديثها، وانتهت بصرخة فجائية مدوية من صوت الرجل، وصوت ارتطام جسم بالأرض، تعقبه مباشرة صرخة حادة من المرأة. وإذ اقتنع المتصنتون بحدوث فاجعة، هجموا على الباب بكل ثقلهم يحاولون كسره، بينما انطلقت صرخة إثر صرخة من الداخل. ورغم كل هذا، عجز سائق العربة عن الدخول من ذلك الباب، وذُعرت الخادمتان فلم يمكنهما مساعدته. وأخيرًا، طرأت على باله فكرة جاءت فجأة. فجرى خلال باب البهو وحول الأرض المعشوشبة التي تطل عليها النوافذ الواسعة. وكان أحد جوانب الشباك مفتوحًا، الأمر الذي كما أفهم، كان عاديًّا في وقت الصيف، فمر منه السائق من دون عناء إلى داخل الحجرة. وجد سيدته قد كفت عن الصراخ وهي ممددة فاقدة الوعي فوق أريكة، بينما كان الجندي عاثر الحظ راقدًا على فوتيل، وقدماه مائلتان على جانب الفوتيل، ورأسه على الأرض قرب المتكأ، ميتًا كالحجر، في بركة من دمائه.

وبطبيعة الحال، كان أول ما فكر فيه السائق بعد أن رأى أنه لا يستطيع عمل شيء لسيده، هو أن يفتح الباب. ولكن حالت دون هذا صعوبة واحدة، وهي أن المفتاح لم يكن في الباب من الداخل، ولم يمكنه العثور عليه في أي ناحية من نواحي الحجرة، لذا خرج من النافذة ثانية، وحصل على مساعدة أحد رجال البوليس وطبيب، ثم رجع إلى الحجرة. فنُقلت المرأة ـ التي تحوم حولها أقوى الشبهات ـ إلى حجرتها فاقدة الوعي. ثم وُضع جثمان الكولونيل على الأريكة، وفُحص مسرح المأساة فحصًا دقيقًا.

والإصابة التي عانى منها الضابط، كانت قطعًا غير منتظم، طوله نحو بوصتين في ظهر رأسه، ويبدو أنه تَسبب عن ضربة عنيفة من آلة غير حادة. ولم يكن من الصعب تخمين نوع تلك الآلة. فعلى الأرض بجانب الجثة هراوة من الخشب الثقيل المنقوش، ذات مقبض من العظم. وكان الكولونيل يمتلك مجموعة من الأسلحة جاء بها من دول مختلفة حارب فيها، ورجح البوليس أن تكون هذه الهراوة من بين تلك المجموعة. وأنكر الخدم رؤيتها قبل ذلك. ولكن بما أن بالمنزل عددًا كبيرًا من أمثال هذه التحفة، فمن الممكن أن ينساها الخدم، أو أنه فاتَهم رؤيتها وسط ذلك العدد الكبير. لم يُكتشف أي شيء هام بعد ذلك، سوى حقيقة واحدة: وهي أن المفتاح ليس مع «مسز باركلي»، ولا مع القتيل، ولا في أي ناحية أخرى بالحجرة. وعلى ذلك جيء بحداد من آلدرشوط، فتح الباب.

هكذا كانت الأمور، يا «واطسون». فذهبت في صباح يوم الثلاثاء إلى آلدرشوط، بناء على طلب الماجور «مورفي»، لإكمال جهود البوليس. وأعتقد أنك ستعترف بأن هذه القضية ممتعة. ولكن سرعان ما جعلتني ملاحظاتي أدرك أنها كانت، في الحقيقة، أكثر غرابة مما تبدو لأول وهلة.

قبل أن أفحص الحجرة، استجوبت الخدم، ولكني لم أحصل منهم على أكثر من الحقائق التي ذكرتها لك. وتذكرتِ الخادمة «جين ستيوارت» موضوعًا آخر. تذكرتْ أنه حينما سمعت هذه الخادمة صوت العراك، عادت وأحضرت معها الطاهية والسائق. ولكنها عندما جاءت وحدها أولًا كان صوت سيدها وسيدتها منخفضًا، لدرجة أنها كادت ألا تسمع شيئًا، وحكمت من واقع نغمة الصوت أكثر من الكلمات التي لم تكن واضحة، أنهما وقعا. ولما شددتُ عليها الخناق، تذكرتْ أنها سمعت كلمة واحدة هي: «دافيد»، قالتها سيدتها مرتين. وهذه النقطة بالغة الأهمية لتقودنا إلى سبب ذلك النزاع الجنوني. وإنك لتتذكر أن اسم الكولونيل هو «جيمس» وليس «دافيد».

هناك نقطة واحدة في هذه القضية انطبعت في نفوس كلٍّ من الخدم والبوليس، وهي التواء وجه الكولونيل. فقد تحول إلى ذلك الشكل الملتوي الذي ثبت ـ حسب روايتهم ـ أنه أشد ما يمكن أن تتخذه ملامح الجسم البشري إفزاعًا. فأغمي على أكثر من شخص عند رؤية ذلك المنظر المفزع. ومن المؤكد أنه رأى حتفه مقدمًا، فسبب له هذا أفظع أنواع الذعر. وهذه اتفقت تمامًا مع نظرية البوليس، إذ كان الكولونيل قد رأى زوجته تنقض عليه بهجوم قاتل. كذلك الجرح الذي في ظهر رأسه، إذ يجوز أنه أدار رأسه بعيدًا ليتفادى الضربة. ولم يمكن الحصول على أي معلومات من السيدة نفسها التي أصيبت بجنون مؤقت من هجوم الحمى المخية الحاد.

علمت من البوليس أن «مس موريسون»، التي كما تتذكر، خرجت مع «مسز باركلي» في تلك الليلة، أنكرت معرفتها لأي شيء سبب غضب رفيقتها وهي عائدة.

وإذ جمعت هذه المعلومات، يا «واطسون»، دخنت عدة غلايين وأنا أفكر فيها محاولًا فصل الأدلة بالغة الأهمية، عن المعلومات العرضية. ولا جدال في أن النقطة الأكثر وضوحًا وإيحاء هي اختفاء المفتاح، ولم يمكن العثور عليه رغم التفتيش الدقيق للحجرة. إذن، فلا بد أنه أُخذ من الحجرة. ولكن لم يأخذه الكولونيل ولا زوجته، وهذا واضح تمام الوضوح. وعلى ذلك فلا بد أن شخصًا ثالثًا قد دخل الحجرة، وهذا الشخص الثالث لم يدخل إلا من النافذة. فبدا لي أن فحص الحجرة والأرض المعشوشبة قد يُظهر بعض آثارٍ لذلك الشخص الغريب، وإنك لَتعرف قوة ملاحظتي وطرق

استنتاجي، يا «واطسون». لم أترك أي نظرية في علم الفراسة الخاص بي، إلا استخدمتها في تحقيقي. فانتهى الأمر باكتشافي بعض الآثار، ولكنها تختلف عما كنت أتوقعه. كان بالحجرة رجل سار فوق الحشيش آتيًا من الطريق. أمكنني العثور على خمسة آثار أقدام واضحة له، أثر واحد في الطريق نفسه عند نقطة تسلقه الحائط المنخفض، واثنين على الحشيش، وأثرين ضعيفين جدًّا على الألواح المبقعة قرب النافذة حيث دخل. ومن الجلي أنه أسرع فوق الأرض المعشوشبة، إذ كانت آثار أصابع قدميه أعمق من آثار عقبيه. ولم يكن ذلك الرجل هو الذي أدهشني، وإنما الذي أدهشني هو رفيقه.

ـ رفيقه؟

أخرج «هولمز» من جيبه فرخًا كبيرًا من الورق الماص، ونشره بعناية فوق ركبتيه، وسألني:

ـ ماذا تستنتج من هذا؟

كان الورق مغطى بآثار أقدام حيوان صغير ـ خمسة آثار واضحة لبطن قدم الحيوان، ودليل على أظفار طويلة. والأثر كله في حجم ملعقة الحلوى.

قلت:

ـ إنه كلب.

ـ هل سبق أن سمعت عن كلب يتسلق ستارة حتى قرب نهايتها؟ وجدت آثار أقدام واضحة لهذا الحيوان على الستارة.

ـ إذن، فهل هو قرد؟

ـ هذه ليست آثار أقدام قرد.

ـ إذن، فماذا يمكن أن يكون؟

ـ ليس كلبًا ولا قردًا، ولا أي مخلوق مألوف لنا. حاولت معرفته بالمقاسات. ها هي أربعة آثار له حيث وقف لا يتحرك. ترى أن المسافة بين القدم الأمامية والخلفية لا تقل عن 15 بوصة،

أضف إلى ذلك طول الرأس والرقبة، فترى أن طوله لا يقل عن قدمين، وربما كان أكثر من ذلك لو أن له ذيلًا. أما الآن، فلاحظ هذه المقاسات الأخرى. تحرك ذلك الحيوان، ولدينا طول خطوته. ففي كل حالة كان طول تلك الخطوة ثلاث بوصات، وهذا يدل على جسم طويل مع أرجل قصيرة جدًّا. ولم يترك وراءه أي شعر، ولكن شكله هو ما ذكرته لك. ويستطيع أن يجري إلى أعلى الستارة في سهولة، وهو آكل لحوم.

ـ وكيف استنتجت هذا؟

ـ لأنه تسلق إلى قمة الستارة حيث يوجد قفص عصفور كناريا معلق بوسط الشباك، ويبدو أن غرضه كان الوصول إلى ذلك العصفور.

ـ إذن، فماذا كان ذلك الحيوان؟

ـ لو أمكنني أن أعطيه اسمًا لقطعت شوطًا بعيدًا نحو حل القضية. وعلى العموم، ربما كان مخلوقًا من فصيلة العرسة، رغم أنه أطول من أي عرسة شاهدتها.

ـ وما شأنه بالجريمة؟

ـ لا يزال هذا مبهمًا أيضًا. ولكننا علمنا الكثير، كما ترى: عرفنا أن رجلًا كان واقفًا في الطريق يشاهد العراك بين الكولونيل «باركلي» وزوجته، وكان الشيش مرفوعًا والحجرة مضاءة، كما نعرف أنه قفز فوق الحائط المنخفض وجرى فوق الحشيش ودخل الحجرة بصحبة ذلك الحيوان الغريب، وأنه ضرب الكولونيل، أو أن الكولونيل سقط على الأرض لمجرد رؤيته، فجرح رأسه على ركن المتكأ. وأخيرًا عرفنا الحقيقة الغريبة، وهي أن ذلك الدخيل أخذ المفتاح معه عندما غادر الحجرة.

قلت:

ـ يبدو أن اكتشافاتك جعلت الموضوع أكثر غموضًا مما كان عليه من قبل.

ـ بالضبط. لا شك في أنها أوضحت أن المسألة أعمق مما خُمن في أول الأمر. فكرت فيها بإمعان، فاستنتجت أنني يجب أن أتناولها من ناحية أخرى. ولكنني، في الحقيقة، جعلتك تسهر أكثر

مما يجب، يا «واطسون»، وبوسعي أن أخبرك بكل شيء ونحن في طريقنا غدًا إلى آلدرشوط.

ـ شكرًا، ولكنك قطعت شوطًا بعيدًا، فلا يمكنك أن تتوقف عنده.

ـ من المؤكد جدًّا أن «مسز باركلي» غادرت البيت في الساعة السابعة والنصف مساء، وكانت على وفاق مع زوجها. وعلى ما أعتقد، كانت لا تتظاهر كثيرًا بحبها لزوجها. وقد سمعها سائق العربة تتحدث مع الكولونيل بطريقة ودية. كما أنه من المؤكد أنها بمجرد عودتها مباشرة، ذهبت إلى تلك الحجرة التي لا يُنتظر أن تقابل زوجها فيها، وطلبت قدحًا من الشاي كما تفعل المرأة الثائرة. وأخيرًا عندما جاء إليها، أخذت تكيل له الشتائم بعنف. إذن، فلا بد أن شيئًا ما حدث بين الساعة السابعة والنصف، والساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، غيَّر مشاعرها نحوه. ولكن «مس موريسون» كانت معها طوال هذه الساعة والنصف. هذا أكيد تمامًا. وعلى ذلك، فرغم إنكارها، لا بد أنها تعلم شيئًا عن هذا الأمر.

كان أول تخمين لي هو أنه من الممكن أن تكون قد حدثت علاقات بين تلك المرأة الشابة والجندي المسن، اعترف بها الضابط لزوجته. وهذا هو سبب العودة في غضب، وإنكار الفتاة أن شيئًا حدث. ولكن هذا لا يتفق إطلاقًا مع معظم الألفاظ التي سمعت، فضلًا عن وجود إشارة إلى «دافيد». ثم إن هناك حب الكولونيل لزوجته في مقابل تدخل الرجل الآخر، الذي قد تكون له علاقة بما حدث. وليس من السهل تتبع كل خطوات أي إنسان. ولكني، على العموم، أميل إلى عدم التفكير في حصول أي شيء بين الكولونيل و«مس موريسون»، بيد أنني مقتنع ـ أكثر من كل مرة ـ بأن الفتاة تملك مفتاحًا ما جعل «مسز باركلي» تكره زوجها. وعلى ذلك عولت على أن أسلك الطريق الواضح، فأقابل «مس موريسون» وأُفهمها بأنني متأكد تمامًا من معرفتها للحقائق، وأؤكد لها بأن صديقتها «مسز باركلي» قد تجد نفسها في موقف الحكم عليها بالإعدام، إذا لم تتضح الأمور.

«مس موريسون» فتاة هوائية ذات عينين حييتين وشعر أشقر. غير أنني وجدتها على شيء كثير من الدهاء والذكاء. فجلست تفكر لبعض الوقت بعد أن كلمتها، ثم استدارت نحوي بعزيمة ثابتة، واعترفت بما سألخصه لك.

قالت: «وعدت صديقتي بألا أبوح بشيء عن ذلك الموضوع، والوعد وعد. ولكن، ما دام كان بوسعي مساعدتها في الخروج من تهمة عظمى وقد أقفل المرض فمها، فإنني أجد نفسي في حِل

من ذلك الوعد، وسأخبرك بما حدث بالضبط في مساء يوم الاثنين.

ونحن عائدتان من اجتماع شارع واط في قرابة الساعة التاسعة إلا ربعًا، كان علينا أن نمر في طريقنا بشارع هدسون الهادئ، ولم يكن به سوى مصباح واحد على الجانب الأيسر. وعندما اقتربنا من ذلك المصباح، رأيت رجلًا مقبلًا نحونا وظهره محنيٌّ جدًّا، وقد علق على إحدى كتفيه شيئًا كالصندوق، ويبدو هو نفسه مشوهًا إذ يحني رأسه ويسير وركبتاه مثنيتان. ولما مررنا بجانبه رفع وجهه لينظر إلينا في دائرة ضوء المصباح، ثم وقف وصاح بصوت مفزع: «رباه! إنها «نانسي»!». فامتقع لون «مسز باركلي» حتى صارت بلون الموتى، وأوشكت تقع على الأرض لولا أن ذلك المخلوق مفزع المنظر أمسك بها. فأردت أن أستدعي البوليس، ولكن لَشد ما كانت دهشتي عندما تحدثتْ إليه في أدب ورفق. قالت بصوت متهدج: «ظننتك متَّ، طوال هذه الثلاثين سنة، يا «هنري»». قال: «كذلك كنتُ». وكان من المخيف حقًّا أن تسمع النغمة التي قال بها ذلك. فوجهه قاتم جدًّا ومرعب، وفي عينيه بريق يراودني في أحلامي. وشعره وشعر عوارضه مطعم بالشيب، ووجهه مليء بالتجاعيد، ومغضن كأنه تفاحة ذابلة. فقالت «مسز باركلي»: «سيري قليلًا يا عزيزتي، فأنا أريد أن أقول كلمة لهذا الرجل. لا خوف من شيء». وحاولت أن تتكلم



إنها «نانسي!»

بجرأة، ولكنها ما زالت شاحبة الوجه جدًّا، وقلما تستطيع النطق بألفاظها من خلال شفتيها المرتجفتين.

فعلت كما طلبت مني، وتحدثنا معًا لبضع دقائق، ثم جاءت تسير في الطريق والشرر يتطاير من عينيها. وأبصرت ذلك الوغد الكسيح واقفًا إلى جانب عمود المصباح، ويهز قبضتيه المقفلتين في الهواء، كما لو كان مجنونًا ثائرًا. لم تنطق «مسز باركلي» بكلمة واحدة حتى صرنا عند الباب هنا، فأمسكتني من يدي وتوسلت إليَّ ألا أخبر أحدًا بما حدث، ثم قالت: «إنه أحد أصدقائي القدامى،

أناخت عليه الدنيا بكلاكلها». فلما وعدتها بألا أقول شيئًا، قبّلتني، ولم أرَها منذ ذلك الوقت. هأنذا أخبرتك الآن بالموضوع كله لأنني لم أدرك، من قبل، مبلغ الخطر المحدق بصديقتي العزيزة. وقد عرفت الآن أن من صالحها أن يظهر كل شيء».

ها هي أقوالها، يا «واطسون»، وكانت بالنسبة لي، كما يمكن أن تتخيل، نورًا ساطعًا في ليلة ظلماء. فكل ما كان مفككًا من قبل، بدأ يتخذ مكانه الحقيقي الآن. وكان عندي هاجس مبهم عن تسلسل تلك الأحداث. أما خطوتي التالية، فهي بالطبع البحث عن الرجل الذي أضفى ذلك الطابع على «مسز باركلي». فإذا كان لا يزال في آلدرشوط، فلن نجد صعوبة في العثور عليه. ليس في ذلك المطرح كثير من المدنيين، ولا بد أن يستلفت أي رجل مشوه أنظار الأهلين جميعًا. قضيت يومًا أبحث عنه، وفي المساء ـ هذا المساء نفسه، يا «واطسون» ـ عثرت عليه. اسمه «هنري وود»، ويقيم بالمساكن الشعبية في ذلك الشارع نفسه الذي قابل فيه المرأتين. له خمسة أيام فحسب في ذلك المكان. وإذا اتخذت شخصية وكيل تسجيلات، تحدثت حديثًا ممتعًا مع صاحبة بيته. مهنته مشعوذ وممثل، يدور على المقاصف بعد أن يخيم الظلام على الكون، فيعرض على الناس ما يسليهم ويُرفه عنهم. ويحمل، في صندوق، حيوانًا لا تعرف نوعه صاحبة البيت، لأنها لم ترَ من قبل حيوانًا مثله. إنه يستخدم ذلك الحيوان في بعض ألعابه، تبعًا لروايتها. هذا هو ما استطاعت أن تخبرني به تلك السيدة، كما أخبرتني بأنه من العجب أن يعيش ذلك الرجل، رغم كل تشوه جسمه، وأنه يتكلم أحيانًا بلغة غريبة. وفي الليلتين الماضيتين، سمعَته يئن ويبكي في حجرة نومه. كان ميسور الحال فيما يختص بالمادة، ولكنه أعطاها ضمن نقود التأمين، قطعة نقود تبدو مثل فلورين مزيف. وأطلعتني عليها، يا «واطسون»، فكانت روبية هندية.

والآن، يا صديقي العزيز، ترى مركزنا، ولماذا أريدك معي؟ من الواضح جدًّا، أنه بعد أن افترقت المرأتان، تبعهما ذلك الرجل من مسافة ما، فلما رأى العراك بين الزوج والزوجة، من خلال النافذة، اندفع إلى داخل الحجرة وأطلق الحيوان الذي في الصندوق. هذا أكيد جدًّا. ولكنه الشخص الوحيد في هذه الدنيا، الذي يستطيع إخبارنا بكل ما حدث في تلك الحجرة، بالضبط.

ـ وهل تنوي سؤاله؟

ـ بكل تأكيد، ولكن في حضور شاهد.

ـ وأنا الشاهد؟

ـ إذا تفضلت بأن تكون لطيفًا إلى هذا الحد. فإذا استطاع إضفاء نور على الأمور، كان بها ونعمت، وإلا فلا مندوحة لنا من استصدار أمر بالقبض عليه.

ـ ولكن كيف تعرف أنه سيكون هناك عندما نرجع؟

ـ كن على يقين من أنني اتخذت بعض الاحتياطات: هناك غلام من شارع بيكر، تابع لي، يقف حارسًا عليه، يلازمه كظله. يذهب وراءه أينما يذهب. سنجده في شارع هدسون غدًا، يا «واطسون». وفي تلك الأثناء، سأكون أنا المجرم إن أخرتك عن الفراش أكثر من هذا.

في ظهر اليوم التالي وجدنا أنفسنا في مسرح المأساة. وبإرشاد رفيقي اتجهنا فورًا إلى شارع هدسون. ورغم مقدرة «هولمز» على إخفاء عواطفه، أمكنني بسهولة أن أراه يكبت غيظه، بينما أُظهر أنا نصف الروح الرياضية ونصف البهجة الذهنية كما تعودت أن أفعل عندما أكون معه في تحقيقاته.

قال وهو يُعرج على شارع قصير تحده بيوت من طابقين مبنية بالطوب الأحمر:

ـ هذا هو الشارع. ها هو «سيمبسون». آتٍ ليخبرني بكل شيء عن ذلك الرجل.

جرى إلينا غلام عربي صغير، وقال:

ـ إنه ما زال هناك، يا «مستر هولمز».

فقال «هولمز» وهو يربت على رأسه:

ـ حسنًا، يا «سيمبسون»!

هيا، يا «واطسون»، هذا هو البيت.

أرسل صديقي بطاقته مع رسالة يقول فيها إنه جاء لأمر هام. وبعد لحظة، كنا وجهًا لوجه أمام الرجل الذي جئنا لنقابله. ورغم دفء الطقس، كان يجلس أمام الوطيس، وكانت حجرته الصغيرة أشبه بالأتون. وجدناه جالسًا مقوسًا وملتويًا في مقعده، بصورة تبين مدى تشوه جسمه الذي

لا يوصف. ورغم تغضن الوجه الذي أداره نحونا وخشونته، يبدو أنه كان فيما مضى جميلًا. نظر إلينا مرتابًا بعينين صفراوين حادتين، وبغير أن يتكلم أو يقف، أشار إلى مقعدين.

فقال «هولمز» في نغمة رقيقة:

ـ «المستر هنري وود» العائد أخيرًا من الهند، على ما أعتقد؟ جئت بخصوص تلك المسألة البسيطة الخاصة بموت الكولونيل «باركلي».

ـ وماذا عساي أن أعلم عنها؟

ـ هذا ما أردت أن أتحقق منه. وإنك لتعرف، كما يخيل إليَّ، أنه إن لم تظهر الحقيقة في هذه المأساة، فإن «مسز باركلي»، صديقتك القديمة، ستحاكم قطعًا عن جريمة القتل.

فزع ذلك الرجل في عنف، وصاح يقول:

ـ لست أعلم من أنت، ولا كيف عرفت ما عرفته. ولكن هل تقسم على أن ما تقوله لي هو الصدق؟

ـ إنهم ينتظرون أن تثوب إلى رشدها، كي يقبضوا عليها بتهمة القتل.



ـ رباه! هل أنت من البوليس، أنت نفسك؟

ـ كلا.

ـ إذن، فما شأنك بهذا؟

ـ من شأن كل إنسان أن يرى العدل يسود.

ـ ثق بكلامي، إنها بريئة.

ـ إذن، فأنت مذنب؟

ـ كلا، لست مذنبًا.

ـ إذن، فمن قتل الكولونيل «جيمس باركلي»؟

ـ قتلته العناية الإلهية. ولكن، ضع في ذهنك أنني لو هشمت رأسه لَما نال مني أكثر مما يستحق على يدي. وإذا لم يقتله ضميره الآثم، لوقع دمه على روحي. أتريدني أن أروي لك القصة كلها؟ حسنًا، فلست أرى ما يمنعني روايتها. ما من سبب يدعوني إلى أن أخجل منها.

حدثت هكذا، يا سيدي: ترى مظهري الآن كمظهر الجمل وضلوعي كلها ملتوية، وقد كنت في سالف العصر، العريف «هنري وود»، أعظم الرجال أناقة في فيلق المشاة المائة والسابع عشر. كنا في ذلك الوقت بالهند في معسكر سكان يُطلَق عليه اسم بهورتي. أما «باركلي» الذي مات في ذلك اليوم، فكان رقيبًا في الفيلق نفسه، وأجمل من في الفرقة. وكانت «نانسي» أجمل فتاة يمر نفَس الحياة من بين شفتيها. «نانسي ديفوي» ابنة الرقيب حامل العَلم. وقد أحبها رجلان، ولكن الرجل الذي أحبته هي، وستبتسم أنت عندما تنظر إليه مكومًا أمام النار. استمع إليَّ وأنا أقول لك إنها أحبتني لملاحة تقاطيع وجهي.

ورغم أن قلبها كان معي، فإن أباها أصر على أن تتزوج «باركلي». فقد كنت أنا شابًّا متهورًا قليل التعلم. أما «باركلي»، فكان على قدر لا بأس به من العلم، وكان قد وقع عليه الاختيار

لحزام السيف[5]. ولكن الفتاة ظلت وفية لي، وبدا أنني سأنالها. غير أن حركة تمرد شبت، وأطلقت الجحيم من عقالها في البلاد.

حوصرنا في بهورتي، فرقتنا، مع نصف بطارية من المدفعية، وجماعة من السيخ، وكثير من المدنيين والنساء. التف حولنا عشرة آلاف متمرد، وكانوا شديدي اليقظة، كأنهم جماعة من كلاب الصيد حول قفص مليء بالجرذان. وبعد نحو أسبوع نفدت كمية الماء التي كانت عندنا، وكان لا بد لنا من الاتصال بطابور الجنرال «نيل»، الذي كان متجهًا إلى شمال البلاد. كانت هذه هي فرصتنا الوحيدة، فلا يمكن أن نشق طريقنا وسط المتمردين ومعنا كل أولئك النساء والأطفال. لذا تطوعت بالخروج لتحذير الجنرال «نيل» وإخباره بالخطر المحدق بنا. فقبِل عرضي. وتحدثت في هذا الأمر مع الرقيب «باركلي»، الذي كان يعرف المنطقة أحسن من أي فرد آخر. فرسم لي طريقًا يمكنني به اختراق صفوف المتمردين تحت جنح الظلام. أسير في رحلتي التي أنقذ بها أرواح ألف شخص، ولكني لم أفكر إلا في شخص واحد، وأنا أقفز فوق سور المعسكر، في تلك اللحظة.

كان طريقي يمتد بطول مجرى مائي جفَّ ماؤه، كي يحجبني عن أنظار ديدبانات العدو. ولكن بينما أنا أدور حول أحد أركانه، وجدت نفسي بين أيدي ستة منهم مختبئين في الظلام في كمين نصبوه لي. وفي لحظة فقدت وعيي بضربة، وقيدت يداي ورجلاي. غير أن الضربة الحقيقية صُوبت إلى قلبي وليس إلى رأسي. ولما أفقت وأخذت أسترق السمع إلى حديثهم، قدر إمكاني، سمعت ما يكفي لأعلم أن زميلي الذي رسم لي الطريق لأسلكه آمنًا، قد خانني بواسطة أحد الوطنيين، وبذا سلمني إلى أيدي الأعداء كي يخلو له الجو.

لا حاجة بي إلى الإطالة في هذا الجزء، فأنت تعرف الآن ما يستحقه «جيمس باركلي». وفي اليوم التالي عمل الجنرال «نيل» على إنقاذ بهورتي. ولكن المتمردين أخذوني معهم في تقهقرهم، وقضيت سنوات طوالًا قبل أن أرى وجهًا أبيض مرة أخرى. عذبوني، وحاولت الفرار، فقبضوا عليَّ وعذبوني مرة أخرى. وبوسعكما أن تعرفا الحالة التي تُركت عليها. وقد فر بعض هؤلاء إلى نيبول وأخذوني معهم. وبعد ذلك وصلت إلى دار جيلنج. وهناك قَتل سكان الجبل المتمردين الذين كنت معهم، وتركوني لأصير عبدًا لهم. وهكذا غدوت عبدًا ألبي طلبات سكان الجبل هؤلاء لبعض الوقت، حتى استطعت أن أهرب، فهربت. وبدلًا من السير جنوبًا، اتجهت شمالًا، فإذا بي أجد نفسي بين الأفغانيين، حيث أخذت أجول لعدة سنوات. وأخيرًا رجعت إلى البنجاب، حيث عشت معظم

الوقت مع الوطنيين، أكسب عيشي من الشعوذة التي تعلمتها. ماذا يجديني، أنا الكسيح الحقير، أن أعود ثانية إلى إنجلترا، أو أعرف أصدقائي القدامى وأقابلهم؟ وحتى رغبتي في الانتقام، لا تجعلني أفعل ذلك. كنت أُفضل أن تعرف «نانسي» ويعرف زملائي القدامى، أن «هنري وود» مات بظهر مستقيم، على أن يروني حيًّا محدب الظهر أزحف على عصا كالشمبانزي. لم يشُكوا قَطُّ في موتي، وكنت أقصد ألا يشُكوا. سمعت أن «باركلي» تزوج «نانسي»، وأنه ارتقى بسرعة في الفرقة. ولكن حتى هذا لم يحثني على أن أتكلم.

غير أن المرء إذا ما بلغ الشيخوخة حن إلى وطنه. ظللت سنوات أحلم بالحقول الخضراء وأسوار النباتات المتسلقة لإنجلترا. وأخيرًا، عولت على أن أراها قبل أن أموت. فوفرت ما يكفي لمجيئي، وأتيت إلى هنا حيث يوجد الجنود، وأنا أعرف طرقهم وكيف أسليهم، وبذا أكسب عيشي.

فقال «شرلوك هولمز»:

ـ روايتك ممتعة جدًّا. وقد سمعت عن لقائك مع «مسز باركلي» ومفاوضتكما المتبادلة. أفهم من هذا أنك تبعتها بعد ذلك إلى بيتها، وأبصرتَ من خلال النافذة ما دار بينها وبين زوجها من عراك اتهمته فيه بموضوعك. فتغلبت عليك مشاعرك، فجريت عبر الأرض المكسوة بالحشيش، ودخلت عليها الحجرة.

ـ فعلت هذا، يا سيدي. ولما رآني، تغير منظره بصورة غريبة، وصار مختلفًا عن منظر أي شخص رأيته من قبل طوال حياتي، فسقط، وارتطم رأسه بالمتكأ، ومات قبل أن يسقط. قرأت الموت واضحًا في وجهه كما أقرأ نصًّا أمام النار. كان مجرد رؤيتي كالرصاصة خلال قلبه الآثم.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك أغمي على «نانسي»، فأخذت مفتاح الباب من يدها قاصدًا أن أفتحه وأطلب نجدة. ولكن، بينما أنا أهِم بفعل ذلك، بدا لي من الخير أن أترك كل شيء على ما هو عليه وأخرج، إذ تبدو المسألة سوداء ضدي. وعلى أي حال، كان سري سينفضح إذا ما قُبض عليَّ. وفي عجلتي، وضعت المفتاح في جيبي، وتركت عصاي وأنا أطارد «تيدي»، الذي جرى إلى أعلى الستارة. فلما أمسكته ووضعته في الصندوق الذي خرج منه، هربت بأسرع ما في مكنتي أن أجري.

فسأله «هولمز»:

ـ ومن هو «تيدي»؟

انحنى الرجل إلى الأمام وضرب غطاءَ ما يُشبه الصندوق في ركن الحجرة، فخرج منه في الحال مخلوق جميل بني اللون يميل إلى الحمرة، وجسمه رفيع طري، وأرجله قصيرة كأرجل العرسة، وخطمه طويل رفيع، وله زوج من أجمل العيون الحمراء التي رأيتها في حياتي في رأس حيوان.

صحت أقول:

ـ إنه ابن عُرس!

ـ حسنًا، بعض الناس يسميه هكذا، أما أنا فأسميه «قانص الثعابين». و«تيدي» هذا مدهش في سرعته، وهو ينقض على الكوبرا. عندي كوبرا هنا، نُزع ناباها، و«تيدي» يقبض عليها كل ليلة، فيُبهج المتفرجين في المقصف. أتريد أي نقطة أخرى، يا سيدي؟

ـ قد نضطر إلى المجيء إليك مرة أخرى، إذا تأزمت الأمور مع «مسز باركلي» ووجدناها في موقف حرج.

ـ في هذه الحال، سأحكي كل شيء.

ـ وإذا لم تصل الأمور إلى هذا الحد، فلا داعي إلى إذاعة هذه الفضيحة ضد رجل مات، رغم خسة فعلته. قد يرضيك أنه عاش على الأقل ثلاثين سنة من حياته وضميره يوخزه على عمله الشرير. وها هو الماجور «مورفي» يسير على الجانب الآخر من الطريق. إلى اللقاء، يا «وود». أريد أن أعرف منه ما إذا كان قد استجد شيء منذ الأمس.

وصلنا في الوقت المناسب لنلحق بالماجور قبل أن يصل إلى منعطف الطريق.

قال:

ـ آه، «هولمز»! أظنك سمعت أن كل تلك الضجة كانت زوبعة في فنجان، أسفرت عن لا شيء.

ـ وماذا، إذن؟

ـ انتهى التحقيق. جاء تقرير الطبيب الشرعي يقول إنه مات بالسكتة القلبية، وهأنتذا ترى أنها غدت قضية في غاية البساطة.

فقال «هولمز» مبتسمًا:

ـ يا لها من قضية سقيمة جدًّا! هيا، يا «واطسون»، لا أظنهم يريدوننا في آلدرشوط بعد ذلك.

قلت ونحن سائران إلى المحطة:

ـ هناك سؤال واحد: إذا كان الزوج اسمه «جيمس»، والحبيب اسمه «هنري»، فلمَ ورد ذكر «دافيد» في الحديث؟

ـ لحكَت لي هذه الكلمةُ، يا عزيزي «واطسون»، قصةً كاملةً، لو كنت أنا الشخص المثالي الذي أنت مولع بتصويره. من الجلي أن هذا الاسم مصطلح يراد به التحقير أو التوبيخ.

ـ التحقير أو التوبيخ؟

ـ نعم، تاه «دافيد» ذات مرة، كما تعلم، وفي مرة ما، في الاتجاه نفسه، مثل الرقيب «جيمس». هل تتذكر تلك القضية البسيطة، قضية «أوريا وباتشيبا»؟ إن معلوماتي عن التوراة صدئة قليلًا، وأظنك تستطيع العثور على هذه القصة في سِفر صموئيل الأول، أو صموئيل الثاني، من التوراة.

المريض المقيم

بمراجعة مجموعة المذكرات غير المتجانسة التي حاولت بها توضيح العجائب الذهنية لصديقي «المستر شرلوك هولمز»، أدهشتني الصعوبة التي قابلتني في اختيار أمثلة تبين هدفي من جميع نواحيه. ففي تلك الأحوال التي أنجز «هولمز» فيها أعمالًا تحتاج إلى مهارة غير عادية، يوضح استدلالٌ تحليلي قيمة طرقه العجيبة في التحقيق. كانت الحقائق نفسها ضئيلة أو عادية، فلم أشعر بالرضا في وضعها أمام الجمهور. ومن ناحية أخرى، كثيرًا ما حدث أن قام ببعض أبحاث كان طابع الحقائق فيها مثيرًا ودراميًّا إلى أقصى حد، ولكن دوره في معرفة أسبابها كان أقل وضوحًا مما كنت آمل أنا، ككاتب تاريخ حياته. والمادة البسيطة التي رويتها تحت عنوان «دراسة بالدم»، والقصة الأخرى الخاصة بضياع السفينة «جلوريا سكوت»، قد تعتبران أمثلة لتلك «السيلا والكاريبديس» التي تهدد المؤرخ باستمرار. وقد يكون الدور الذي قام به صديقي في القضية التي سأكتب وقائعها الآن، غير واضح وضوحًا كافيًا. ومع ذلك، فسلسلة ظروف القضية شهيرة جدًّا بحيث لا يمكنني، بحال ما، أن أحذفها من هذه المجموعة.

في أحد أيام شهر أكتوبر، والمطر يهطل غزيرًا والشيش نصف مرفوع، رقد «هولمز» على الأريكة يقرأ خطابًا جاءه في بريد الصباح، ويعيد قراءته بإمعان. أما أنا، فإن مدة خدمتي في الهند علمتني أن أقاوم الحر أكثر من البرد، وأن درجة حرارة 90 درجة فهرنهايت ليست صعبة الاحتمال. غير أن الصحيفة لم تكن ممتعة، وقد انفضت الدورة البرلمانية، وغادر كل فرد المدينة، فاشتقت إلى خلاء الغابة الجديدة أو شاطئ البحر الجنوبي. وإذ نضب رصيد حسابي في البنك، اضطررت إلى تأجيل عطلتي. أما رفيقي فلم يهتم بالريف ولا بالبحر في قليل أو كثير. كان يلذ له أن يرقد وسط خمسة ملايين شخص، ويمد خيوطه بينهم استجابة لكل شائعة بسيطة، أو اشتباه في وجود

جريمة لم يتوصل أحد إلى حلها، وعندئذ لا يجد جمال الطبيعة له مكانًا بين مواهبه الكثيرة. والتغير الوحيد الذي يحظى به هو عندما يُحول ذهنه من مجرم المدينة، ويوجهه نحو مجرم الريف.

لما وجدت «هولمز» منهمكًا جدًّا في ذلك الخطاب ومشغولًا به عن التحدث معي، ألقيت بصحيفتي الخاوية جانبًا، وأسندت ظهري إلى مقعدي، واستغرقت في شرود ذهن عميق. وفجأة، دوى صوت رفيقي ليخرجني من تفكيري.

قال «هولمز»:

ـ أنت على حق، يا «واطسون». تبدو طريقة غير معقولة لتسوية النزاعات.

قلت:

ـ نعم، هي غير معقولة على الإطلاق.

ثم أدركت فجأة كيف عرف لب فكرتي بالضبط، فاعتدلت في جلستي وحملقت فيه مدهوشًا.

صحت أقول:

ـ ما هذا، يا «هولمز»؟ هذا أكثر مما يمكنني أن أتصوره.

ضحك ملء فمه لحيرتي.

قال:

ـ أتتذكر، يا «واطسون» أنني حينما قرأت لك منذ وقت قصير فقرة إحدى روايات «بو»، تتبع فيها محققٌ أفكار رفيقه التي لم يتحدث عنها، كنتَ تميل إلى اعتبار الموضوع مجرد عمل يحتاج إلى مهارة عادية؟ وإذ لاحظت أن من عادتي أن أفعل باستمرار الشيء نفسه، عبرتَ عن عدم تصديقك.

ـ كلا، البتة!

ـ ربما أنك لم تعبر بلسانك، يا عزيزي «واطسون»، ولكن من المؤكد أنك عبرت بحاجبيك، لذا عندما أبصرتك تلقي صحيفتك على الأرض، وتدخل في سلسلة من الأفكار، فرحت جدًّا لأجد

فرصة لقراءة أفكارك، والتصريح بذلك كبرهان على أنني كنت على اتصال بك.

ولكني لم أقتنع بما قاله، فقلت له:

ـ في المثال الذي قرأته لي عن علم الفراسة، استدل المحقق على استنتاجه من أفعال الرجل الذي لاحظه، فإذا كانت ذاكرتي سليمة، فإنه تعثَر فوق كومة من الحجارة، ونظر نحو النجوم، وما إلى ذلك. ولكني كنت جالسًا على مقعدي في هدوء، ولم أقدم لك أي دلائل، فماذا لاحظت؟

ـ أنت تظلم نفسك، يا «واطسون». وهبَ الإنسان ملامحه ليعبر بها عن عواطفه وما يجيش بخاطره، وملامحك خادم أمين.

ـ هل تعني أنك قرأت أفكاري عن طريق ملامحي؟

ـ نعم، قرأتها عن طريق ملامحك، ولا سيما عيناك. ربما لا تتذكر، أنت نفسك، كيف بدأت مناجاتك نفسك؟

ـ فعلًا، لا أتذكر.

ـ إذن، فسأخبرك بما حدث منك: بعد أن رميت صحيفتك، ذلك العمل الذي لفت انتباهي إليك. فجلست لمدة نصف دقيقة وملامحك لا تنم عن شيء، ثم ثبتَّ عينيك على صورة الجنرال «جوردون»، فرأيتُ من التغييرات التي حدثت بوجهك أن سلسلة من الأفكار قد بدأت. ولكنها لم تَقُدك إلى مسافة بعيدة. ثم استدارت عيناك نحو صورة من دون إطار لـ«هنري وارد بيتشر» موضوعةٍ فوق قمة كتبك. وبعدها نظرتَ إلى الحائط، وبالطبع كان معنى هذا واضحًا. كنت تفكر فيما إذا وُضع إطار لهذه الصورة، فإنها يمكن أن تغطي ذلك الجزء العاري من الحائط، علاوة على أنها تُحدث تماثلًا مع صورة «جوردون» الموضوعة هناك.

قلت:

ـ لقد تتبعتني جيدًا.

ـ إلى هذا الحد لم تشرد بعيدًا. أما الآن، فقد رجعت أفكارك إلى «بيتشر»، فنظرتَ إليه مليًّا كما لو كنت تدرس أخلاقه من تلك الملامح. وبعد هذا توقفت عيناك عن التحرك، ولكنك ما زلت

تنظر إلى هناك، وكان وجهك كثير التفكير. كنت تتذكر أحداث حياة «بيتشر». كما لاحظت أنك لم تستطع أن تفعل هذا دون أن تفكر في المهمة التي قام بها نيابة عن أهل الشمال أثناء الحرب الأهلية، لأنني أتذكرك تعبر عن اشمئزازك من الطريقة التي استقبله بها جمهور شعبنا الأكثر اضطرابًا. شعرت بقوة إزاء ذلك حتى عرفت أنك لا تستطيع التفكير في «بيتشر» دون أن تفكر في ذلك أيضًا. وبعدها بلحظة أبصرت عينيك تذهبان بعيدًا عن الصورة، فاشتبهتُ في أن يكون عقلك قد اتجه إلى الحرب الأهلية. وحينما لاحظت أن شفتيك مضمومتان وعينيك تتألقان ويديك مقفلتان، تأكدت من أنك تفكر في الشهامة التي أبداها كلٌّ من الطرفين في ذلك النضال المرير. ولكن الحزن بان على وجهك مرة أخرى، فهززت رأسك. كنت تفكر بحزن في فظاعة ضياع الحياة هكذا من دون فائدة. وتحركت يدك نحو جرحك القديم، وارتسمت على شفتيك ابتسامة أوضحتْ لي أنه قد جال بخاطرك ذلك الجانب السخيف لطريقة تسوية المسائل الدولية. عند تلك النقطة وافقتُك على أن هذه الطريقة غير معقولة. فسرني أنك عرفت أن جميع استنتاجاتي صحيحة.

قلت:

ـ كلها صحيحة تمامًا. والآن، بما أنك شرحتها لي، فأنا أعترف بأنني ما زلت مدهوشًا كما كنت من قبل.

ـ أؤكد لك، يا عزيزي «واطسون»، أنها مسألة سطحية، وما كنت لأخبرك بها لو أنك لم تصرح بعدم تصديقك في ذلك اليوم لمظاهر علم الفراسة. غير أن المساء جاء معه بنسمة. فما قولك في أن نتجول معًا خلال لندن؟

مللت البقاء في حجرة جلوسنا الصغيرة، فوافقته مسرورًا. ولمدة ثلاث ساعات أخذنا نسير معًا، نلاحظ استمرار تغير الحياة وهي تزدحم وتنحسر في شارعَي فليت وستراند، وقد عمل كلام «هولمز» المألوف وملاحظاته الدقيقة للتفاصيل، على بقائي مدهوشًا طوال الوقت. كانت الساعة العاشرة قبل أن نصل إلى شارع بيكر مرة أخرى. فلما وصلنا وجدنا عربة تنتظر أمام بابنا.

قال «هولمز»:

ـ عجبًا! عربة طبيب! إنه ممارس عام حسبما أرى. لم يمضِ وقت طويل على بدئه في مزاولة مهنته. ولكن لديه الكثير من العمل، يخيل إليَّ أنه جاء ليستشيرنا، ومن حسن الحظ أننا

رجعنا.

كنت ملمًّا تمام الإلمام بطرق «هولمز»، فأمكنني أن أتتبع استنتاجاته، وأعرف أن طبيعة الأدوات الطبية الموجودة في السلة الخيزران المعلقة في فانوس العربة، هي التي زودته بالمعلومات اللازمة لاستنتاجاته هذه. دل النور الظاهر في نافذتنا على أن هذا الزائر المتأخر كان، في الحقيقة، يقصدنا. فتبعت «هولمز» إلى مسكننا، وأنا



أخذنا نسير معًا

أفكر فيما عسى أن يكون قد جاء بزميل لي في المهنة، في مثل هذه الساعة المتأخرة.

حينما دخلنا حجرة الاستقبال، نهض رجل شاحب الوجه طويلُه، ذو عوارض صفراء اللون، نهض من فوق مقعده أمام الوطيس. لا يزيد عمره على ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين سنة. ولكن ملامحه الهزيلة ولونه الشاحب دلَّانا على حياة امتصت قوته وسلبته شبابه. كان بادي العصبية والخجل، مرهف الحس. وكانت يده الرفيعة البيضاء التي وضعها على رف الوطيس وهو ينهض، أشبه بيد فنان أكثر منها يد جراح. أما لباسه فهادئ وقاتم، يرتدي سترة فروك سوداء، وبنطلونًا داكن اللون، ورباط رقبة به لمسة من اللون.

قال «هولمز» باشًّا:

ـ مساء الخير يا دكتور. يسرني أنك لم تنتظرني أكثر من بضع دقائق.

ـ إذن، فقد تحدثتَ إلى سائق عربتي؟

ـ كلا، بل إن الشمعة القائمة على النضد هي التي أخبرتني بذلك. أرجو أن تجلس ثانية وتعلمني كيف يمكنني خدمتك.

قال:

ـ اسمي الدكتور «بيرسي تريفليان»، وأقيم في رقم 403 شارع بروك.

فسألته:

ـ ألست مؤلف رسالة في خلل الأعصاب الغامض؟

احمرت وجنتاه الصفراوان سرورًا لسماعه أنني أعرف مؤلفه.

قال:

ـ قلما سمعت عن هذا المؤلف. ظننته ميتًا. فناشرو هذه الرسالة يثبطون من همتي ويبالغون في قلة المبيعات. أعتقد أنك، أنت نفسك، طبيب.

ـ جراح في الجيش، متقاعد.

ـ كانت هوايتي باستمرار أمراض الأعصاب، وكنت أطمح إلى جعلها تخصصي الوحيد. يجب على المرء أن يتناول ما يمكنه الحصول عليه أولًا. وعلى أي حال، هذا خارج عن الموضوع. فأنا أقدر قيمة وقتك الثمين، يا «مستر هولمز». المسألة، وما فيها، أنه حدثت سلسلة وقائع حديثًا في بيتي بشارع بروك، وقد وصلت هذه الأحداث ذروتها في هذه الليلة، حتى شعرت بأنه من المستحيل أن أنتظر ساعة أخرى قبل أن أطلب نصيحتك ومساعدتك.

جلس «شرلوك هولمز»، وأشعل غليونه، وقال:

ـ مرحبًا بك من أجل كلتيهما. أرجوك أن تروي لي بالتفصيل، تلك الظروف التي أزعجتك.

قال الدكتور «تريفليان»:

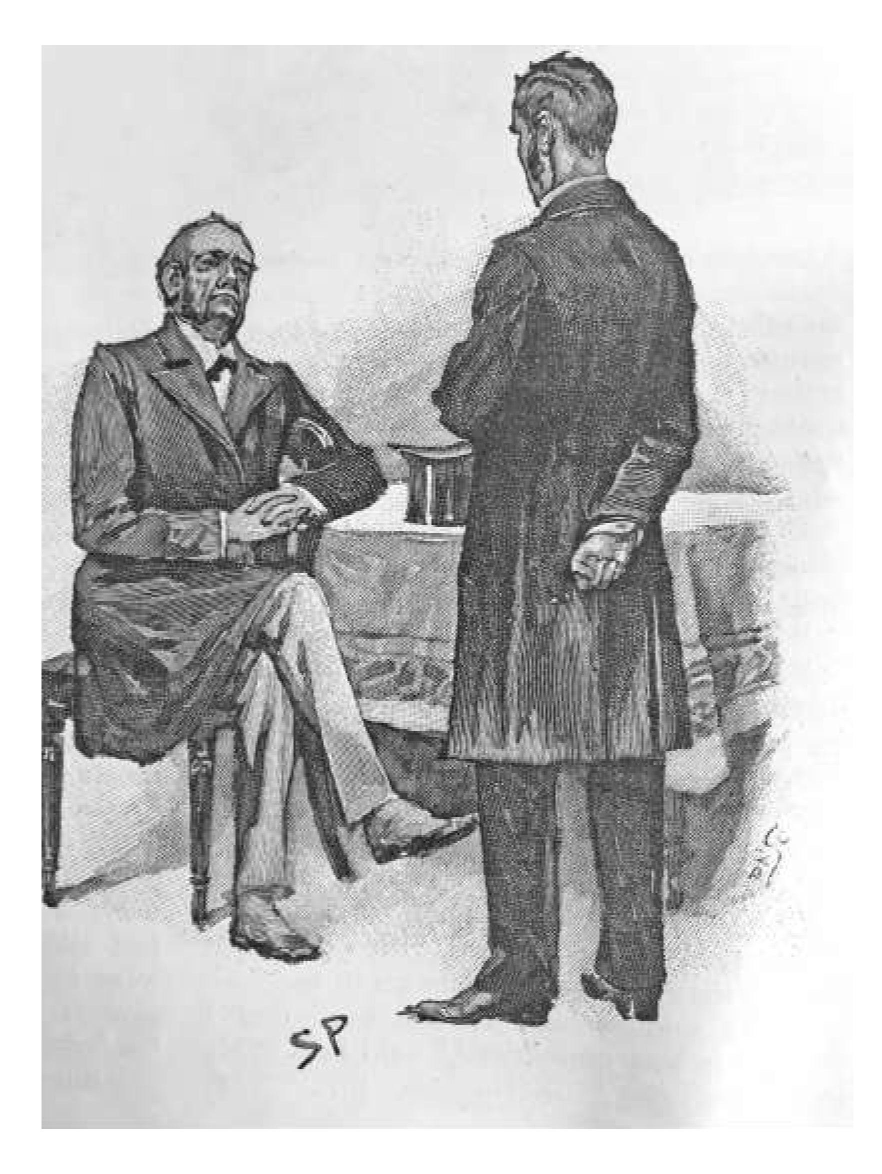
ـ ظرف أو اثنان منها تافهان، حتى إنني لَأخجل من ذكرهما. ولكن المسألة تستعصي على الشرح. وقد وصلت أخيرًا إلى دور دقيق يجعلني أضع كل شيء أمامك، وأترك لك الحكم على ما هو ضروري منها، وما هو تافه لا يستحق الذكر.

ولكي أبدأ قصتي، أجد نفسي مضطرًّا إلى أن أذكر شيئًا عن حياتي في الكلية: أنا خريج جامعة لندن، كما تعرف، وأنا على يقين من أنك لن تظنني أطري محاسن نفسي عندما أقول إن جميع أساتذتي وأنا طالب، كانوا يعتبرون سِنِيَّ دراستي مبشرة جدًّا بالخير. وبعد تخرجي، داومت على تكريس نفسي للأبحاث، فشغلت منصبًا بسيطًا في مستشفى كلية الملك. وقد ساعدني الحظ كثيرًا بأن أثير اهتمام الكثيرين بأبحاثي في أمراض التخشب العصبي. وأخيرًا، لكي أحظى بجائزة «بروس بنكرتون» وميداليتها، وضعت رسالة في خلل الأعصاب الغامض التي لمح إليها زميلك الآن فقط. لن أطيل الكلام إذا قلت إن مستقبلًا باهرًا كان ينتظرني.

ولكن العقبة الوحيدة الكأْداء هي افتقاري إلى رأس المال كما ستفهم بعد لحظة. فإن الإخصائي الطموح إلى الشهرة مضطر إلى أن يبدأ عمله في شارع بميدان كافنديش. وكلها تتطلب إيجارًا عاليًا ونفقات تأثيث باهظة. وعلاوة على هذه الأمور المبدئية، فهو مضطر إلى الإنفاق على نفسه لعدة سنوات، واستئجار عربة فخمة وحصانًا. وهذا فوق مقدوري. فكان كل ما طمعت فيه هو أن أقتصد ما يكفي لأن أضع لافتة باسمي، ولكن لم ألبث سوى عشية وضحاها حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، ففتح أمامي آفاقًا جديدة.

زارني رجل اسمه «بلسنجتون»، وكان غريبًا عليَّ تمامًا. دخل إلى حجرتي ذات صباح، ومن دون مقدمات ولا لف أو دوران، دخل من فوره في موضوع العمل. قال: «هل أنت الدكتور «بيرسي تريفليان» الشهير بجِدك وذكائك، وفزت أخيرًا بجائزة عظمى؟». فانحنيت له. استطرد يقول: «أنت تملك المهارة التي تُكون الرجل الناجح. فهل لديك اللباقة؟». لم يسعني إلا أن أبتسم لمفاجأة هذا السؤال. فقلت: «أثق بأن لي نصيبي». «ألديك أي عادات سيئة؟ كشرب الخمر مثلًا؟». قلت: «حقيقة، يا سيدي!». «صحيح تمامًا! هذا ملائم! ولكني مضطر إلى أن أسألك. إذا كانت لك كل هذه الصفات، فلماذا لا تباشر اختصاصك؟». هززت كتفي. قال بطريقته المتعجرفة: «هيا، هيا! إنها الحكاية القديمة. ما في فمك أكثر مما في جيبك. ماذا تقول إذا هيأت لك مكانًا للعمل في شارع بروك؟». حملقت فيه مدهوشًا. فصاح يقول: «هذا من أجل خاطري أنا، وليس من أجل خاطرك أنت. سأكون معك في منتهى الصراحة، فإذا وافقك ما سأعرضه عليك، فإنه سيوافقني أنا أيضًا. معي بضعة آلاف أريد أن أستثمرها. أترى أن أستثمرها معك؟». قلت: «ولماذا؟». «إنها مثل أي استثمار آخر، وأكثر أمنًا من معظم وجوه الاستثمارات الأخرى». «إذن، وماذا تريدني أن أفعل؟». «سأخبرك: سآخذ البيت، وأؤثثه، وأدفع أجر الخادمات، وأدير المكان كله. كل ما عليك أن تفعله، هو أن تُبلي مقعدك في حجرة الاستشارة الطبية. وسأعطيك مبلغًا للمصروفات النثرية، وكل شيء آخر يلزم للعيادة. وفي نهاية كل يوم، تسلمني ثلاثة أرباع الإيراد، وتحتفظ لنفسك بالربع».

هذا هو الاقتراح الغريب، يا «مستر هولمز» الذي عرضه عليَّ ذلك الرجل «بلسنجتون». لن أتعبك بإخبارك كيف تَساومنا



حملقت فيه مدهوشًا

وكيف تَفاوضنا. وانتهى الأمر بانتقالي إلى ذلك المنزل، في عيد السيدة العذراء التالي. وبدأت أمارس العمل بالشروط نفسها التي اقترحها. وجاء هو نفسه ليعيش معي كمريض مقيم. كان قلبه ضعيفًا، كما يبدو، ويحتاج إلى ملاحظة طبية مستمرة. فحوَّل أفضل حجرتين بالدور الأول إلى حجرة نوم وحجرة جلوس لنفسه. وكان رجلًا غريب الطباع، يتحاشى مقابلة أي فرد، ولا يخرج من البيت إلا نادرًا. لم تكن حياته منتظمة، ولا يعرف النظام إلا في حالة واحدة كان فيها النظام بعينه. ففي كل مساء وفي الموعد نفسه، يدخل حجرة الفحص الطبي فيفحص الدفاتر ويضع خمسة شلنات وثلاثة بنسات من كل جيني[6]، ويأخذ الباقي معه ليضعه في خزانة حديدية في حجرته.

يمكنني أن أقول واثقًا من كلامي، إنه لم يجد أي فرصة تجعله يندم على استثماره أمواله بهذه الطريقة. فمنذ البداية كان الاستثمار ناجحًا. كانت هناك بضع حالات جيدة، وكونت شهرة في المستشفى نقلتني بسرعة إلى المقدمة. وإبان السنة الماضية أو السنتين الماضيتين، جعلت منه رجلًا ثريًّا.

هذا هو تاريخي، يا «مستر هولمز»، وعلاقتي بـ«المستر بلسنجتون». ولا يتبقى أمامي الآن إلا أن أخبرك بما حدث وجعلني أجيء إليك في هذه الليلة.

منذ بضعة أسابيع، جاءني «المستر بلسنجتون» في حالة هياج شديد وهو يرغي ويزبد، وأخبرني بحدوث سرقة في وست إند. وأذكر أنه بدا ثائرًا بغير مبرر، من أجل تلك السرقة، وقال إنه يجب ألا يمر يوم قبل أن نضع لأبوابنا ونوافذنا، مزاليج أقوى من التي بها. وظل مدة أسبوع في حالة من القلق الشديد الغريب، فتراه يطل باستمرار من النوافذ. وكفَّ عن الخروج ليتمشى قبل تناول طعام العشاء كما اعتاد دائمًا. وقد هالني أن أستشف من حالته أنه في هلع شديد من شيء ما، أو من شخص ما. ولكن عندما سألته عن ذلك، أخذ يسب ويلعن حتى اضطررت إلى ترك ذلك الموضوع تمامًا. وبالتدريج، ومع مرور الوقت، بدأت مخاوفه تتلاشى، ورجع إلى عاداته السابقة، إلى أن وقع حادث جديد هز كيانه وجعله يرقد الآن، ينتفض خوفًا وهلعًا.

هاك ما حدث منذ يومين: تسلمت الخطاب الذي سأقرأه لك الآن، وليس به عنوان ولا تاريخ.

يقول الخطاب:

> يقيم أحد النبلاء الروس الآن في إنجلترا، ويسره أن يعهد بنفسه إلى مساعدة الدكتور «بيرسي تريفليان» وعنايته الطبية. ظل هذا النبيل عدة سنوات فريسة نوبات تخشُّب عصبي، ذلك المرض الذي اشتهر به الدكتور «تريفليان» وبأنه حجة فيه. يود هذا النبيل أن يأتي لعيادتك في قرابة الساعة السادسة والربع من مساء غد، إذا تكرم الدكتور «تريفليان» وبقي في البيت في ذلك الموعد.

أمتعني هذا الخطاب كثيرًا، لأن الصعوبة الرئيسية التي ألاقيها لدراسة هذا المرض، هي ندرته. صدِّقني، يا «مستر هولمز»، كنت في عيادتي في ذلك الموعد بالضبط، فإذا بالخادم يُدخل ذلك المريض.

كان رجلًا عجوزًا نحيل الجسم جمَّ الأدب، وبسيطًا عاديًّا، على عكس الفكرة التي تتكون في الذهن عن نبيل روسي. وقد أثار انتباهي كثيرًا منظر رفيقه. كان شابًّا فارع الطول أنيقًا بدرجة مدهشة، ذا وجه قاتم شرس، وله صدر هرقل وذراعاه. كان يضع يده في ذراع العجوز وهما داخلان. ثم ساعده في الجلوس على كرسي، برفقٍ قلما يتوقعه الإنسان من منظر ذلك الشاب مفتول العضلات.

قال لي الشاب بإنجليزية ذات لثغة خفيفة: «معذرة لدخولي، يا دكتور. هذا والدي، وتهمني صحته كثيرًا». تأثرت كثيرًا للقلق البُنويِّ هذا، وقلت له: «ربما أمكنك أن تبقى هنا أثناء الفحص والاستشارة». صاح يقول في فزع وانتفاض: «كلا، أرجوك. هذا يؤلمني ألمًا لا أستطيع التعبير عنه. فلو رأيتُ والدي في إحدى تلك النوبات المريعة، لَما بقيت بعدها على قيد الحياة، دونما شك. إن جهازي العصبي حساس للغاية. أرجو أن تأذن لي بالبقاء في حجرة الانتظار، ريثما تنتهي من فحص حالة أبي وتقرر له ما يجب عليه عمله».

وبالطبع، وافقت على هذا. وانسحب الابن، واستغرقت أنا والمريض في مناقشات عن حالته، دونتُ عنها كثيرًا من الملاحظات. لم يكن جمَّ الذكاء، ومعظم إجاباته غامضة، نَسبتها إلى إلمامه المحدود بالإنجليزية. وحينما جلست أكتب ملاحظاتي، وكفَّ تمامًا عن الرد على أسئلتي. وعندما استدرت نحوه، هالني أنه جلس متخشبًا تمامًا فوق الكرسي يحملق فيَّ بوجه متصلب عديم الملامح. لقد صار مرة أخرى في قبضة مرضه الغريب.

كان أول شعوري، كما قلت، هو الإشفاق والفزع. وثانيًا، أخشى أن يكون هو الرضا المهني. فأخذت مذكرات بنبض ذلك المريض ودرجة حرارته، وقست تصلب عضلاته، وفحصت انقباضاتها العكسية. لم يكن هناك شيء غير عادي في أي حالة من هذه، وتتجانس مع خبرتي السابقة. وسبق أن حصلت على نتائج طيبة في مثل هذه الحالة، بأن أجعل المريض يستنشق «نتريت الأميل». وهذه الحالة فرصة رائعة لاختبار مدى فعالية هذا العقار. غير أن زجاجة «نتريت الأميل» كانت في معملي بالدور الأرضي. لذا تركت المريض جالسًا فوق الكرسي، وجريت لأحضر هذه الزجاجة. وتأخرت قليلًا في العثور عليها، خمس دقائق مثلًا، ثم رجعت إلى العيادة. وتصورْ دهشتي، يا «مستر هولمز»، حينما وجدت الحجرة خاوية والمريض غير موجود!

وبالطبع، كان أول ما فكرت فيه هو أن أذهب إلى حجرة الانتظار، فوجدت أن الابن قد غادرها هو أيضًا. كان باب البهو مقفلًا قليلًا، ولكنه لم يكن مغلقًا تمامًا. ولم يكن خادمي، الذي يتولى إدخال المرضى عندي، سريعًا بحال ما، إذ كان غلامًا جديدًا ينتظر بالدور الأرضي، ويسرع إلى فوق ليخرج المرضى عندما أدق له الجرس الموجود بحجرة الفحص. لم يسمع هذا الغلام شيئًا، وبقيت هذه المسألة لغزًا كاملًا. وبعد ذلك بوقت قصير، رجع «المستر بلسنجتون» من سيره المعتاد. ولكني لم أقل له شيئًا عن ذلك الموضوع، لأنني، إذا أردتَ الحقيقة، كنت أتحاشى الاتصال به قدر المستطاع في الفترة الأخيرة.

لم أفكر قَطُّ في أن أرى النبيل الروسي ولا ابنه، بعد ذلك. ولذا يمكنك أن تتصور دهشتي حينما جاءا، هذا المساء في الميعاد نفسه، ودخلا حجرة الفحص مثلما فعلا في المرة السابقة تمامًا.

قال المريض: «أشعر، يا دكتور، بأنني مدين لك بالكثير من الاعتذارات لانصرافي فجأة بالأمس». قلت: «أعترف بأنني دهشت جدًّا لانصرافكما». قال: «الحقيقة هي أنني عندما أفيق من هذه النوبات، يغدو عقلي غير واعٍ لكل ما حدث من قبل، فأفقت من غشيتي فوجدت نفسي في حجرة غريبة، كما بدت لي، فخرجت إلى الطريق مذهولًا، حينما كنتَ غائبًا». وقال الابن: «وأنا، حيثما أبصرت أبي يمر من أمام باب حجرة الانتظار، ظننت، بطبيعة الحال، أن الاستشارة انتهت، ولم أدرك حقيقة الموقف إلا بعد أن وصلنا إلى البيت». قلت ضاحكًا: «على أي حال، لم يحدث ضرر سوى حيرتي البالغة لاختفائكما. والآن، هل تتفضل يا سيدي بالذهاب إلى حجرة الانتظار! وسيسرني أن أستمر في فحصي الذي توقف فجأة بالأمس».

ناقشت أعراض مرض الرجل العجوز معه لمدة نصف ساعة، أو نحو ذلك. ثم كتبت له تذكرة الدواء، وودعته وهو يخرج مستندًا إلى ذراع ابنه.

أخبرتك بأن «المستر بلسنجتون» اختار هذه الساعة من اليوم كي يخرج ليتمشى كتمرين رياضي بسيط، ثم جاء بعد انصراف هذين الرجلين بوقت قصير، فصعد إلى الدور العلوي. وبعد ذلك بلحظة سمعته يجري إلى أسفل، واندفع إلى داخل حجرة الفحص كرجل به مَس من الجنون. صاح يقول: «من دخل حجرتي؟». قلت: «لا أحد». صاح بصوت مرتفع يقول: «هذا كذب محض. تعالَ إلى فوق، وانظر بنفسك».

تغاضيت عن لغته الخشنة، إذ بدا نصف مجنون، خوفًا ووجلًا. فذهبت معه إلى الدور العلوي، فأشار إلى عدة آثار أقدام على البساط زاهي اللون. صاح يقول: «أتقصد أن تقول إن هذه آثار قدميَّ؟».

كانت آثار الأقدام، بكل تأكيد، أكبر بكثير من أي أقدام تُحدثها. وكان من الواضح أنها جديدة، وقد أمطرت السماء بعد ظُهر اليوم، كما تعلم، وكان مرضاي هم الوحيدون الذين جاءوا. إذن، فلا بد أن الرجل الذي كان بحجرة الانتظار، خرج وأنا مشغول مع أبيه، إلى حجرة مريضي المقيم. ولكنه لم يلمس شيئًا، ولم يأخذ شيئًا، غير أن هناك آثار الأقدام تلك برهان على دخول تلك الحجرة.

بدا «المستر بلسنجتون» ثائرًا جدًّا أكثر من ذي قبل بخصوص هذا الموضوع. وله الحق، فإن ما حدث يكفي لإزعاج خاطر أي فرد. فجلس على أحد المقاعد يبكي، وقلما استطعت أن أجعله يتكلم كلامًا متماسكًا، وهو الذي اقترح عليَّ أن آتي إليك. وبالطبع، رأيت، في الحال، صواب رأيه، لأن هذا الحادث فريد وبالغ الأهمية. فلو تفضلت بالمجيء معي في عربتي لأمكنك، على الأقل، أن تهدئ من روعه، رغم أنني قلما آمل في أن يكون بوسعك تفسير ما حدث.

أصغى «شرلوك هولمز» إلى هذه الرواية الطويلة باهتمام عظيم، وأبان لي أنه وجد متعة أي متعة، في هذا الأمر، أثارت حماسه. كان وجهه عديم التأثر، كالمعتاد، ولكن جفنيه تدليا بشدة فوق عينيه، وتصاعد الدخان من غليونه كثيفًا، ليؤكد كل حلقة في رواية ذلك الطبيب. وما إن أتم زائرنا حكايته، حتى قفز «هولمز» واقفًا دون أن ينطق بكلمة، وأعطاني قبعتي، وأخذ قبعته من فوق النضد، وتبِعْنا الدكتور «تريفليان» إلى الباب. وبعد ربع ساعة، نزلنا أمام باب مسكن الطبيب في شارع بروك. وهو أحد تلك المنازل دكناء الواجهة التي يتميز بها وست إند. فأدخلنا خادم صغير السن، فبدأنا، في الحال، نصعد السلم العريض المفروش بالبساط.

ولكن صوتًا حادًّا أوقفنا في مكاننا. فأُطفئ النور العلوي فجأة، وصاح صوت مرتجف من وسط الظلام، يقول:

ـ معي مسدس! وأقول لكم كلمتي: إنني سأطلق الرصاص إذا اقتربتم أكثر.

فصاح الدكتور «تريفليان» يقول:

ـ هذا، في الحقيقة أكثر مما يجب يا «مستر بلسنجتون».

فقال الصوت، وقد اطمأن كثيرًا:

ـ إذن، فهذا أنت يا دكتور «تريفليان». ولكن هذين السيدين، أهما من يدَّعيان لأنفسهما؟

أدركنا أننا تعرضنا لفحص دقيق ونحن في الظلام.

فقال الصوت أخيرًا:

ـ نعم، نعم، هذا صحيح، يمكنكم أن تصعدوا، وأنا آسف إذا كانت احتياطاتي قد أساءت إليكم.

أعاد إضاءة مصباح الغاز بأعلى السلم وهو يتكلم، فأبصرنا أمامنا رجلًا فريد المنظر، يدل شكله وصوته على توتر أعصابه. كان بدينًا جدًّا، ولكنه ربما كان، في وقت ما، أكثر بدانة، إذ ترهل جلد وجهه في جيوب مثل خدود كلب الصيد. وكان شاحب اللون وشعره الأصفر منتصبًا كالأشواك بسبب شدة ثورة عواطفه. وقد أمسك في يده مسدسًا، ولكنه وضعه في جيبه عندما شاهدَنا نصعد السلم.

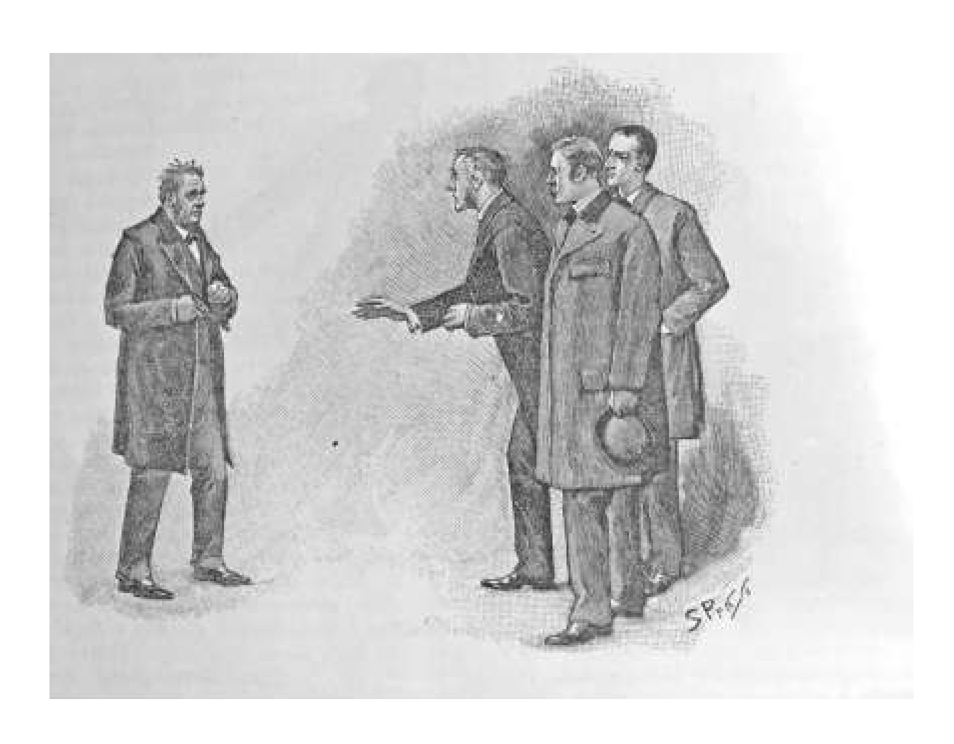
قال:

ـ مساء الخير، يا «مستر هولمز». أنا متأكد من أنني مدين لك بالشكر العظيم على تفضلك بالمجيء. ما من أحد محتاج إلى نصحك أكثر مني. أظن الدكتور «تريفليان» أخبرك بذلك الدخول الجريء إلى حجرتي؟

قال «هولمز»:

ـ نعم، بالضبط. من هما هذان الرجلان، يا «مستر بلسنجتون»، ولماذا يريدان إيذاءك؟

قال المريض المقيم بعصبية:



وقد أمسك في يده مسدسًا

ـ حسنًا، حسنًا. من الصعب التكهن طبعًا. لا يمكنك أن تتوقع مني أن أجيب عن هذا، يا «مستر هولمز».

ـ أتقصد أنك لا تعلم؟

ـ تعالَ إلى هنا، من فضلك. تلطف فقط بأن تدخل هنا.

قادنا إلى غرفة نومه، الكبيرة وذات الأثاث المريح.

قال وهو يشير إلى صندوق كبير أسود عند طرف سريره:

ـ أترى ذلك، يا «مستر هولمز»؟ لم أكن قَطُّ رجلًا غنيًّا. لم أقُم، طوال حياتي كلها، إلا باستثمار واحد، كما يمكن للدكتور «تريفليان» أن يقول لك. وأنا، بطبيعتي، لا أثق في أصحاب المصارف. لن أثق بأي صاحب مصرف، يا «مستر هولمز». وفيما بيننا، إنني أحتفظ بالقليل الذي أملكه في هذا الصندوق. كما يمكنك أن تفهم دخول أحد الأغراب إلى حجرتي، بالنسبة لي.

نظر «هولمز» إلى «بلسنجتون» بطريقته الدالة على الريبة، وهز رأسه.

قال:

ـ لا يمكنني نصحك ما دمتَ تحاول أن تخدعني.

ـ ولكني أخبرتك بكل شيء.

استدار «هولمز» على عقبيه، مبديًا حركة امتعاض، وقال:

ـ مساء الخير، يا «مستر تريفليان».

فصاح «بلسنجتون» في صوت متهدج، يقول:

ـ ولا نصيحة لي؟

ـ نصيحتي لك أن تقول الحقيقة.

بعد دقيقة كنا في الشارع نسير إلى البيت، فعبرنا شارع أكسفورد وبلغنا نصف المسافة في شارع هارلي، قبل أن أحصل على كلمة من رفيقي.

قال «هولمز» أخيرًا:

ـ آسف على أنني أخرجتك بناء على رسالة رجل مجنون. وهي، في أعماقها، قصة ممتعة.

قلت معترفًا:

ـ لا يمكنني أن أفهم منها سوى القليل.

ـ حسنًا، من الجلي تمامًا أن هناك رجلين ـ وربما أكثر ـ يقصدان، لسبب ما، قَتْل ذلك الرجل «بلسنجتون». لا شك عندي إطلاقًا في أن ذلك الرجل الشاب قد نفَذ إلى حجرة «بلسنجتون» في كلٍّ من المرتين الأولى والثانية، بينما شغل زميله الدكتور «تريفليان» بطريقة بارعة.

ـ والتخشب العصبي؟

ـ إنه محاكاة زائفة، يا «واطسون»، ولو أنني قلما أجرؤ على القول بأنني أعرف ـ مثل إخصائيينا ـ أنه مرض من السهل جدًّا تمثيله. وقد فعلت ذلك أنا نفسي، عدة مرات.

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ بمحض الصدفة، كان «بلسنجتون» في الخارج في المرتين كلتيهما. ومن الجلي أن غرضهما من المجيء في مثل ذلك الميعاد، هو التأكد من عدم وجود أي مريض آخر هناك. وحدث أن ذلك الموعد وافق موعد خروج «بلسنجتون» للتريض على قدميه، مما يدل على أنهما لم يعرفا روتينه اليومي. وبالطبع، لو كان غرضهما السرقة، لقاما، على الأقل، بمحاولة البحث في حجرة «بلسنجتون» عما يمكن سرقته. وفضلًا عن هذا، فإن بوسعي أن أقرأ في عينَي المرء ما إذا كان كل ما يخاف عليه هو جلده. وليس من المعقول أن يعادي هذا الرجل عدوين حقودين كهذين دون أن يعرف شخصيتيهما. وإنني لعلى يقين من أنه يعرف تمامًا هذين الرجلين، وينكر معرفتهما لأمر في نفسه. ومن الممكن أن يراه الغد في حالة أكثر اتصالًا بهما.

قلت:

ـ أمَا من بديل آخر محتمل؟ قد تكون القصة كلها فيما يختص بذلك الرجل الروسي المريض بالتخشب العصبي وبابنه، من نسج خيال الدكتور «تريفليان» لأغراضه هو، وكان هو الذي دخل شقة «بلسنجتون»؟

أبصرت، في نور الغاز ابتسامة في فم «هولمز»، كأن اقتراحي هذا لم يعجبه. فقال:

ـ يا زميلي العزيز. كان هذا أحد الحلول التي طرأت على بالي، ولكني استطعت تأكيد رواية الدكتور «تريفليان». تَرْك ذلك الرجل آثارًا على بساط السلم، جعَل من العبث أن يطلب المرء رؤية الآثار التي تركها الرجل بالحجرة. فحينما أخبرك الدكتور بأن آثار الأقدام هي لحذاء مربع الطرف الأمامي، بدلًا من مدبب الطرف كحذاء «بلسنجتون»، وأنها أطول من حذاء الدكتور بمقدار واحد وثلث من البوصات، فإنك تعترف بأنه ما من شك في أن تلك الآثار غريبة. وعلى أي حال، دعنا نفكر فيها هذه الليلة، وستكون مفاجأة لي إن لم أسمع شيئًا أكثر من ذلك، من شارع بروك في الصباح.

سرعان ما تحقق تنبؤ «شرلوك هولمز»، ولكنْ بصورة درامية. ففي الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، عندما لمع أول شعاع من ضوء النهار، وجدت «هولمز» واقفًا بالروب إلى جانب سريري.

قال:

ـ بالباب عربة تنتظرنا، يا «واطسون».

ـ ماذا جرى؟

ـ مسألة شارع بروك.

ـ هل من جديد؟

قال وهو يفتح شيش الشباك:

ـ مأساة، ولكنها غامضة. انظر إلى هذه، ورقة من دفتر مذكرات كُتب عليها بالقلم الرصاص:

من أجل خاطر الله، تعالَ على الفور ـ «بيرسي تريفليان»

كان صديقنا الدكتور مرتبكًا حينما كتب هذه. هيا، يا صديقي العزيز، فهذا نداء عاجل.

كنا في بيت الطبيب بعد نحو ربع ساعة. فهرول يجري لملاقاتنا، وقد ارتسم الهلع على وجهه.

صاح، ويداه على صدغيه، يقول:

ـ يا لها من فعلة!

ـ ماذا، إذن؟

ـ انتحر «بلسنجتون»!

فصفر «هولمز»...

ـ نعم، شنق نفسه أثناء الليل.

دخلنا حجرة الانتظار بالعيادة، يتقدمنا الدكتور «تريفليان».

صاح يقول:

ـ الحقيقة أنني لا أدري ماذا أفعل. البوليس في الدور العلوي. لقد هز هذا الموضوع كياني وسلبني عقلي.

ـ من اكتشف ذلك؟

ـ جرت العادة أن يحملوا إليه قدحًا من الشاي في كل صباح، فلما دخلت الخادمة بالشاي في قرابة الساعة السابعة، وجدتْ ذلك الشخص التعيس متدليًا من السقف وسط الحجرة. ربط الحبل في الخطاف الذي اعتاد تعليق المصباح الثقيل فيه، ثم قفز من قمة الصندوق الذي أطلعكما عليه بالأمس.

وقف «هولمز» مدة دقيقة يفكر تفكيرًا عميقًا.

قال أخيرًا:

ـ أتأذن لي، يا دكتور «تريفليان»، بأن أصعد إلى الدور العلوي وألقي نظرة على الحالة بنفسي؟

فصعدنا، كلانا، يتبعنا الدكتور.

كان منظرًا مفزعًا، ذلك الذي قابلَنا حينما دخلنا من باب حجرة النوم. وقد سبق أن تكلمت عن الترهل الظاهر في وجه «بلسنجتون». بدا هذا الترهل بصورة أوضح، أثناء تأرجحه من الخطاف، وزادت شدته حتى صار منظره بشعًا لا يوحي بمنظر بشري. برز عنقه إلى الأمام كأنه عنق دجاجة مذبوحة، وبدت بقية جسمه بدينة جدًّا وغير طبيعية بالقياس إلى ذلك العنق. كان يرتدي ملابس النوم الطويلة، تبرز منها قدماه ورسغا قدميه. وقد وقف إلى جانبه مفتش بوليس وسيم الوجه يكتب مذكرات في دفتر صغير.

قال، مُرحِّبًا جدًّا بزميلي عند دخوله:

ـ أهلًا يا «مستر هولمز»، سرني أن أراك.

فقال «هولمز»:

ـ صباح الخير، يا «لانر» لا تظنني متطفلًا، هذا أكيد. هل سمعت الوقائع التي أدت إلى هذا العمل؟

ـ نعم، سمعت بعضًا منها.

ـ هل كونت أي رأي؟

ـ حسبما أرى، ساق الخوف هذا الرجل إلى الجنون. فقد نام جيدًا في السرير، كما ترى. فإن انطباع جسمه عميق في الفراش. وتعلم أن الانتحارات تتم عادة في الساعة الخامسة صباحًا. وهذا هو، تقريبًا، الوقت الذي شنق فيه نفسه. تبدو مسألة دقيقة جدًّا.

قلت:

ـ يجب أن أقول إنه مات منذ ثلاث ساعات، كما يتضح من تصلب العضلات.

فسأل «هولمز» يقول:

ـ هل لاحظت شيئًا غريبًا في الحجرة؟

ـ وجدت مفكًّا وبعض المسامير البرمة فوق حامل غسل الأيدي. يبدو أنه دخن كثيرًا أثناء الليل، فها هي أربعة أعقاب سيجار، أخذتها من جانب الوطيس.

قال «هولمز»:

ـ يا للغرابة! هل حصلت على مبسم سيجاره؟

ـ كلا، لم أرَ شيئًا كهذا.

ـ إذن، فهل وجدت علبة سيجاره؟

ـ نعم، كانت في جيب معطفه.

فتح «هولمز» العلبة وشمَّ السيجار الوحيد الذي كانت تحويه:

ـ هذا سيجار هافانا، بينما تلك من أنواع السيجار الغريبة التي يستوردها الهولنديون من مستعمراتهم في الهند الشرقية. عادة ما تكون مغلفة بالقش، وهي أرفع، بالنسبة إلى طولها، من أي نوع آخر.

أخذ الأعقاب الأربعة وتفحصها بعدسة جيبه.

ـ اثنتان من هذه الأعقاب دُخنتا بمبسم، واثنتان من دون مبسم. اثنتان قطعتا بسكين غير حادة كثيرًا، واثنتان عضت طرفيهما مجموعة أسنان قوية. هذا ليس انتحارًا يا «لانر»؛ إنها جريمة قتل خُططت بدقة متناهية وبدم بارد.

فقال المفتش:

ـ مستحيل!

ـ ولماذا؟

ـ لماذا يقتل أي شخص رجلًا بطريقة خرقاء كأن يشنقه؟

ـ هذا، ما سنكتشفه.

- من الباب الخلفي.



فتح «هولمز» العلبة وشمَّ السيجار الوحيد الذي كانت تحويه

- كيف دخلا؟

- من الباب الأمامي.

- وُجد الباب مقفلًا بالمزلاج، في الصباح.

ـ إذن، فقد وُضِع المزلاج بعد خروجهما؟

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ وجدت آثارهما. اسمح لي بلحظة، وسيكون بوسعي أن أعطيك مزيدًا من المعلومات عن هذا.

ذهب «هولمز» إلى الباب، وأدار القفل وفحصه بطريقته الفنية، ثم أخرج المفتاح الذي كان في الداخل وفحصه أيضًا، كما فحص السرير والبساط والكراسي ورف الوطيس والجثة والحبل. كلًّا بدوره حتى أبدى اقتناعه. وبمساعدتي ومساعدة المفتش قطع الحبل ووضع الجثة تحت ملاءة.

قال متسائلًا:

ـ ماذا عن هذا الحبل؟

قال الدكتور «تريفليان»:

ـ قُطع من هذه اللفة.

قال هذا وسحب لفة كبيرة من تحت السرير، واستطرد يقول:

ـ كان لديه خوف مرضي من النار، ويحتفظ بهذه اللفة إلى جانبه كي يستطيع النجاة عن طريق النافذة إذا ما شب حريق وقطع اللهب طريق السلم.

قال «هولمز» مفكرًا:

ـ لا بد أنه وفر عليهم جهدًا. نعم، الوقائع الحقيقية واضحة جدًّا. ولن يأتي الظهر حتى أزودك بأسبابها أيضًا. سآخذ صورة «بلسنجتون» التي أراها على رف الوطيس، لأنها قد تساعدني في استعلاماتي.

فقال الطبيب:

ـ ولكنك لم تخبرنا بشيء!

قال «هولمز»:

ـ ما من شك في تعاقب الأحداث. كانوا ثلاثة في هذه الجريمة: الرجل الشاب، والرجل العجوز، وأما الثالث فلا أعرف، حتى الآن، دليلًا يوصلني إلى شخصيته. فالاثنان الأولان، هما بلا شك الرجلان اللذان تنكرا في صورة نبيل روسي وابنه. وبذا يكون لدينا وصف دقيق لهما. أدخلهما إلى البيت زميل ثالث لهما. وإذا كان بوسعي أن أقدم لك نصيحة، أيها المفتش، فهي أن تقبض على خادم العيادة الذي، كما أتذكر، جاء حديثًا في خدمتك يا دكتور «تريفليان».

قال الدكتور «تريفليان»:

ـ لا يمكن العثور على هذا العفريت الصغير. كانت الخادمة والطاهية تبحثان عنه منذ فترة وجيزة فحسب، فلم تعثرا له على أثر.

هز «هولمز» كتفيه وقال:

ـ لعب ذلك العفريت دورًا هامًّا في هذه الدراما. صعد الرجال الثلاثة السلم على أطراف أصابع أقدامهم: الرجل العجوز أولًا، والشاب بعده، ثم الخادم غير المعروف في المؤخرة...

فقاطعتُه بقولي:

ـ يا عزيزي «هولمز»!

ـ لا جدال في تراكب آثار الأقدام. كانت لي ميزة معرفة آثار أقدام مَن لمَن، في الليلة الماضية إذن، فقد صعدوا إلى حجرة «المستر بلسنجتون»، فوجدوا بابها موصدًا. وبواسطة سلك، أداروا المفتاح بالقوة. فحتى بغير عدسة يمكنك أن ترى خدش السلك في وجه القفل حيث حدث الضغط.

وعندما دخلوا الحجرة، لا بد أن كان أول عمل قاموا به هو وضع سدادة داخل فم «المستر بلسنجتون». ربما كان نائمًا، وإلا أصابه الشلل من شدة الذعر. ولعدم إمكانه الصراخ لم يسمع أحد صوتًا. وحتى لو كان لديه الوقت ليصرخ، فإن هذه الحوائط سميكة تمنع سماع صراخه خارجها.

وانتهى الأمر بأنهم أخذوا «بلسنجتون» وشنقوه. وكان الأمر مدبَّرًا من قبل بدليلِ أنهم أحضروا معهم بكرة رافعة ليستعملوها كمشنقة. وهذه المسامير البرمة، وهذا المفك، أعتقد أنها كانت لتثبيت البكرة في السقف. فلما أبصروا الخطاف، وفَّروا على أنفسهم، بطبيعة الحال، عناء البكرة الرافعة. وبعد أن أتموا عملهم، هربوا، فأقفل زميلهم الباب خلفهم.

أصغينا، جميعًا، بانتباه إلى تصوير العمليات الليلية التي استنتجها «هولمز» من علامات بسيطة دقيقة، حتى إنه لما ذكرها لنا كدنا لا نستطيع متابعة استدلالاته. فأسرع المفتش في الحال ليستعلم عن خادم العيادة، بينما رجعت أنا و«هولمز» إلى شارع بيكر لنتناول طعام الإفطار.

بعد أن انتهينا من طعامنا، قال «هولمز»:

ـ سأعود في الساعة الثالثة مساء، وسيقابلني كلٌّ من المفتش والدكتور «تريفليان» هنا في هذا الموعد. وآمل، في هذه الفترة، أن أكون أوضحت كل غموض بسيط في هذه القضية.

جاء زائرنا في الموعد المحدد، ولكن صديقي لم يأتِ إلا في الساعة الرابعة إلا ربعًا، فعرفت من ملامحه أن كل شيء سار معه على ما يرام.

ـ هل من جديد، أيها المفتش؟

ـ قبضنا على الغلام، يا سيدي.

ـ رائع، وأنا جئت بالرجلين.

فصحنا نحن الثلاثة قائلين:

ـ هل جئت بهما؟!

ـ على الأقل، عرفت شخصيتيهما. فهذا المسمى «بلسنجتون»، هو، كما كنت أتوقع، معروف جيدًا لقسم البوليس، وكذلك قاتلوه، وأسماؤهم هي: «بيدل»، و«هايوارد»، و«موفات».

فصاح المفتش يقول:

ـ عصابة «ورذنجدون» المتخصصة في سرقة البنوك؟

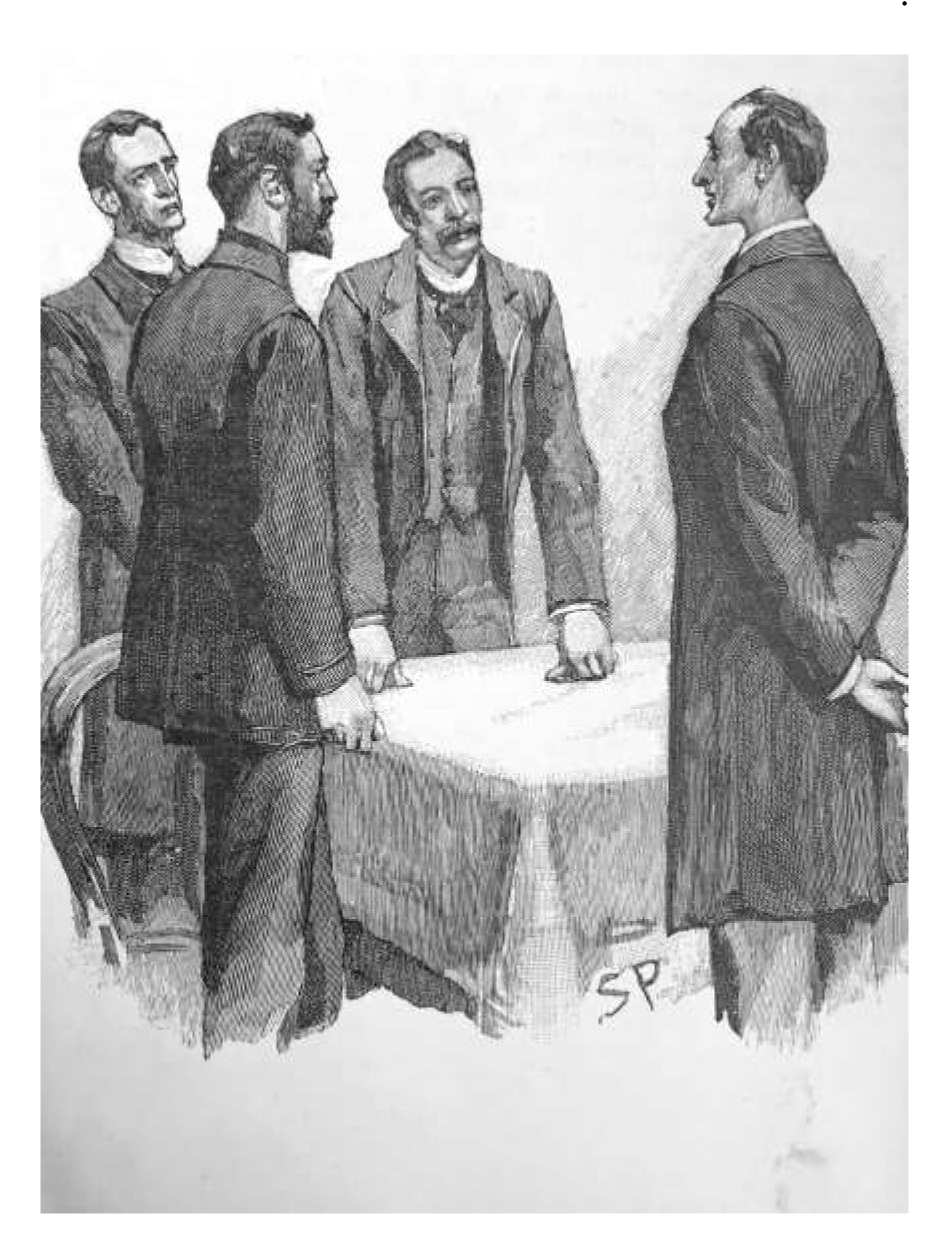
فقال «هولمز»:

ـ بالضبط.

ـ إذن، فلا بد أن يكون «بلسنجتون» هو «صاطون»؟

قال «هولمز»:

ـ تمامًا!



فصحنا نحن الثلاثة قائلين: «هل جئت بهما؟! »

قال المفتش:

ـ إذن، فهذا الاكتشاف قد أوضح المسألة وضوح البلور.

أخذت أنا و«تريفليان»، ينظر كلٌّ منا إلى الآخر في حيرة.

فقال «هولمز»:

ـ لا بد أنكم تتذكرون السرقة الكبرى لبنك «ورذنجدون». قام بها خمسة رجال، هؤلاء الأربعة، والخامس اسمه «كارترايت»، قتلوا الملاحظ «توبين»، وذهبوا بسبعة آلاف جنيه. كان هذا في عام 1875. كانوا خمسة، قُبض عليهم جميعًا، غير أن الأدلة ضدهم لم تكن قاطعة. وكان «صاطون» هذا، أو «بلسنجتون»، هو أسوأ الجميع. فانقلب عليهم، وقام بدور شاهد ملك. وبناء على شهادته شُنق «كارترايت»، وحكم على الثلاثة الباقين بخمسة عشر عامًا لكل منهم. فلما خرجوا من السجن منذ فترة وجيزة، قبل انتهاء المدة المحكوم بها عليهم ببضعة أعوام، عوَّلوا، كما ترون، على البحث عن الخائن والأخذ بثأر زميلهم. حاولوا القبض عليه مرتين فأخفقوا. ولكنهم وُفقوا في المرة الثالثة، كما ترون. أهناك ما تريد أن أوضحه لك، غير هذا، يا دكتور «تريفليان»؟

قال الطبيب:

ـ أعتقد أنك أوضحت كل شيء تمام الإيضاح. لا شك في أن اليوم الذي بدا فيه «بلسنجتون» مذعورًا، هو الذي قرأ فيه، في الصحف، نبأ إطلاق سراح زملائه.

ـ هو هكذا بالضبط. كلامه عن سرقة كان تعتيمًا بحتًا.

ـ ولكن لماذا لم يستطع أن يقول لك هذا؟

ـ لما كان يعرف بطبيعة زملائه الانتقامية، فقد حاول، يا سيدي العزيز، إخفاء شخصيته عن كل إنسان، ما وسعه ذلك. كان سره عارًا أي عار. ولم يرغب في الظهور بمظهر المجرم، ومع ذلك، فرغم حقارته، كان لا يزال يعيش في حماية القانون البريطاني. ولا شك عندي، أيها المفتش، في أنه رغم وجود تلك الحماية، فإن سيف العدالة ما زال ينزل القصاص.

هكذا كانت ظروف المريض المقيم، وطبيب شارع بروك. ومنذ تلك الليلة، لم يُعثر لهؤلاء القتلة الثلاثة على أثر. ويقول «سكوتلانديارد» إنهم كانوا ضمن ركاب الباخرة المشؤومة «نوره كرينا» التي فُقدت منذ بضع سنين، بكل من عليها أمام شاطئ البرتغال، على بعد عدة فراسخ شماليَّ أوبورتو. أما الغلام خادم العيادة، فقد أخفقت الإجراءات في إدانته لعدم كفاية الأدلة. ولم تكتب الصحف إطلاقًا عن لغز شارع بروك، كما أطلقَ عليه.

ترجمات الكرمة

1. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

2. سالباتييرًّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

3. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

4. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

5. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

6. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

7. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

8. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

9. عشيق الليدي تشاترلي - د. ه. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

10. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

11. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

12. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

13. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

14 . تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

15 . أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

16 . ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

17 . اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

18 . الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

19 . الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

20 . أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

21. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

22. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

23 . حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

24 . حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

25. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.

Notes

[1←]
الفرلونج = 220 ياردة. (المترجم).

[2←]
نظارة لعين واحدة. (المترجم).

[3←]
مرض عصبي يرجع إلى اضطراب عقلي. (المترجم).

[4←]
صوت الشهقة العالية المتكرر. (المترجم).

[5←]
أي ليصير ضابطًا. (المترجم).

[6←]
الجيني = 21 شلنًا. (المترجم).